

التفكير في القرآن

السيد جعفر الحسيني الشيرازي

عبدالله بن محمد

هذا القرآن الذي هو الهدى والفرقان

دار العلوم



التفكير في القرآن

الكلالة الحقوق محفوظة محفوظة مسجلة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م



المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919

ص.ب : 140 / 24 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650

www.daraloloum.com

E-mail: info@daraloloum.com

التفكير في القرآن

السيد جعفر الحسيني الشيرازي

الجزء الأول

دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا
نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

النحل : ٤٤.

القدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين، إلى يوم الدين.

وبعد فقد كنت بدأت في مطالعة كتب التفاسير والتدبر في القرآن الكريم منذ فترة ليست بالقريبة، ثم فكرت بأن أدون بعض النقاط تذكراً لي ولأستفيد منها حين إلقاء المحاضرات، ثم تطورت الفكرة بأن أفصل بعض الشيء ليكون كتاباً حول آيات القرآن الكريم، علّه يستفيد منه البعض فأشارك في الثواب، وأكون من خدمة القرآن الكريم، ولا أسمى هذه الصفحات تفسيراً فإنني أقرّ بعجزني عن ذلك، ولكنها بعض التأملات والتفكرات في بعض الآيات القرآنية.

وكان الشروع في التدوين في العام ١٤٢٥هـ، ثم انقطعت لمدة أربع سنوات، حتى منّ الله عليّ بمواصلة في الكتابة، ولذا اختلف

قليلاً أسلوب أول الكتاب مع وسطه وآخره بالإيجاز أولاً،
وبالتفصيل بعض الشيء ثانياً.

أسأل الله أن يوفقني للإكمال، كما وفقني في الشروع، إنه وليّ
ذلك وهو المستعان.

٤ / شهر رمضان المبارك / ١٤٣٠هـ

جعفر بن محمد الحسيني الشيرازي

سورة الحمد

سورة الحمد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الابتداء في الكلام بالله تعالى والاستعانة به،
لأنه الخالق الرازق، وكل الأمور مرتبطة به.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ هو واسع الرحمة فتشمل رحمته الجميع في الدنيا.
﴿الرَّحِيمِ﴾ هو كثير الرحمة لمن يستحقها فتختص هذه الرحمة
بالمؤمنين.

فالابتداء والاستعانة به، توجب رحمته التي يتمكن بها الإنسان
من الانطلاق في الحياة والوصول إلى الهدف المنشود.

٢ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو المستحق لكل أنواع الحمد حقيقة،
لأنه تعالى يرجع إليه كل كمال.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو السيد والمرَّبِّي لجميع المخلوقات
والعوالم كعالم الإنسان والحيوان والجن والملك وغيرهم، وبتربيته
كملوا فاستحقوا الحمد.

٣ - ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تأكيد لما سبق، وكذلك مقدمة للآية
التالية، فإنه يرحم يوم الجزاء، أو تكملة للآية السابقة، فإنه يستحق
الحمد لأنه يرحم.

٤ - ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وحيث إنه منشأ الرحمة، فإنه يجازي
الجميع في يوم الجزاء فلا يُعاقب إلا الشقي الذي لم يستفد من النعم
التي حباها إياه فيما يُصلح شأنه، وحيث إنه منشأ الرحمة فقد يغفر
الذنوب جميعاً إلا الشرك.

٥ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حيث إنه رب العالمين وإليه الرجوع والجزاء
فهو الذي له العبادة لا غيره.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن كل الأمور إليه، ففي الأعمال نستعين
به لا بغيره.

٦ - ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي أرشدنا ودُلنا على الطريق
الواضحة، حيث إنه مالك كل شيء، وجزاء الأعمال بيده، وهو منشأ
الرحمة، فإننا نطمع في أن يُعلِّمنا الطريق الصحيحة التي توصلنا إلى
السعادة الأبدية.

٧ - ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فإنه من رحمته جعل لنا

الأسوة والقُدوة إذ تفضل عليهم واصطفاهم وعصمهم، ثم أمرنا
باتباعهم فأرشدونا إلى الحق والصواب.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين خالفوا عمداً فغضب عليهم.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الذين ضلوا عن الطريق، وقد تكون مخالفتهم
عن جهل وقصور.



بحوث:

الأول: الفرق بين الرحمن والرحيم، هو أن الرحمن: واسع الرحمة
فتشمل رحمته المؤمن والكافر، فلذا جعلوا هذه الصفة في الدنيا، وأما
الرحيم فهو صيغة مبالغة بمعنى كثير الرحمة، فتكون لمن يستحقها، فهي
خاصة بالمؤمنين، لذا تكون لهم في الدنيا والآخرة، والرحمن صفة خاصة
بالله تعالى فلا تطلق على غيره، وأما الرحيم فتطلق على غيره كقوله تعالى
في وصف الرسول ﷺ: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

الثاني: الفرق بين الحمد والشكر والمدح، هو أن الحمد ضد الذم وهو
الثناء على الجميل الاختياري، ويكون بالكلام فقط، وحتى في غير النعمة،
فلذا يحمد الله تعالى على المصيبة أيضاً.

وأما الشكر فهو ضد الكفران، ويكون في النعمة خاصة، سواء كان
بالكلام أم بالقلب.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

وأما المدح فهو ضد الهجاء، ويكون بذكر كمالات الممدوح، ويشمل حتى ما لا يكون بالاختيار، كما نقول مدحت اللؤلؤ والفرس، بذكر كمالاتها، وإنما قلنا إن الحمد بالكلام ولم نقل باللسان حتى يكون حمد الله لنفسه، على نحو الحقيقة لا المجاز.

الثالث: أنه لا يوجد تكرار في القرآن، بل قد يكون تشابه ظاهري في بعض الكلمات والآيات، ولكن كل في موقعه، بحيث لو زحزح عن موقعه لاختلَّ نظام الآيات، كأبواب غرف الدار فلكل غرفة باب تشابه سائر الأبواب وليس أحدها تكرار للآخر، فقوله الرحمن الرحيم في الآية الأولى وفي الآية الثالثة، لغرضين مختلفين، فلعلَّ الأولى لبيان علّة الابتداء باسم الله، والثانية لبيان علّة حمده تعالى أو كمقدمة لذكر أنه مالك يوم الجزاء، وسيأتي تفصيل بحث عدم التكرار لاحقاً في سورة البقرة في الآية ٩٢، إن شاء الله.

الرابع: العالم هو مجموعة من المخلوقات التي تشترك في صفة أو زمان أو مكان، فلذا يطلق على عالم الإنسان، وكذلك على ذوي العقول، والجمادات والنباتات والحيوانات وغيرها.

الخامس: ذكر ملكيته تعالى ليوم الجزاء، مع أنه مالك سائر الأيام أيضاً، لأن ظهور تلك الملكية هو في يوم الجزاء، وأما في الدنيا فتوجد هنالك ملكيات اعتبارية، وقد يُنكر الكفار ملكيته تعالى.

السادس: تُسمى سورة الحمد بأم الكتاب أي أصله، ولعله لأن هذه السورة تجمع بين توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وتوحيد العبادة، وبين النبوة والإمامة، وبين المعاد وبين الولاية والبراءة من أعداء الله، وبين أهم وظائف العباد.

فقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى توحيد الذات فلا رب غيره، و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكٍ﴾ إشارة إلى توحيد الصفات، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى توحيد العبادة، وكذلك بيان وظيفة الإنسان في عبادته تعالى، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى توحيد الأفعال فنستعين به في كل أعمالنا ولا نستعين بغيره من الأصنام والأرباب المتفرقين، ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى القدوات من النبيين وأوصيائهم، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾^(١)، و﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى المعاد، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾... إشارة إلى الطرق المنحرفة عن الجادة الصحيحة ولزوم التبري منهم - بالملازمة -.

السابع: الطريق إلى الله تعالى واحدة، قال تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقال تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾^(٢)، ولذا قال سبحانه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وبين الذين أنعم عليهم بقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾... الخ، فالأنبياء ﷺ كلهم في طريق واحدة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾^(٣) وإنما الشرائع متعددة، والاختلاف في بعض الأحكام الفرعية كما قال تعالى: ﴿وَلَا أُجِدُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤)، فكما أن نسخ بعض أحكام الشريعة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ لم يوجب تعدد الدين الإسلامي، كذلك نسخ بعض أحكام الشرائع السابقة لا يوجب تعدده، تأمل.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

الثامن: دعاء الذين هم على الصراط المستقيم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾، لاستمرار الهداية، فإن الإنسان مُعرَّض للانحراف في كل
لحظة، وكذلك لزيادة الهداية كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ
هُدًى﴾^(١) فإن بصيرة المؤمنين وعملهم يختلفان ولذا اختلفت درجاتهم.

التاسع: من أظهر مصاديق الصراط المستقيم أهل البيت عليهم السلام ولذا ورد
في بعض الروايات تفسير الصراط المستقيم بأمر المؤمنين عليهم السلام وبالإمام
المفترض الطاعة^(٢).

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) راجع تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٤٧ فما بعد.

سورة البقرة

سورة البقرة

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

١ - ﴿الْم﴾ تقرأ: ألف لام ميم.

٢ - ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ إشارة للبعيد للتعظيم، أو لأن الكتاب له
سمو لا تصل إليه العقول كثيراً، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك في أنه من الله
تعالى، لعجز البشر عن الإتيان بمثله لفظاً ومعنى.

ثم قسم الله تعالى الناس في مقابل الدعوة إلى أقسام ثلاثة:
مؤمن وكافر ومنافق.

القسم الأول من الناس

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون به، أما غيرهم فلا

يزيدهم إلا خساراً، وذلك لأن المتقين يحفظون أنفسهم من المغريات ويتحملون صعوبات الحق فينتفعون بهذا الكتاب ويهتدون به.

٣ - ٤ - ولهؤلاء المؤمنين صفات تميزهم عن غيرهم بعضها اعتقاد وبعضها عمل، وهي:

أ - ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يصدقون بما غاب عن الحواس كاللّه تعالى، فهم لا يرون ظاهر الحياة الدنيا فقط، بل يعلمون بأن وراء الظاهر حقائق معقولة، فيؤمنون بها.

ب - ﴿وَيُسَبِّحُونَ الصَّلَاةَ﴾ شكراً للمنعم الذي خلقهم.

ج - ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فلم يكلفوا بما لا طاقة لهم به، بل أمروا بالإنفاق من بعض ما رزقهم الله.

د - ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيؤمنون بأنك رسول من قبل الله تعالى، وأن القرآن منزل إليك من الله.

هـ - ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب السماوية، فلا يفرقون بين أحد من رسله.

و - ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ حيث جزاء الأعمال.

وجمعت في هاتين الآيتين أركان الإيمان، وهي الإيمان بالله والنبوة والمعاد، وأهم الأعمال وهي الصلاة والإنفاق.

٥ - ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هداية جاءت من ربهم، لأنهم كانوا محلاً قابلاً لتلك الهداية، بفكرهم وعملهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ لأن من يمشي في الطريق الصحيحة يفلح في الدنيا قبل الآخرة، والفلاح النجاح والفوز.



بحوث:

الأول: الحروف المقطعة في القرآن، لعل المقصود بها التحدي، فالقرآن متشكّل من هذه الحروف التي ينطق بها الجميع ومع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله، ولذا حينما تذكر الحروف المقطعة يذكر بعدها القرآن مباشرة - غالباً -، ويؤيده ما روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام «فقال الله تعالى ﴿آلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ﴾ أي يا محمد، هذا الكتاب الذي أنزلته إليك، هو الحروف المقطعة التي منها ألف ولام وميم وهو بلغتكم وحروف هجائكم^(١)

وقيل إن الحروف المقطعة رمز بين الله ورسوله ﷺ وقيل غير ذلك .
الثاني: قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليس إخباراً، لأن كثير من الناس ارتابوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾^(٢)، بل المنفي كونه في مظنة الريب، لأنه من وضوح الدلالة بحيث لا ينبغي لمرتاب الوقوع فيه.

الثالث: كون القرآن هدى للمتقين، لأنهم هم الذين ينتفعون به، وكذلك لزيادة الهدى لهم، وإلا فإن القرآن أنزل للجميع، لكن غير المتقين بأعمالهم أصبحوا محلاً غير قابل للهداية، وبذلك تُفسّر الآيات التي تدل بأن الهداية

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٥٩، عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

والإضلال من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١) وقوله: ﴿مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾^(٢) فإن الإنسان بعمله يجعل نفسه محلاً قابلاً للهداية أو للضلال كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣) ففسقه سبب عدم نزول هداية الله عليه.

الرابع: الإيمان هو التصديق أي المعرفة مع بناء الإنسان على الإذعان والاعتراف عملاً، والإيمان له مراتب ولذا قال الله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ فأول مراتبه التشهد بالشهادتين ويقابله الكافر، ومن مراتبه الاعتقاد ويقابله المنافق، ومنها ما اشتمل على العمل ويقابله الفاسق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾^(٥) فالإيمان الكامل اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان.

وسياتي تفصيل هذا الأمر لاحقاً - إن شاء الله تعالى -.

الخامس: قوله تعالى: ﴿يَا لَغَيْبٍ﴾ إما على أنه مفعول للإيمان أي يؤمنون بما غاب عن حواسهم، أو بمعنى إيمانهم في حال غيابهم أي أنهم ليسوا كالمنافقين، بل حتى في حال غيابهم الإيمان مستقراً فيهم كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ أَخُتْ بِالْغَيْبِ﴾^(٦).

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١٨.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

السادس: أقام الصلاة، أي استمر في الصلاة وأدامها، فتفيد المواظبة على الصلاة بشكل مستمر، عكس المناق الذي يصلي في المأ ويترك الصلاة في الخلاء، أو الإقامة في مقابل الاعوجاج كما في «أقام العود» أي أزال اعوجاجها وجعلها مستقيمة، فيكون المعنى حفظ الصلاة من وقوع الاعوجاج والزيغ فيها، بل أتى بها بشروطها وأجزائها وترك قواطعها وموانعها.

السابع: الرزق هو كل شيء يتمكن الإنسان من الاستفادة منه بلا منع، والمراد هنا هو كل ما أعطاهم الله تعالى سواء كان مادياً كالطعام والمال أم معنوياً كالعلم، كما أُشير إليه في بعض الروايات، وفي قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن الرزق كله من الله تعالى وليس من البشر - أولاً وبالذات - كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(١) فالله تعالى تفضل على العباد بأن رزقهم، ثم أمرهم بإنفاق بعضه - لا كله - امتحاناً لهم، وليعوضهم عنها برزق أكبر في الدنيا قبل الآخرة، ولذا سمي الإنفاق زكاة لأنها في الأصل النمو.

الثامن: اليقين هو العلم الذي تسكن إليه النفس، وكان مطابقاً للواقع، فالقطع الذي يخالف الواقع لا يسمى يقيناً بل هو جهل مركب، والذي يشوبه الشك أو عدم الاطمئنان لا يكون يقيناً، وعن الإمام الرضا عليه السلام (الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قُسم في الناس شيء أقل من اليقين)^(٢).

التاسع: ذكر الصلاة والزكاة بالخصوص مع كثرة العبادات العملية، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية، ولذا كانت الصلاة عمود الدين والناحية عن الفحشاء والمنكر، وكانت الزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق.

(١) سورة هود، الآية: ٦.

(٢) البحار، ج ٧٠، ص ١٣٦.

القسم الثاني من الناس

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٦ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفرأ بعناد ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا ينتفعون بإنذارك، لأن المعاند لا علاج له فهو على باطله، سواء تم تحذيره أم لا.

٧ - ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ لأنه لا علاج له فيطبع الله على قلبه وسمعه بعلامة الانحراف، ﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ أي غطاء، فبعناده أغلق الباب على نفسه فلا يسمع ولا يبصر، وهذا الغطاء على السمع والبصر يمنعه من أن يعي الحق لأن القلب طريقه السمع والبصر عادة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نتيجة لعنادهم وكفرهم.



بحوث:

الأول: الكفر من الأمور التي يكون فيها الشدة والضعف، فللكفر مراتب، وأشد مراتبه إنكار الربوبية عن جحود قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَا

وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ^(١)، ويليه الإنكار عن جهل أو استحسان قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢)، ثم الكفر بالنعم قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٣)، ثم ترك ما أمر الله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^(٤).

وهناك قسم آخر يختلف عما مضى ويكون من الصفات الحسنة، وهو البراءة من أعداء الله تعالى قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾، وقد يطلق على تبري بعض الكفار عن بعض قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وقد أُشير إلى ذلك في بعض الروايات^(٥).

الثاني: فائدة إنذار المعاند أحد أمرين:

(١) اختلاط المعاند بغيره فالتبليغ يكون عاماً.

(٢) لإتمام الحجة قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٦).

وقيل في معنى الإنذار: إنه التحذير مما يخاف منه من اتساع الزمان لاحتراز منه، فإن لم يتسع الزمان فهو إشعار.

الثالث: ختم الله على قلب المعاند، قد يكون بمعناه الحقيقي بطريقة غيبية، كما ورد في بعض الأخبار من جعل علامة على قلبه يعرفها الملائكة

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٥.

(٥) البرهان، ج ١، ص ٢٦٧ عن الكافي.

(٦) سورة الاعراف، الآية: ١٧٢.

والرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام^(١)، وقد يكون بمعناه الحقيقي بطريقة طبيعية، بمعنى أن الله جعل من طبيعة الأعمال التي يرتكبها المعاند أنها تؤدي إلى إغلاق قلبه على الهداية كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾^(٢) وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٣). وقد يكون بمعناه المجازي تشبيهاً للمعاند بالكيس الذي ختم عليه فلا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء.

الرابع: تخصيص السمع والأبصار بالذكر، لأنهما عادة يكونان الطريق إلى الفهم، وإلا فإن سائر الحواس طريق إليه قليلاً، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ قد يكون عطفاً على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على سمعهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُمْ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلْ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾^(٤)، وقد تكون الواو للاستئناف أي على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، والغشاوة الغطاء قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُورُ﴾^(٥).

والختم على القلوب والسمع، والغشاوة على الأبصار، من فعل الله، نتيجة لعناد الكافر - بالمعنى الذي مرّ - ولذا قال تعالى: ﴿وَنَحْنُمْ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلْ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾، وليس كما قيل من أن الختم من الله والغشاوة من الكافر.

ثم إن الختم والغشاوة في الدنيا، تمنعهم من السعادة الدنيوية كالصم العمي الذين لا يتمتعون بكثير من النعم الدنيوية، وتوجب الشقاء في الآخرة، ولذا أتم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) البرهان ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة غافر، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

القسم الثالث من الناس

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٩) فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(١٠)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١١) أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾^(١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ
النَّاسُ قَالُوا اتَّبِعْنَا أُنُوفُنَا كَمَا ءَامَنَ السَّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا
يَعْلَمُونَ﴾^(١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾^(١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ﴾^(١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا
كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

٨ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ هم منافقون، ومعنى النفاق أن ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ والإيمان باليوم الآخر ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فالمنافق باللفظ يؤمن بأركان الإيمان الثلاثة، ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة.

٩ - وغرضهم من إظهار الإيمان ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حتى يكسبوا المنافع الدنيوية للإيمان ويدفعوا مضار الكفر، ﴿و﴾ لكن

في الحقيقة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن عملهم هذا يوجب خسران الدنيا والآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ لو أحسوا بأنهم يخدعون أنفسهم لم يقدموا على النفاق.

١٠ - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ لأن النفاق مرض نفسي، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لأن استمرار نزول الآيات يزيد عنادهم وجحودهم وإنكارهم لتلك الآيات، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكذبون، لأن ظاهرهم خلاف باطنهم فهو نوع من الكذب.

١١ - ﴿وَ﴾ من صفات المنافقين أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بإثارة الفتنة وإفشاء سر المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ إذ يتوهمون أن الإسلام هو إفساد، فهم بعملهم ووقوفهم أمام انتشاره يريدون دفع الفساد.

١٢ - ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ لأن عملهم تخريب، وهو أكثر ضرراً من عمل الكفار ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١٣ - ﴿وَ﴾ من صفاتهم أنه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ إيماناً حقيقياً ﴿كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ والقائل من لا يخافونهم ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ والسفه: قلة العقل، فإنهم يتخيلون أن المؤمنين قليلو العقل، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ لأنهم على طريق الباطل وهو أشد أنواع قلة العقل ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٤ - ﴿وَ﴾ من صفاتهم أنهم ذوو وجهين ولسانين فإنهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي أمثالهم من

المنافقين أو الكفار ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي موافقوكم على دينكم، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالمؤمنين.

١٥ - ولكن نتيجة عملهم ستعود عليهم إذ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يعمل بهم عمل المستهزىء، فيجري عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، ويعاقبهم أشد من عقاب الكفار ﴿وَيُنذُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي يتركهم وشأنهم، فلا يشرق على قلوبهم نور الإيمان، حتى يبقوا على هذه الحال ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يتحIRON، والعمه: عمى القلب والبصيرة.

١٦ - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ فأخذوا الضلال وأعطوا الهدى، ﴿فَمَا رَیَحَتْ يَجْرَثُهُمْ﴾ فلم يستفيدوا شيئاً ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بل خسروا حتى رأس المال.



بحوث:

الأول: إن الله تعالى في هذه الآيات المباركات:

أولاً: يبين معنى النفاق، وأنه مرض، وأنه يتجذر كلما مضى عليه زمان.

وثانياً: بين صفات المنافقين، وأنهم مصابون بازدواجية في الشخصية، وأنهم مفسدون، وأنهم مصابون بعقدة العظمة فيتوهمون أنهم مصلحون وغيرهم سفهاء، وأنهم متملقون، وأنهم متلونون، فمع المؤمنين بشكل ومع أمثالهم بشكل آخر.

وثالثاً: يبيّن نتيجة عملهم بأن لهم عذاباً أليماً، وأن الله يستهزئ بهم، وأنه يزيدهم في تحيرهم، وأنهم يخسرون كل شيء.

الثاني: المنافق هو الذي لم يعقد قلبه على الإيمان، أي لم يُدعن به، وبعبارة أخرى قلبه يرفض الإيمان، حتى وإن كان يعلم علم اليقين صحته، فالذي يعلم بصدق الرسول ﷺ ويتلفظ الشهادتين ويأتي بالعبادات إذا لم يعقد قلبه على الإيمان فهو منافق، فإن كثيراً من المنافقين كانوا يعلمون بصدق الرسول ﷺ ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾^(١) لكنهم حسداً أو لمصلحة دنيوية أخرى لم يعقدوا قلبهم على التصديق به.

والمنافق أسوأ من الكافر، لأنه خلط بالكفر تدليساً وخداعاً واستهزاءً، ولذا قال تعالى: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٣).

الثالث: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ تعالى، أي يفعلون فعل المخادع، فيظهرون ما لا يريدونه ويريدون ما لا يظهرونه.

ومحاولتهم لأن يخدعوا الله: إما لضعف عقيدتهم بالله وصفاته فيتوهمون أنه لا يعلم بما في النفوس، وإما لزعمهم أن الله لا يهتم ما في القلوب بل ينظر إلى ظاهر العمل، فيكون معنى يخادعون يريدون حصول النتيجة وهي الثواب وعدم العقاب كما يحصل المخادع على النتيجة، وإما المراد أنهم يريدون خداع الرسول ﷺ والمؤمنين فقط، ولكن الله تعالى ذكر نفسه تعظيماً لرسوله وللمؤمنين وتقوية لجانبهم.

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

الرابع: عاقبة الخداع تعود عليهم فيلحقهم الضرر، فهم يجري عليهم أحكام المؤمنين ويتحملون صعوبات الإيمان، ولا يشتركون مع المؤمنين في ثوابه، وفي كثير من الأحيان ينكشفون فيبتعد عنهم المؤمنون ولا يشركونهم في أسرارهم ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

الخامس: عدم شعور المنافقين، هو بسبب فقدانهم المقاييس الصحيحة، والشعور هو الإحساس بالشيء الدقيق واللطيف، وهو يحتاج إلى نظر واستدلال وتأمل، لكن من فقد المقياس لا يمكنه الإحساس فيتوهم أنه خادع في حين أنه منخدع، فلذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

السادس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المرض هو الخروج عن حد الاعتدال، وهؤلاء المنافقون قلوبهم فيها النفاق والشك، فهي خارجة عن الاستقامة فهي مريضة بمرض نفسي، كما أن الأعضاء قد تصاب بالمرض الجسمي.

وهذا المرض النفسي - أي النفاق - قابل للعلاج، شأنه شأن أي مرض آخر، كما روي «ما خلق الله داءً إلا وجعل الله له دواءً»^(١)، ولكن ممارسته تؤصله وتجذره في النفس، كما أن المريض إذا لم يعالج مرضه وباشر ما يضر الجسم، ازداد المرض وتجذر بحيث يصل إلى حد يمتنع علاجه.

السابع: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ لعله بمعنى أنه كلما نزل وحي جديد ازدادوا كفرًا في قلوبهم بإنكار هذا الوحي، لأن قلوبهم ملتوية، فحتى لا يتسلط النور الرباني عليها زادوا في التواء قلوبهم، ولأن هذه الزيادة في

(١) البحار: ج ٥٩، ص ٦٦، ج ١٠.

المرض لما كانت حين نزول الوحي نسبت إلى الله تعالى ، أو كلما ازداد تقدم الإسلام ازدادوا حسداً وبغضاً .

الثامن: ﴿يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كذب المنافق بمعنى مخالفة ظاهره لباطنه ، أما الكلام الذي ينطق به من الشهادتين ونحوهما فإنه صدق يطابق الواقع ولذا قال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(١) فجاء بجملته معترضة وهي ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ ، حتى لا تنصرف شهادة الله بكذبهم إلى ما قالوه وهو ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ ، بل لبيان أن ما قالوه وإن كان حقاً لكنه خلاف ما أضمره في قلوبهم ، فهم كاذبون في إخبارهم عما في قلوبهم .

التاسع: إن المنافق ينكشف كثيراً ، لأن ما في قلب الإنسان يظهر على جوارحه غالباً كما قال تعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^(٢) وروي أنه «ما أضمر أحد شيئاً إلا وظهر في صفحات وجهه وفتلات لسانه»^(٣) ، ولذا يضطر إلى تغطية نفاقه بأكاذيب أخرى ، كما في قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فإنهم أنكروا أنهم مفسدون وقالوا - مثلاً - إنا لا نعمل بالمعاصي ولا نمالي الكفار ، وهذا الكلام وأشباهه زيادة في نفاقهم ، ويمكن أن يكون مرادهم أن ما يعملونه من إثارة الفتن إنما هو إصلاح ، لزعيمهم أن الإسلام فساد يجب القضاء عليه عبر الإثارة عليه لأن القضاء على الفساد إصلاح !!

العاشر: تعبير الله تعالى عنهم بـ ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ وهذه الجملة مما

(١) سورة المنافقون، الآية: ١ .

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٠ .

(٣) نهج البلاغة: ص ٦٠٣ ، رقم الحكمة ٢٦ .

تفيد الحصر، لأن فسادهم أكثر من فساد الكفار، ولذا قال تعالى: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾^(١) على الحصر أيضاً، لأن العدو الباطن المتستر بلباس الصديق يمكنه الإيقاع والضرر أكثر مما يمكن للعدو الظاهر، والفساد في الكون إنما يكون من طرف الإنسان ولذا قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(٢) وذلك لأن الكون مبني على الاستقامة، وكل شيء سائر على خط واحد نحو هدفه الواحد، فالفساد في الكون لا يحدث من أي عنصر من عناصره، لأن الكون معصوم بكل جزئياته قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آفَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٣) فالفساد إنما يأتي من قبل الإنسان، وإذا حدث اصطدام فلا يمكن إزالته إلا عبر إنسان آخر منسجم مع الكون^(٤).

الحادي عشر: قولهم ﴿كَمَاءَ أَمْنٍ السُّفَهَاءُ﴾ وتعيرهم السفهاء عن المؤمنين، إما لأجل أن أكثر المؤمنين كانوا من الفقراء، والمنافقون كانوا عادة من المملأ من القوم، وإما لأجل أن يدفعوا عن أنفسهم الاعتراض بهذه الحجة، بأن المؤمنين هم سفهاء ونحن أصحاب عقول ولذا خالفناهم!!

الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ أي قليلو العقل، وسبب ذلك أنهم يفعلون فعلاً لا يشبه فعل المؤمنين ولا فعل الكفار، فيضيعوا على أنفسهم الطريقتين، فيضيعوا من حيث ظنوا أنهم يحفظون.

الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ تارة، وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) سورة المنافقون، الآية: ٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٤) خواطري عن القرآن ج ١، ص ١٠٥.

تارة أخرى، لفرق بين الموردين، ففي الأول حيث إن تشخيص أن المؤمنين على حق وأن المنافقين مفسدون يحتاج إلى اعمال نظر ودقة وهم لم يحسوا بذلك ولم يشعروا به، لذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي الثاني حيث إن السفه قلة العقل، وهو سبب لعدم العلم كثيراً فلذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن السفه جاهل لا يعلم.

الرابع عشر: قولهم لسائر المنافقين أو للكفار ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ﴾ دليل آخر على نفاقهم، لأنه لو كان الأمر بالعكس، بأن أظهروا الكفر تقية، لم يزيدوا على إظهاره، لأن من يستعمل التقية يكتفي بها بمقدار اضطراره كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١).

والفرق بين التقية والنفاق، أن النفاق هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر والتقية هي إظهار الكفر وإبطان الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾^(٢).

الخامس عشر: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، بمعنى أنه يفعل بهم فعل المستهزىء، فيجري عليهم في الدنيا احكام المسلمين، ويعاقبهم في الآخرة عقاب الكافرين بل أشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾^(٤) وبعبارة أخرى: يجازيهم على استهزائهم.

السادس عشر: قوله تعالى: ﴿وَيَسُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ امدادهم بمعنى منعه

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.

الطافه عنهم، تلك الألفاف التي توجب الهداية، فإنهم بسبب انحرافهم وتوغلهم في الكفر حرموا أنفسهم من رحمة الله تعالى - كما مرّ نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ..

السابع عشر: قوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ الاشتراء هو الاستبدال، وإنما قال ذلك مع أنهم لم يكونوا مؤمنين أصلاً حتى يعطوا الإيمان ويأخذوا الضلال، لأن الإيمان من الفطرة، فهم أعطوا الإيمان الذي كان في فطرتهم وأخذوا بدله كفرًا، أو لأنهم اختاروا الكفر فكان كالاستبدال، لأن الهدى كان في متناولهم فإذا تركوه كانوا كأنهم أبدلوه، أو لأن بعضهم كانوا قبل البعثة يؤمنون بالرسول ﷺ ويبشرون به وبعد البعثة كفروا كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾^(١).

الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَت بِجَنَّتِهِمْ﴾ لأنهم أعطوا رأس مالهم وهو عمرهم وقدراتهم، فلم يجلبوا الربح وهو الثواب الدنيوي والأخروي فحسب، بل خسروا رأس المال أيضاً، ولذا أكمل سبحانه الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لأنه كثيراً من الأحيان التجارة لا تكون رابحة مع بقاء رأس المال بحيث يرجى ربحه في تجارة أخرى، لكن هؤلاء لم يربحوا وخسروا رأس المال وأصابهم عذاب الله تعالى.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَفْئَادِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

١٧ - لتوضيح حال المنافقين ذكر الله تعالى مثلين :

المثل الأول: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي اشعل ناراً، وكان ذلك في وقت مظلم، ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ أي أطراف هذا المستوقد ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي أطفأ تلك النار، بإرسال ريح أو مطر أو بانتهاء الوقود ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾، فهؤلاء المنافقون بإسلامهم أناروا الدرب لأنفسهم، ولكن حيث إنه إسلام ظاهري فاستفادتهم كانت لفترة قليلة، وبعدها كان حالهم حال سائر الكفار.

١٨ - هؤلاء المنافقون لعدم انتفاعهم بوسائل الفهم يكونون كالأخرس الذي لا يسمع ولا يرى، ﴿صُمُّ﴾ جمع أصم وهو الأطرش

بالولادة ﴿بِكُمْ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس بالولادة ﴿عُمَى﴾ جمع أعمى، فكما أن هؤلاء لا يتعرفون على كثير من الحقائق المادية لفقدهم وسائلها ﴿فَهُمْ﴾ أي المنافقون كذلك، لفقدهم وسائل الهداية، فإنهم لا ينتفعون بما يسمعون ويرون ولا ينطقون بالحق ولا يُرْجَعُونَ ﴿عَنْ غِيْهِمْ﴾، لإغلاقهم أبواب المعرفة على أنفسهم بإغلاقهم السمع والبصر والنطق.

١٩ - المثل الثاني: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أي مطر ﴿مِنْ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ﴾ ظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة تراكم السحب، فإن كل واحد منها يحول بين الأرض ونور القمر أو النجوم، ﴿وَرَعْدٌ وَرَقٌّ﴾ يخافون منهما، فهؤلاء الذين ابتلوا بهذا المطر ﴿يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ﴾ لخوفهم ﴿مِنْ الصَّوْعِقِ﴾ التي تقرع الأسماع ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ لأن الصوت الشديد يوجب انخلاع القلب، ﴿وَلَكِنْ جَعَلَ الْأَصَابِعَ فِي الْأَذَانِ لَا يُفِيدُهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ﴾ بعلمه وقدرته ﴿بِالْكَافِرِينَ﴾.

٢٠ - ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي يعميهم ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ الطريق بنوره ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ أي في البرق، والمراد مشوا مستفيدين من نور البرق، ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن توقف البرق ﴿قَامُوا﴾ أي وقفوا، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بصوت الرعد من الصاعقة ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ بالبرق، فإن الصوت القوي والنور القوي قد يذهبان بالسمع والبصر، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يمنع قدرته الوسائل الظاهرية كوضع الأصبع في الأذن أو تغميض العين.

فالإسلام كالمطر الذي فيه النفع وفيه بعض الصعوبات ، وهؤلاء
لم يستفيدوا منه إلا قليلاً ، وهم في خوف من الأخطار والأضرار .



بحوث:

الأول: سبب ذكر المَثَل هو تسهيل الفهم، وذلك لأن الأمثال في القرآن
لتشبيه المعقول بالمحسوس، وذلك مما يسهل الفهم، لشدة أنس الناس
بالمحسوسات، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) فيكون التمثيل زيادةً في الكشف، كما في بيان العلماء الأشباه
والنظائر في الفقه تقريباً للمسألة.

الثاني: المثل الأول ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لعله تكملة للآية
السابقة، فإن المنافقين اشتروا الضلالة بالهدى، فهم كالمستوقد ناراً الذي
يبدّل بالنور ظلمه.

وحاصل المثل أنه شبهت حيرة المنافقين بما يكابد من طفئت ناره في
ليلة مظلمة، فإن النفاق لا يؤثر لمدة طويلة بل لمدة قليلة، وبعدها يفتضح
المنافقون في الدنيا وينالهم العقاب في الآخرة، وبعبارة أخرى: إن
المنافقين بإسلامهم ظاهراً يعاملون معاملة المؤمنين في الدنيا، فيصاهرون
المسلمين، ويوارثوهم، ويأمنون على أولادهم وأموالهم، لكنهم
مفضوحون عند الناس، وحينما يموتون يعاملونه معاملة الكفار، كما أن
من يُضيء ناراً يستضيء بها ويرى حوله، فلما تطفأ يعود إلى الخوف.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢١.

الثالث: ﴿أَسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ أي طلب الضياء بإشعال النار، فللوصول إلى النور أشعلوا ناراً، ومثلهم عكس مثل المؤمنين الذين يحصلون على النور من دون نار ومضارها، وهو تشبيه بليغ، ولعل المراد أنهم بإظهار الاسلام نفاقاً جلبوا لأنفسهم ناراً تحرقهم من دون نور، لأن الله تعالى أذهب النور وأبقى النار، ولذا قال تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم، وقيل: إن نار جهنم هي نار من دون نور في ظلمة، وهذا النور لعله حدث حينما نطقوا بالشهادتين لكن ذهب بنفاقهم، وقيل هو نور الفطرة زال بالنفاق.

الرابع: فإنهم ﴿صُمُّوا﴾ لأنهم لم يحسنوا الإصغاء إلى أدلة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١)، وهم ﴿بُكْمٌ﴾ لا يقولون الحق ولم يقرّوا بالله ورسوله، فإن (الساكت عن الحق شيطان أخرس)، وهم ﴿عُمِّيٌّ﴾ لا يبصرون الحق فلا ينظرون إلى ملكوت السماوات والأرض.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَرَكَّهَتْ﴾ أي لم يُعْنِهم، ولم يُلطف بهم، وخلق بينهم وبين نفاقهم لأن الله تعالى لا يوصف بالترك، لأنها صفة مكانية والله تعالى منزّه عن المكان بل هو خالقه.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢) فهو لاء سواء مع الصم والبكم والعمي، في عدم انتفاعهم بجوارحهم، فالمراد إنه تعالى علّم بأنهم لا يرجعون عن الكفر والضلالة، فمنعهم المعاونة واللفظ وخلق بينهم وبين اختيارهم.

السادس: قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي عن ضلالتهم، وعدم الرجوع

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

فرع، أي حيث إنهم صموا وأبكموا وعموا لم يُرَجَ فيهم الخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْغَرَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾^(١) وذلك تسجيلاً عليهم بطبع قلوبهم.

السابع: المثل الثاني ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ...﴾ أي كما أن المطر الشديد فيه ظلمات، وفيه برق ينير الطريق، وفيه رعد يخوف السامعين، وفيه صواعق تحرق، كذلك الإسلام فيه ظلمات للمنافقين، لأنه لو أمر بالجهاد فالمنافق في ظلمة حيرته فلا يمكنه قبول الجهاد لعدم اعتقاده ولا يمكنه التخلف خوفاً من كشف أمره، وفيه رعد وهو تهديدات الإسلام لمن خالف، والمنافق لا يريد سماع تلك التهديدات لئلا يظهر الخوف على وجهه فيتبين نفاقه، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾^(٢)، وفيه - أي الإسلام - برق ينير الدرب بتقدم المسلمين واكتسابهم للمغانم، وفيه صواعق وهي العقوبات التي يخاف المنافقون منها، قال تعالى: ﴿لَنْ يَنْفَعَكَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِخُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾^(٣).

وقيل هو تشبيه بالقرآن، أي شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن، وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر، وما في المطر من البرق بما فيه من البيان، وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد آجلاً والدعوة إلى الجهاد عاجلاً.

(١) سورة النمل، الآية: ٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠ - ٦١.

وقيل هو تشبيه بالدنيا تجمع نفعاً وضراً، وكذلك نفاقهم فيه النفع الدنيوي من المناكحة والموارثة حقن الدم، والضرر الدنيوي بالفضح والأخروي بالعذاب.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ جملة مستأنفة لأن المثل انتهى بقوله تعالى: ﴿قَامُوا﴾، والمعنى كما أن الله تعالى يتمكن من إذهاب بصرهم وسمعهم بالبرق والرعد وهي أسباب ظاهرة، كذلك يمكنه ذلك من دون سبب ظاهري، لأن الأمور كلها بيد الله تعالى، فهو الذي جعل شيئاً علة لشيء آخر، ويمكنه سلخ هذه العلية أو تبديلها أو فعل الشيء مباشرة من دون واسطة.

التاسع: قوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الشيء له معنى واسع يساوي الوجود، ويصح إطلاقه على المعدم لبعض الاعتبارات، فيشمل الموجود والمعدوم، ويصح إطلاقه على الله تعالى فعن الإمام الجواد عليه السلام سئل: «يجوز أن يقال لله شيء؟ قال: نعم يخرج عن الحدّين، حد التعطيل وحد التشبيه»^(١).

ومعنى قوله على كل شيء قدير: إنه قادر على المعدومات بأن يوجدها، وعلى الموجودات بأن يفنيها أو يتصرف فيها، وعلى مقدور غيره بأن يمنعه عنه أو يتصرف فيه كما يشاء^(٢).

العاشر: الفرق بين المثليين، أن المثل الأول: حال للمنافق أي المنافق كالمستوقد ناراً، والثاني: حال الهداية بالاسلام أو القرآن التي تصيب المنافق، فلا ينتفع بها، كالمطر الذي لا ينتفع به مع أنه خلق رحمةً.

(١) الكافي ج ١، ص ٨٢.

(٢) بل هو قادر على الممتنعات - بمعنى عدم قصور قدرته - وإن لم يكن لها قابلية، فالنقص منها.

(فصل)

أركان الإيمان

(فصل) أركان الإيمان

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وبعد أن أنهى الله تعالى تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق وبيان أوصاف كل واحد منهم، بدأ بدعوة الناس إلى اتباع الصنف الأول وهم المتقون، وبيان أركان الإيمان الثلاثة:

١ - التوحيد.

٢ - النبوة.

٣ - المعاد.

الركن الأول: التوحيد

٢١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لا الأرباب المتفرقين، وأنعم عليكم ربكم بنعم جمّة أولها أنه ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بهذه العبادة.

الثالث: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لعله لأجل أن استدلالهم بعبادة الأصنام، هو أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها وهم يقتدون بآثارهم، فأجابهم تعالى بأن آباءكم ومن كانوا قبلكم أيضاً مخلوقون لله تعالى، فكان عليهم أيضاً عبادته، ولا يصح اتباعكم لخطئهم وكذلك لأن النعم لا تتم على الإنسان إلا بالنعم على الآباء.

الرابع: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأظهر أن هذه العبارة علة للأمر بالعبادة لسياق الآية، ولأنه دعوة لهم ليكونوا من القسم الأول من الناس - وهم المتقون - الذين أشار إليهم بقوله في أول السورة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فعبادتهم الله تعالى يسوقهم إلى التقوى فيكونون من المتقين الذين يكون القرآن هدى لهم، وقيل إنها علة للخلق أي خلقكم لكي تتقوا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

الخامس: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل من الله تعالى واجب، إذ الترجي لا يعقل من الله تعالى، لأنه ناشئ عن الجهل، فإن من لا يعلم المستقبل يرجو الخير فيه، وأما من يعلم فلا معنى لرجائه، وعن الإمام العسكري عليه السلام «لعل من الله واجب لأنه أكرم من أن يُعَنِّي عبده - أي يوقعه في المشقة - بلا منفعة، ويطمعه في فضله ثم يخيبه، ألا تراه كيف قبح من عبد من عباد إذا قال لرجل «أخدمني لعلك تنتفع بي ولعلي أنفعك بها» ثم يخيبه ولا ينفعه»^(٢).

وإنما جيء بلعل ترقيقاً للموعظة وتقريباً لها من قلب الموعوظ، أو لأجل أن لا يكون العبد آمناً بعمله بعد أن توهم ضمان الجنة بل ليبقى بين الخوف والرجاء ليزداد عملاً وتقوى، وقيل إن لفظة «لعل» في كلام الله

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) البرهان ج ١، ص ٢٩٦.

تعالى هي ترج للمخاطبين كما في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١) فكأنه قال تعالى: اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في هدايته.

السادس: إن القرآن الكريم حيث أنزل لهداية الناس، فإنه يختار أفضل الطرق تأثيراً في الناس، ومنها بيان علل الأحكام، فإن الإنسان إذا عرف فائدة الشيء كان أكثر تخفراً من جاهلها، وكذلك من عرف مضار شيء كان أشد امتناعاً ممن لا يعلمها، وحينما نراجع آيات التشريع نجد ذكر العلل ولو بالإشارة إليها كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣) وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ إلى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^(٥)، وهكذا في هذه الآيات.

السابع: كون الأرض فراشاً لأن جميع وسائل الراحة متوفرة فيها كالفراش الذي يستريح عليه الإنسان، وكون السماء بناءً لأنها كالسقف الذي يحمي الإنسان من الحرّ والبرد والمطر والشمس ونحوها، فإن السماء تمنع الأرض من قذائف الفضاء فتحرقها، وكذلك من الأشعة المضرة للشمس وكذلك الإشعاعات الأخرى، وغيرها.

الثامن: ومن نعمه تعالى أنه جعل بين الأرض والسماء ملائمة تامة

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩١.

(٥) سورة الحج، الآية: ٢٨.

بحيث إنه أنزل المطر من السماء إلى الأرض، فالسمااء تسمح بارتفاع البخار بنسبة معينة لا يضيع معها في الفضاء بل يرجع إلى الأرض بشكل ماء.

التاسع: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ هذه من نعم الله تعالى أن جعل المطر ينبت به بعض الثمرات كالفواكه وغيرها - والبعض الآخر ينبت بسائر المياه من غير المطر، ولكن لما كان أغلب مياه الزرع من المطر خصصه بالذكر، وكذلك لمناسبته مع ذكر الأرض والسماء، وهذا من آيات الله تعالى حيث إن الأرض واحدة والسماء واحدة والمطر واحد، ولكن مع ذلك تختلف الثمرات في مذاقها وألوانها وفوائدها وغير ذلك.

العاشر: حيث إن الخلق من الله والرزق منه فيجب اخلاص العبادة له، لأن من يزعمهم الكفار أنداداً وشركاء لله ليس لهم من الأمر شيء، بل هم مخلوقون مثلهم، وهذه الحقيقة يعرفها حتى المشرك ولذا اكمل سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون أن هؤلاء الأنداد لا يقدرّون على شيء، أو أنّ تعلمون بمعنى تعقلون، أي أنكم أصحاب عقول تعلمون أن الأصنام أو من تعبدونهم من الناس إنما هم عباد أمثالكم.

الركن الثاني: النبوة

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

٢٣ - الركن الثاني من أركان الإيمان الاعتقاد بنبوة محمد ﷺ وأنه رسول الله وأن القرآن منزل من قبل الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿فِي رَيْبٍ﴾ أي شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ واحدة ولو بمقدار أصغر سورة كالكوثر ﴿مِثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن الكريم، ﴿و﴾ يمكنكم الاستعانة بمن شئتم ف﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ الذين يشهدون معكم أن القرآن مفترى ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي الشهداء ممن شئتم من الجن والإنس، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في شككم، بأن لم تكونوا معاندين، فلذا تنفعكم هذه الحجة وهي عجزكم عن الإثبات بمثله، أما إذا لم تكونوا صادقين في شككم بل كان التكذيب عن عناد - بعد علمكم بأنه منزل من الله - فلا تنفعكم هذه الحجة لأن المعاند لا علاج له.



بحوث:

الأول: قوله: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ تأكيد بأن هذا القرآن من قبل الله تعالى ولذا لم يقل في ريب من القرآن، ونزلنا من باب التفعيل وهو - على الأغلب - الإتيان به نجومًا، أي مفرقًا حسب الأزمان والمناسبات، وأما الإتيان به دفعة فهو الإنزال - عادة - من باب الإفعال قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١) أي دفعة واحدة، ولعل من أسباب ريب بعض المشركين هو التنزيل التدريجي وأن القرآن لو كان من عند الله فلماذا لا ينزل دفعة واحدة قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾^(٢) فيأتي الجواب بأنكم إن كنتم في ريب فأتوا بسورة واحدة من مثله.

الثاني: سبب المعاجز هو التأكيد على صدق مدعي النبوة، وذلك لأن النبوة منصب عظيم له تأثير على الناس أكثر من تأثير الحكومات، فلذا كثر المتنبيون الذين يدعون النبوة زورًا وبهتانًا، فللتفريق بينهم وبين الأنبياء خصَّ الله تعالى أنبياءه بالمعاجز التي تظهر صدقهم، وليست المعاجز لتغيير سنن الكون أو إلجاء الناس إلى اتباع الأنبياء، ولذا نرى الأنبياء ساروا في الأسباب الطبيعية التي أودعها الله تعالى في الكون، فأفضلهم رسول الله محمد ﷺ اضطر للدفاع عن الإسلام بخوض أكثر من ثمانين غزوة وسرية، وقُتل من أصحابه، وجرح هو في أحد، وتحمل الأذى، وأرسل المبلغين، وغير ذلك من الأسباب الطبيعية، نعم في موارد قليلة ولمصلحة إلهية كانت المعجزة لتغيير الأسباب الطبيعية، كفلق البحر لموسى ﷺ وإرسال الملائكة في غزوة بدر، وحتى في هذه الموارد هنالك احتمالات أخرى.

(١) سورة القدر، الآية: ١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

الثالث: لماذا القرآن معجزة؟ وكيف؟ ولماذا يعجز البشر عن الإتيان بمثله؟

الجواب إنّ القرآن مزيج من عدة أمور، لا يمكن للإنسان أن يجمع تلك العناصر، بل ولا واحدة منها، فهو معجزة في مجالات متعددة، وكلما مرّ على القرآن زمان اكتشف الناس نقاطاً جديدة من اعجازه فهو:

١ - إعجاز بلاغي، من حيث إنه أفضل الألفاظ لأحسن المعاني، وما فيه من المحسنات البلاغية التي لا تجتمع في كتاب، بدون أي نقص، مع أن أفصح الكتب والأشعار لا تخلو من نقص، وكذلك تناسب ألفاظه فهي متناسبة تماماً مع المعاني في جميعه، وكذلك كل القرآن له أوزان مناسبة - بدون أن يكون شعراً -.

٢ - إعجاز تشريعي: فإن تشريعات القرآن فوق جميع التشريعات، ومهما شَرَّقَ الناس وغرَّبوا وأتوا بتشريعات مختلفة، لم يتمكنوا من الإتيان بمثل تشريعات القرآن، وكل فترة يتم تغيير كثير من التشريعات الوضعية، لتبين خطئها، وعدم انسجامها مع الطبيعة البشرية.

٣ - إعجاز علمي، فعلى رغم تطور العلوم الطبيعية تطوراً مذهلاً، ومع أن القرآن تناول كثيراً من مسائل الكون من السماء والأرض والجبال والأشجار والإنسان، لا نجد هنالك خطأً علمياً فيه، مع أن سائر الكتب تبين أن مؤلفيها تأثروا بالآراء العلمية في زمانهم فأودعوها في كتبهم، ثم بان خطؤهم، وكذلك بتطور العلم تمّ اكتشاف صحة ما في القرآن من علوم طبيعية لم يكن يعرفها أفضل العلماء فكيف بالعرب الأميين.

٤ - إعجاز تاريخي، فالقرآن أخبر عن أمور من التاريخ كانت مجهولة للجميع، ثم تبين صحتها كقوله تعالى عن فرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

لِتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً^(١) ولم يكن يعلم أحد أن جسم فرعون محفوظ بالمومياء، تحت أطنان من الأحجار في الأهرامات، إلى أن اكتشفت جثته بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول هذه الآية.

وكذلك اعجاز بالإخبار عن المستقبل كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ^(٢) فِي أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ^(٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ^(٤)﴾ وكان الأمر كما أخبر، وكما في الآية القادمة ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فأخبر بأنه لم يتمكن أحد من المعارضة رغم توفر الدواعي، وكان الأمر كما أخبر.

٥ - الإعجاز بكونه غَضّاً جديداً، فلا يُخلقه الزمان، عكس سائر الكتب التي تفقد رونقها بمرور الزمن، وكلما تدبر فيه الإنسان اكتشف شيئاً جديداً.

٦ - الإعجاز بعدم وجود التناقض فيه على رغم أنه نزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً وفي ظروف مختلفة قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا^(٥)﴾.

وهناك جهات أخرى مذكورة في مظانها، ومع تقدم البشرية في كل حقبة وزمان يزاح الستار عن عناصر جديدة من عجائبه ومعجزاته.

الرابع: إن التحدي بإتيان مثل القرآن كان على مراحل:

١ - الإتيان بمثل القرآن أجمع قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(٦)﴾.

(١) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٢) سورة الروم، الآيات: ٢ - ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

٢ - بعشر سور قال تعالى: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾^(١).

٣ - سورة واحدة ﴿قُلْ فَأَتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾^(٢) وهذه المراحل الثلاث كانت بمكة.

٤ - المرحلة الأخيرة وكانت بالمدينة هو جعل التحدي إلى آخر حد بإخبارهم أنهم لن يتمكنوا من ذلك أبداً قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(٣).

الخامس: إن التحدي لا يقتصر على مجال التشريع بإتيان مثل القرآن، بل هنالك تحدٍ آخر في مجال التكوين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلَدِيْكَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^(٤)، وحتى الصناعات البشرية والاختراعات لا تقاس بالمخلوقات الإلهية، فإن غاية ما تمكّن البشر من الوصول إليه هو اكتشاف قوانين الله الكونية ومحاولة تطبيق الحياة عليها.

السادس: قوله: ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي استنصروا بمن شئتم من المخلوقات، فإنهم لو اجتمعوا جميعاً فلا يمكنهم الإتيان بمثله، أما الله تعالى فهو قادر على الإتيان بمثله، لأن الكلام كلامه وهو على كل شيء قدير، وقيل بأن (من) تتعلق بالشهداء أي أوتوا بشهداء غير الله، بمعنى: لا تقولوا شاهدنا الله لأن هذا الكلام لغة العاجز المنقطع عن إقامة البينة، والمعنى الأول أظهر.

السابع: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي الذين يشهدون أن محمداً ﷺ ليس بنبي،

(١) سورة هود، الآية: ١٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣.

وأن القرآن ليس بمنزل، لأن المؤمن لا يتحدى، لعلمه بأنه من الله تعالى، أو المراد الذين يجالسونكم من نظرائكم، أو الذين يشهدون أن ما أتيتم به مثل القرآن، والاحتمال الأول أحسن.

الثامن: قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لزيادة التحدي لأن معناها إن لم تأتوا بمثله فأنتم كاذبون، و﴿إِنْ﴾ لترتيب الجزاء فقط، للعلم بأنهم غير صادقين، والجزاء محذوف لكونه معلوماً مذكوراً مثله في الشرط السابق، فالمعنى: إن كنتم صادقين فأتوا بسورة مثله.

الركن الثالث: المعاد

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

٢٤ - ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي لم تتمكنوا من الإتيان بمثل القرآن ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذلك أبداً، وهذا زيادة في التحدي وإخبار مستقبلي، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ التي هي عاقبة تكذيبكم، أي فإن لم تفعلوا فقد قامت الحجة على صدق الرسول ﷺ، فوجب عليكم اتباعه اتقاءً للنار، فالعناء بتكذيبه سيلقيكم في نار جهنم ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون بأنها شفعاءكم إلى الله ﴿أُعِدَّتْ﴾ تلك النار ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

٢٥ - وفي مقابل الكفار المؤمنون ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿أَنَّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ مَا لَا يَحْصِي وَمِنْهَا -

أ - ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي بساتين كثيفة الشجر، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي من تحت أشجارها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ لأن البستان بلا نهر كتمثال بلا روح.

ب - ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ أي المؤمنون ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنات ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا﴾ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴿فِي دَارِ الدُّنْيَا﴾، فليسوا كأصحاب الجحيم الذين لا يألفون طعامهم الذي هو من ضريع، ﴿وَأَتُوا بِهِ﴾ أي جيء لهم بذلك الثمر ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الجودة، فكلها من نوعية راقية، عكس أثمار الدنيا التي بعضها جيد وبعضها رديء.

ج - ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ طهرها الله من القذارات المادية كالدماء، والمعنوية كالحسد.

د - ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي المؤمنون في تلك الجنات ﴿خَالِدُونَ﴾ لأن النعمة لا تتم إلا ببقائها.



بحوث:

الأول: قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فيه وجهان من الإعجاز.

١ - عجزهم عن الإتيان بمثله.

٢ - إخبار عن المستقبل، وقد كان كما أخبر الله تعالى.

وقد حاول الكثيرون من غير المسلمين ذلك، ففشلوا فشلاً ذريعاً، مع وجود الداعي القوي لمعارضة الإسلام، فإنهم لم يألوا جهداً في محاربته بمختلف الوسائل، من إثارة الفتن والحروب والحصار

الاقتصادي والتشكيك وغير ذلك، لكنهم لم يتمكنوا من الإتيان بمثله، مع أنه لو كان من عند غير الله تعالى لكان معارضة الإسلام بقبول هذا التحدي والإتيان بمثل القرآن أسهل عليهم من سائر الأمور.

الثاني: قوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ إشارة إلى شدة الحرارة، فإن كل جسم يكتنز من الطاقة ما لو ظهرت لتحولت إلى حريق عظيم، وليس الانفجار النووي إلا إظهاراً لتلك الطاقة، ويمكن أن يكون إشارة إلى أن نار الآخرة تختلف عن نار الدنيا بأنها تنبع من نفس الإنسان والحجارة، فتكون أشد إيلاًماً، ولذا قيل: بأن عذاب الآخرة ليس إلا نفس الأعمال التي يرتكبها المخالفون لأوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١)، والأظهر أن المراد بالحجارة هي الأصنام التي كانوا يعبدونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(٢) وذلك لزيادة تعذيبهم، فإن إحراقهم بالنار تعذيب جسدي، وإحراق أصنامهم تعذيب نفسي لهم.

الثالث: قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى أن هذه النار مخلوقة من قبل، ويدل عليه مختلف الروايات في أحاديث المعراج حيث رأى رسول الله ﷺ تلك النار وأهوالها، ولعل الفائدة في خلقها قبل يوم القيامة هو أن التهديد بالمتحقق أكثر تأثيراً مما سيتحقق، فلو لم تكن مخلوقة الآن كان يمكن لبعض العصاة الأمل بأن ذلك صرف تهديد قد لا ينفذ، فيكون داعيهم على العصيان أقوى، ولكن حينما علموا بأنها موجودة كان الداعي إلى الإطاعة أقوى.

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

الرابع: قوله: ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي في دار الدنيا، بمعنى أن ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا ظاهراً، وإن كانت تختلف عنها في المذاق، وذلك لأن المماثلة في الشكل والاختلاف في الطعم تبين للإنسان مزية الجنة على الدنيا، لأنه يتمكن من القياس، كما لو أكل الإنسان الفاكهة الرديئة ثم أعطي فاكهة جيدة فإنه يحس بالفرق وبأفضلية الثانية، فكذلك شباهاة ثمار الجنة بثمار الدنيا توجب علم الإنسان بعظم النعمة عليه.

أو أن المعنى: أن الثمار في الجنة يتبدل طعمها في كل مرة، فتفاح الجنة مثلاً له طعم كل مرة يختلف عن المرة السابقة، فكلما أكلوا من الثمار قالوا إنا أكلنا منه في المرة السابقة لكن بطعم مختلف، ويدل عليه قوله: ﴿كُلَّمَا﴾ أي في كل مرة، والداعي لقولهم (هذا الذي رزقنا من قبل) أكثر حينئذ من إشارتهم إلى فاكهة الدنيا، أو أن المراد أن هذا هو عملنا الذي بدله الله تعالى - قبلاً - إلى هذه النعمة، والمعنى الأول أظهر.

الخامس: ما هي حقيقة نعم الآخرة وعذابها؟

الجواب: إن حقيقتها مجهولة لنا، فإنها تدرك ولا توصف إلا إلماعاً وإشارة، كما أن نعيم الدنيا وآلامها لا يعرفهما الإنسان إلا إذا أدركهما وأحسهما فكيف بما في الآخرة وهي فوق ما في الدنيا بدرجات، فتكون الأوصاف للإشارة إلى نعيم الآخرة وأنها شبيهة بنعيم الدنيا من حيث الشكل وتغايره في الحقيقة كما قال تعالى: ﴿بَيَضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْزَقُونَ^(١)، كما لو أردنا شرح اللذة الجنسية للطفل، فتأتي له بمثال مما يعقله وإن كان يختلف عنها في الحقيقة لأنه لا يمكن أن يدرك تلك اللذة.

(١) سورة الصافات، الآية: ٤٦، ٤٧.

التمييز بين المؤمن وغيره

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

لما بين الله تعالى أصناف الناس من مؤمن ومنافق وكافر، وذكر سبحانه أركان الإيمان، بين بعض ما يتميَّز به المؤمن عن غيره، واختار تعالى تمييزهم عند ذكر الأمثال، لمناسبة ذكر بعض الأمثال في الآيات السابقة.

٢٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي لا يترك حياء ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ بمعنى أيّ مثل، حتى إذا كان الشيء الممثل به من الأمور الصغار، ﴿بَعُوضَةً﴾ وهي صغار البق ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كالذباب والعنكبوت، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي المثل ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم تركوا العناد فتفتحت بصائرهم فيستوعبون الحقائق بسهولة، فيعلمون أن ذكر المثل لتقريب المطلب إلى الأذهان، ﴿وَأَمَّا﴾

٢٧ - ولهؤلاء الفاسقين صفات:

ب - ﴿وَ﴾ منها أنهم ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أَنْ يُوصَلَ ﴿فَقَدْ أَمَرَ﴾
تعالى بصلة الرسول ﷺ والمؤمنين، وكذلك بصلة الأرحام.

جـ - ﴿وَ﴾ منها أنهم ﴿وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، ولكن نتيجة أعمالهم تعود عليهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا رأس مالهم وهو أعمارهم، فدنياهم نَصَب وَضَنَك، وآخرتهم عذاب.



بحوث:

الأول: عدم استحياء الله تعالى، بمعنى: أنه لا يترك ضرب المثل بالبعوضة كترك من يستحي أن يُمَثَّل بها لحقارتها، وذلك لأن الحق فوق

الاعتبارات النفسانية، ولذلك قيل «لا حياء في الدين»، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾^(١)، ولأن الحياء إنما يكون من الأشياء القبيحة أو ما يستقبحه الناس وإن لم يكن قبيحاً في نفسه كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد رقتها حتى استحيت من راقعها»^(٢)، أو مما يستقبح ذكرها وإن لم تكن قبيحة في نفسها، كحياء البكر حين الخطبة.

وليس في التمثيل بالأمر الصغيرة حياء لأنها ليست قبيحة ولا يستقبح ذكرها وقد جرى دأب العقلاء على ذلك.

الثاني: إن الله تعالى لا يوصف بالصفات الانفعالية النفسانية، لأنه عز وجل ليس محلاً للحوادث ولا تتغير ذاته تعالى بالانفعالات - كما هو واضح - والحياء من الصفات الانفعالية النفسانية، فحينما يقع الإنسان أمام القبيح أو ما يستقبح ذكره تنفعل نفسه ويستحيي، وكلما رأينا وصف الله تعالى بالصفات الانفعالية النفسانية فإنما هو مجاز، بمعنى ترتيب آثار تلك الحالة، وليست بمعنى عروض تلك الحالة عليه، فقوله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) مثلاً بمعنى ترتيب آثار الغضب كالعذاب واللعن ونحوهما، وكذلك قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^(٤) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥) وقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٦) كل ذلك بمعنى ترتيب آثار الرضا والحب والنسيان ونحو ذلك.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ج ١، ص ٦٣، رقم ٢٠٨٤.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

الثالث: قوله: ﴿مَثَلًا مَّا﴾ «ما» للإيهام، بمعنى «أي شيء كان»، كقولك (ايتني بكتاب ما) بمعنى أي كتاب كان، و﴿بَعُوضَةً﴾ بدل عن ﴿مَّا﴾، والبعوض هو صغار البق وإنما مثل به لأنه أصغر حيوان متعارف يراه الإنسان، لأن الغرض من المثل هو تقريب المطلب إلى أذهان السامعين فيلزم أن يكون المثل معروفاً للناس حتى يتم المقصود.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي ما هو أكبر من البعوضة كالذباب والعنكبوت ونحوهما وقد مثل بهما القرآن الكريم، وليس المراد من ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ما هو أصغر منها، لأنه لم يمثل في القرآن بما هو أصغر من البعوضة، ولأن الغرض يفوت بالتمثيل بالأصغر - عادة - لأن ذكر المثل لأجل تقريب المطلب إلى الذهن فيلزم أن يكون بالأشياء المتعارفة - كما ذكرنا قبل قليل - .

الرابع: المثل ينبغي أن يكون موافقاً للمقصود، فإذا أراد المتكلم بيان ضالة شخص، مثّل له بمثال من المخلوقات الضعيفة، لبيان ضعف ذلك الشخص، وليس من البلاغة حينئذٍ التمثيل بالأشياء الجليلة، وكذلك في العكس يأتي بمثال جليل حينما يمثل لشيء جليل، ولذا كان الله تعالى المثل الأعلى قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) فالنور من الأمور الجليلة فضربه الله تعالى مثلاً لنفسه.

الخامس: علم المؤمنين بأنه الحق من ربهم ليس فقط من باب تسليمهم لله تعالى وعلمهم بأن أقواله كلها حق، بل إضافة إلى ذلك فإن من يريد الوصول إلى الحق ويترك العناد فإن باب فهمه مفتوح، فيفهم منطق الحق بأن ضرب المثل إنما هو لتقريب المطلب، وأنه تمّ اختيار المخلوقات الضعيفة لمناسبة مقتضى الحال.

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

السادس: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ هذا من تنمة نقل كلام الكفار، أي يقول الكفار ما هو الغرض من ذكر مثالٍ يسبب انشقاق الناس، فقسم لا يقبل وينحرف وقسم يهتدي، وقيل إنهم لما قالوا: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ جاء الجواب: إن ذكر المثل لتمييز المؤمن من الكافر، كما في كل ابتلاء حيث إن الناس مختلطون قبله لا يمكن التمييز بينهم، فلما جاء البلاء تميز المؤمن عن غيره، والمعنى الأول أقرب للسياق.

السابع: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ جواب عن اشكالهم، بأن ذكر المثل فيه فائدة كبرى، ولكن الفاسق يُضِلُّون به، لأنهم لم يريدوا الاستنارة بالحق، والفسق هو الخروج عن الطاعة.

وهذا المقطع من الآية إشارة إلى اختيار الإنسان وعدم كونه مجبوراً في أعماله، وتوضيح لما في آيات أخرى من نسبة الإضلال إليه تعالى، فإن ذلك بمعنى أنهم فعلوا فعلاً سبَّب ضلالهم فتركهم الله وشأنهم، وقد مرَّ بعض الكلام في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، وفي مجمع البيان^(١) ذكر عدة معانٍ للإضلال:

١ - أنهم ضلوا عنده كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾^(٢) أي ضلوا عند الأصنام، لأنه من الواضح أن الأصنام جمادات لا تقدر على عمل شيء، وإنما كانوا هم سبب ضلال أنفسهم، لكن لما كان الضلال عند الأصنام نسب إليها.

٢ - التخلية بينهم وبين الفعل، بعدم إيجاد مانع قسري، بمنع

(١) مجمع البيان ج ١، ص ١٣٦ - ١٣٧ بتصرف وتغيير.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

الألطف، كما يقال لمن لا يصلح سيفه «أفسدت سيفك» أي تركته وشأنه حتى علاه الصدا - مثلاً - .

٣ - الإهلاك والعذاب كما في قوله: ﴿إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) أي هلكنا وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٢) أي لا يهلكها بالإبطال والحبط.

٤ - النسبة إلى الضلال كما في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾^(٣) أي حكم عليه بالضلال.

وقد ذكرنا في كتاب (شرح أصول الكافي) تفصيل معنى الضلال والهداية، فراجع.

الثامن: ﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق هو تأكيد العهد وتشديده، وهذا العهد الموثق قد يراد منه ما أودع في نظرة الإنسان من معرفته تعالى كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٤) وهذا عام لجميع الناس، أو المراد ما في الكتب السالفة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٥).

التاسع: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ﴾، أمر الله بصلة الرسول ﷺ والمؤمنين، ومن مصاديق الصلة: صلة الأرحام، وهذه الرابطة أودعها الله تعالى في فطرة الناس، ولذا عبر عنها بالقطع لأنها رابطة موصولة من حين ولادة الإنسان إلى حين قطعها.

(١) سورة السجدة، الآية: ١٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الاعراف، الآية: ١٧٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

العاشر: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، الفساد كل معصية يتعدى ضررها إلى غير فاعلها، ومن الواضح أن من لا يرعوي عن نقض ميثاق الله تعالى ويقطع صلته بالرسول ﷺ والمؤمنين وأرحامه، فإنه لا يمانع عن الفساد في الأرض.

وهذه الأمور الثلاثة: (نقض الميثاق، قطع ما أمر الله بصلته، الفساد في الأرض) من أبرز صفات الفسقين، وهي مُرْتَبَةٌ، أي إن مخالفة الله تعالى تُؤدِّي إلى مخالفة الرسول ﷺ والمؤمنين والأرحام، وذلك مما يؤدي إلى الفساد في الأرض، ومن كان هذا فعله يتركه الله تعالى وشأنه، لأنه عند ذاك لا يرجى خيره.

الاحتجاج على الكفار

﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٢٨ - ثم بين الله تعالى صحة طريقة المؤمنين، واحتج على الكفار ببطلان طريقتهم، وأنهم من غير حجة، فقال مستنكراً عليهم: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ ﴿وَالْحَالُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أجزاء وعناصر من التراب متفرقة في الأرض بلا روح ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بأن جمع تلك العناصر، فتحولت نباتاً أو حيواناً، ثم نطفة من صلب إلى رحم ﴿ثُمَّ﴾ بعد قضاء فترة على الأرض ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب، أو للجزاء بعد الحساب.

٢٩ - وكيف تكفرون به مع أنه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتنتفعوا بها وبما فيها، ﴿ثُمَّ﴾ أكمل الله تعالى نعمة الأرض وما فيها بأن ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي توجه بقدرته ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ التي كانت واحدة حين الخلق ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ بدون أي اعوجاج ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، وسخر تلك السماوات لمنفعتكم الدينية بالاعتبار بها، والدينية بأن

جعل لكم فيها علامات وزينة وقوانين كالجاذبية، فارجعوا عن كفركم بعد علمكم بهذه الآيات الباهرات ﴿وَلَا تَحَاوِلُوا أَنْ تَخْدَعُوا اللَّهَ إِذْ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .



بحوث:

الأول: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾ كون الإنسان ميتاً قبل خلقه، يمكن أن يكون مجازاً، بمعنى أنه لم تكن له حياة حينما كان من العناصر الطبيعية في الأرض، ثم يبدأ بالتحول إلى حين إفاضة الحياة عليه في الرحم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّامُّ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾^(١) أي بلا حياة، ويمكن أن يكون المراد أنه كان ميتاً بالمعنى الحقيقي بعد عالم الذر، والمعنى الأول أنسب للاحتجاج.

الثاني: ﴿فَأَخْيَكُمُ﴾ ابتداء بأصل كل النعم، وهو الحياة، لأن كل النعم الأخرى تتفرع عليها، ثم فرّع عليها النعم التي في الأرض في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه مضافاً إلى كونها من آيات الله، فإنها أيضاً من أعظم النعم على الإنسان، والحياة ونعم الأرض من الآيات الواضحة التي يعرفها كل أحد، فلذا صح الاحتجاج بها على الكفار.

وإلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ ينتهي الاحتجاج، ولتكميل المطلب وبيان المراحل اللاحقة أضاف تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ... الخ.

الثالث: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ المراد في ساحة المحشر، وسمي رجوعاً إليه، لأنه هنالك الحساب بيده تعالى، فرجع الأمر كله إليه، كما يقال: رجع

(١) سورة يس، الآية: ٣٣.

الأمر إلى الحاكم، حيث لا يمكن لأحد التدخل فيه، أو المراد الرجوع إلى حسابه أو إلى ثوابه وعقابه.

الرابع: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ تدل الآية الكريمة على أن كل ما في الأرض خلق لأجل الإنسان، ولا تدل الآية على حلية كل شيء، بل تدل على أن كل شيء خلق لأجل الإنسان ولنفسه، وقد يكون ذلك النفع مباشرة مثل حلية الأكل أو التزين أو الركوب، قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبَتِهَا وَزِينَةً﴾^(١) وقد يكون الانتفاع بالواسطة أو الوسائط، كما يقال إن بعض الحشرات تفيد قسماً من الأشجار التي ينتفع بها بعض الحيوانات التي يستفيد منها الإنسان.

الخامس: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ من ملاحظة مختلف آيات خلق السماوات والأرض، يُستفاد أن الله عز وجل خلق الأرض غير مبسطة وسماء واحدة، ثم بسط الأرض ثم جعل السماء سبع سماوات، ولم تذكر في الآيات أن خلق السماء كان أولاً أم الأرض، نعم إن تقسيم السماء إلى سبع سماوات كان بعد خلق الأرض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣)، كما أن القرآن يدل على أن دحو الأرض - أي بسطها - كان بعد خلق السماء وقبل تقسيمها إلى سبع قال تعالى: ﴿أَوَّ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾

(١) سورة النحل، الآية: ٨.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١ - ١٢.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٢٧ - ٣٠.

إِلَى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ إِلَى ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ إِلَى ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(١).

السادس: ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ استوى إن استعملت مجردة عن حرف الجر كان معناها: صار مستوياً من غير اعوجاج، و(استوى عليه) أي ركبته واستقر عليه كما في قوله: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾^(٢)، و﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى﴾ أي توجه إليه بقدرته أو قصده قصداً مستوياً.

السابع: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ لعل كل ما نراه من كواكب ونجوم هو من السماء الأولى، وأما سائر السماوات فلعلّ علم الفلك سيكشفها في المستقبل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾^(٤) وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾^(٥)، ومن البعيد تفسير الكواكب والمصابيح بالشهب، لأنه خلاف الظاهر، بل لا يتعارف إطلاق الكوكب على الشهاب، وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ وقوله: ﴿رُجُومًا﴾ إنما هو لأجل أن الشهب إنما هي أجزاء من الكواكب والنجوم، التي انفجرت وتحولت إلى أجزاء متناثرة في الفضاء، فإذا وصلت إلى الأرض منعها من الاختراق الجو المحيط، فلذا صح أن يقال إن الكواكب والنجوم هي زينة أولاً وأجزاءها المتطايرة هي شهب لرجم الشياطين، وأما قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(٦) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا^(٦) فيكفي لصحة التعبير وجود الشمس والقمر

(١) سورة فصلت، الآيات: ٩ - ١٢.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٣.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٥) سورة الملك، الآية: ٥.

(٦) سورة نوح، الآيتان: ١٥ - ١٦.

في السماوات، حتى وإن لم يكن القمر والشمس في سائر السماوات، كما في قولنا زيد ملازم للمساجد مع أنه ملازم لأحدها، وقيل في معنى السماوات السبع غير ذلك.

الثامن: ﴿عَلِيمٌ﴾ لما ذكر الله تعالى قدرته عبر بيان بعض مصاديقها من الإحياء والإماتة وخلق السماء والأرض، أكملها بوصف نفسه بالعلم، إذ بالقدرة والعلم يقع الفعل متقناً من غير اعوجاج، مضافاً إلى تحذير الكفار من مغبة كفرهم، وإن الله لا يخدع مهما حاولوا ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾^(١) أي مجازيهم على خداعهم، فهو كثير العلم لا يخفى عليه شيء.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

A decorative rectangular border with floral motifs at each corner, enclosing the text.

فصل

الاحتجاج بخلق آدم

فصل

احتجاج آخر على الكفار (خلقه آدم)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْفُسُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

لما احتج الله تعالى على الكفار بما مرّ، أراد تكميل الاحتجاج بذكر قصة خلق الإنسان وما اكتنفها من أمور، فأتى آياته بخلق السماوات والأرض بخلق الإنسان، وأنه جعل فيه القابلية العظيمة التي بها يفوق على الملائكة - إن استثمر تلك القابليات -، وأنه لم يجبره الله على الإيمان أو الكفر، وإنما خيّر، بعد أن أتم الحجة عليه، وأنّ له عدوّاً يصدّه عن الإيمان ويسوقه إلى الكفر، وأنه يمكن له الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة، فقال:

٣٠ - ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً ﴿﴾ يخلف الله تعالى في تنفيذ مراده من الأمر والنهي مثلاً، أو يخلف الخلق السابق الذي سكن الأرض، ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة، سؤالاً لتوضيح الأمر عليهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بتجاوز الحد وإيصال الضرر إلى الغير ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ﴿و﴾ حيث إن غرضك من خلقهم العبادة فنحن أحق بالاستخلاف، إذ إننا نعبد بأحسن وجه إذ ﴿وَنَحْنُ سُبَّحٌ بِحَمْدِكَ﴾ أي ننزهك عن النقائص بأن نحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نظهر الأرض من الأرجاس، بلا رياء، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصالح في استخلاف البشر، وأن عبادتهم أفضل من عبادتكم، لأن عبادتكم بلا مانع، وأما عبادتهم فتعترىها موانع من الشهوات والنفس والهوى وشياطين الجن والإنس وغيرها من الموانع.

٣١ - ولأجل أن يتضح لهم بعض الحكمة في الاستخلاف بين الله تعالى لهم بعض ميزات آدم ﷺ، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أي علائم الأشياء وذلك يستلزم تعليمه المسميات ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي المسميات ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ﴾ تعالى لهم ﴿أَنبِئُونِي﴾ وأمرهم ليس على حقيقته لعلمه بعجزهم، وإنما لأجل تنبيههم كسؤال العالم من الجاهل لتنبيهه بجهره ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ علائمه وخواصها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كان كلامكم - بأنكم أحق بالاستخلاف - مطابقاً للواقع.

٣٢ - ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فكل علمنا منك، ولم يكن منها أسماء الأشياء، وعدم تعليمك إيانا إنما هو لمصلحة

تعرفها إذ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ تعلم كل شيء ونحن نجهل ﴿الْحَكِيمُ﴾ فأعمالك كلها تصيب الواقع وحسب مقتضى الحكمة.

٣٣ - وحيث أقروا بعدم علمهم، أراد الله أن يبين فضل آدم عليه
فــــ ﴿قَالَ يَتَدَمُّ أُنَيْتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أُنْبَاهُمْ﴾ آدم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ الله
تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ ما لا تعلمون، والذي لا تعلمونه هو
﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب عن إدراككم، ﴿و﴾ كذلك
﴿أَعْلَمُ﴾ ما حضركم سواء كان من ﴿مَا بُدُّونَ﴾ أي تظهرونه ﴿و﴾
أعلم ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْنُهُونَ﴾ كحسد بعض من اختلط بكم كالشيطان، أو
اعتقادكم بأنكم خير خلق الله.



بحوث:

الأول: يمكن أن يكون إخباره تعالى الملائكة بأنه ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تسلية آدم ﷺ بعد إهباطه إلى الأرض، ليعلم أنه خُلق للأرض، وأن بقاءه في الجنة إنما كانت مرحلة مؤقتة لينتقل بعدها إلى الأرض، أو أن جنته كانت في الأرض نقل عنها بعد أكله الشجرة إلى بقعة أخرى منها - كما في بعض الروايات^(١).

ويمكن أن يكون الإخبار لإثارة حوار مع الملائكة، لكي يعلموا أن آدم أفضل منهم بالدليل المحسوس لهم، فيكون لإظهار الحقائق، أو لإظهار كوامن النفوس، أو لتعليم آداب الحوار، ليعلم صاحب القدرة

(١) البرهان ج ١، ص ٣٣٧ عن الكافي وعلل الشرائع.

والمحق أن الله تعالى مع عظمته وقدرته وكونه الحق سمح لمخلوقاته بالسؤال وطلب الدليل، فأقام الدليل على أتم وجه وأقنعهم، مع تمكنه من فرض الأمر عليهم فرضاً، قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾^(١)، وحتى في يوم القيامة لا يُدخل الله الكفار في النار إلا بعد السماح لهم بالمناقشة والإنكار، ثم إقامة الحجة الداحضة التي تفحمهم، فحرّي بنا تعلّم ذلك وفتح باب النقاش والحوار ومحاولة إقامة الأدلة المقنعة في كل الأمور، والله المستعان.

الثاني: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ﴾ الاستفهام حقيقي لاستيضاح السبب، بعد أن أذن الله تعالى لهم بالسؤال بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وليس الاستفهام للإنكار، لأن الملائكة معصومون ويعلمون حكمته تعالى وعلمه وأنه لا يفعل شيئاً عبثاً، فلا يعترضون عليه، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢)، وأما ما ورد من معصية بعض الملائكة وعقوبتهم فهو مجاز بمعنى ترك الأولى، كما في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾^(٣) وسيأتي توضيح ترك الأولى، وتفصيل عصمة الملائكة إن شاء الله تعالى.

الثالث: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ علم الملائكة بأن من البشر من يُفسد ويسفك الدماء، قد يكون بتعليم الله لهم بأن أخبرهم بأن من الناس من هذا شأنه فسألوا عن السبب وعن وجه المصلحة، أو على سبيل القياس بالخلق السابق، حيث رأوا الخلق السابق أفسد وسفك الدم، فسألوا هل هذا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) سورة طه، الآية: ١٢١.

مثل ذاك؟ أو أنهم علموا أن الفساد والسفك من طبيعة عناصر التراب التي خلق الإنسان منها، والأول أقرب لما ذكرنا من عصمة الملائكة، فلا معنى للقياس، وكذلك ليس من طبيعة عناصر الأرض ذلك لأن الفساد لا ينشأ من العناصر الترابية في الإنسان وإنما من أمور أخرى كالهوى.

الرابع: ﴿وَمَنْ يُسَبِّحْ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسْ لَكَ﴾ لعَلَّهم عرفوا أن الغرض من خلق البشر هو العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) فسألوا: بأنه حيث كان الغرض العبادة فإننا نقوم بها بأنهم وجه من دون إفساد وسفك لدماء فلماذا لم تجعلنا الخلفاء؟

﴿تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: أي ننزهك عن النقائص عبر حمدنا لك، لأن مَنْ حَمَدَ الله فقد نزهه، إذ الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري، ومن يختار الجميل فهو منزّه عن النقص، ومن لا يختار الجميل فإن ذلك لنقص فيه إما لعدم قدرته أو لخبثه، والله تعالى منزّه عن كل ذلك.

﴿وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ بمعنى تُطَهَّرُ الأرض من الأدناس لأجلك، وقد ورد في بعض الروايات أن قسماً من الملائكة - قبل خلق آدم عليه السلام - جاؤوا إلى الأرض وطرّدوا منها بني الجن الذين كانوا يفسدون فيها^(٢).

وكلامهم هذا ليس تزكية لأنفسهم، بل لبيان حقيقتهم لتكميل السؤال، كقول العبد لمولاه - وقد أخذ خادماً جديداً -: إني اطيعك فلماذا تأتي بغيري؟

الخامس: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تعلمون بأن في استخلاف البشر

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) البرهان ج ١، ص ٣١٣.

مصالح أهم من الفساد الواقع منهم، وأن استخلافهم أهم من استخدامكم، أو أن المراد أن هنالك بشر أفضل منكم وقد خلقت الأرض لأجلهم وهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، أو أن عبادة البشر خير من عبادتكم، أو أنكم لا تعلمون أن بعض من هو مختلط بكم كافر في باطنه كإبليس.

السادس: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ لعل المراد كل العلوم المختلفة والحوادث التي تقع في المستقبل وقد ورد عن الصادق أنه كان جالساً على بساط فقال: «وهذا البساط مما علمه»^(١) للإشارة إلى تعليمه كل شيء حتى الأمور الصغار، وقد ذكرت في الروايات مصاديق مختلفة - كلية أو جزئية - للأسماء كالأرضين والجبال والشعاب والأودية، وكذلك الأدوية والنبات والشجر^(٢).

ولعل وجه تعليمه كل العلوم - سوى إبراز فضله للملائكة - أن النبي يجب أن يكون أفضل أهل زمانه لئلا يلزم تقديم المفضول على الفاضل - القبيح عقلاً -، وكذلك المناسب لعظمته تعالى أن يختار خلفاء كاملين، أو لأن الله كما اصطفاهم لإيصال تشريعاته كذلك ربط أمور الكون بهم وهذا الربط يحتاج إلى علم كامل بالأمور المختلفة لإدارة شؤونها - بإذن الله تعالى -، كما أنه ربط الإمامة بعزرائيل والإحياء للحشر بإسرافيل وبعض التدبيرات بالمديرات أمراً.

السابع: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي مسميات الأسماء، وإنما جيء بضمير (هم) وهو لذوي العقول، لأن أشرف المسميات هم بعض البشر وكانوا ضمن ما

(١) البرهان، ج ١، ص ٣٢٠.

(٢) البرهان، ج ١، ص ٣٢٠.

تمّ عرضه على الملائكة فتغليباً لجانبهم جيء بهذا الضمير، وفي بعض الروايات أنهم كانوا الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام^(١).

وإنما عرضهم على الملائكة ليكون أبلغ في الاستدلال، فإذا كانوا يجهلون ما يرون فما بالك بما غاب عنهم؟

الثامن: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ذكر في مجمع البيان وجوهاً:

١ - أنه خطر ببالهم أنهم إن كانوا الخليفة لم يحصل في الأرض فساد ولا سفك دم، فأخبرهم تعالى بأنهم لا يعلمون ما حضر فكيف بما غاب.

٢ - أنه خطر ببالهم أنهم الأعلام.

٣ - بمعنى «إن كنت تعلم فأخبر»، لأنه إن كان جاهلاً لا يمكن أن يصدق في خبره^(٢).

ومرجع هذه الوجوه إلى تفسير الصدق بما طابق الواقع أي أن من خطر ببالهم ليس مطابقاً للواقع.

التاسع: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي ننزهك تنزيهاً، ولعل وجه الإتيان به لأجل تنزيهه عن الاعتراض عليه فيما يقضي، وإن كانوا لا يعلمون وجه الحكمة، بمعنى أن الله لما سألهم عن الأسماء مع علمه بأنهم لا يتمكنون من الجواب، علموا أن ذلك لم يكن لأجل غرض غير صحيح، لأنه نقص والله تعالى منزّه عن كل نقص، بل كان السؤال لغرض صحيح وهو الإجابة عن سؤالهم وبيان فضل آدم عليهم، تمهيداً لأمرهم بالسجود له.

(١) البرهان، ج ١، ص ٣١٤.

(٢) مجمع البيان ج ١، ص ١٥٣/١٥٤ بتصرف.

العاشر: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُونَ﴾ في الآية دلالة على شرف العلم، لأنه تعالى لما أراد بيان فضيلة آدم على الملائكة قاس علمهم بعلمه، وجعل المزية له لعلمه بما جهلوا قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

الحادي عشر: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ إلى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي أن الله تعالى يعلم ما غاب عنهم وما شاهدوه سواء أخفوه أم أعلنوه، فالله عالم الغيب والشهادة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

تكملة: قالو: إن العلم قسمان: حصولي: وهو انعكاس صورة الشيء في الذهن كعلمنا بكثير مما لم نشاهده، وحضورى: وهو حضور الشيء لدى العالم، كالعلم بالصور الذهنية وعلم النفس بنفسها، ولاستحالة كون علم الله حصولياً للافتقار والحاجة إلى الصور والله غني عن كل شيء، قالوا بأن علم الله حضوري أي أن الأشياء حاضرة لديه.

وهذا الكلام محل تأمل لأن العلم من صفات الذات - وهي عين ذاته -، فعلمه سابق على كل معلوم فكيف يمكن في الأزل قبل الخلق حضور المخلوقات لديه؟ فلذا اضطر بعض الفلاسفة إلى القول بقديم العالم وأنه معلول لله من الأزل، واخترعوا اصطلاح القديم الذاتي والقديم الزماني، وقال بعضهم بأن الله لا يعلم الجزئيات وإنما علمه بالكليّات فقط، وقال بعضهم بوعاء الدهر، بمعنى أن ما كان وما يكون وما هو كائن كله موجود في جميع الأزمان المعبر عنه بوعاء الدهر، وكل هذا باطل فإنه ما من شك بأن العالم غير قديم وأنه لم يكن ثم أوجده الله تعالى بضرورة الشرع والعقل، كما أنه لا معنى للقديم الزماني لأن المراد

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

إن كان قدم العالم فهو باطل، وإن كان المراد أنه وجد من حين خلق الزمان فهذا ليس بقديم وإطلاق القديم عليه لا يصح إلا مجازاً وكلامهم ليس على ضرب المجاز، كما أن علمه يتعلق بالجزئيات كتعلقه بالكليات بضرورة العقل والشرع قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) وإلا بطل الثواب والعقاب على الأفعال لأنها جزئيات عادة، مضافاً إلى استلزامه قدم الكلّيات فرجع الإشكال المذكور، كما أن وعاء الدهر أيضاً باطل، ضرورة أن ما مضى وقته لحق بالعدم، وما لم يقع ليس بموجود، وإلا اجتمع النقيضان.

وكذلك لا يدفع الاشكال، القول: بأن العلم بالعلة هو علم بالمعلول، لأن هذا الكلام في الحقيقة هو نفي حضور الأشياء في الأزل لديه.

وعليه: فإن علم الله كما أنه ليس حصولياً كذلك ليس حضورياً، بل نحن نعتقد بأنه عالم مع جهلنا بكنهه علمه وأنه من أي سنخ هو، كما أننا نعلم بأنه موجود ولكننا نجهل كنه ذاته، والذي يدل على ما ذكرنا أن صفاته الذاتية هي عين ذاته، وللکلام تفصيل ليس هذا موضعه.

الثاني عشر: ﴿الْحَكِيمُ﴾ الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، ويلازمها العلم الذي يمنع الجهل لأنه لا يمكن وضع الشيء في موضعه إلا بعد العلم به وبموضعه، علماً لا يشوبه جهل، وكذلك يلزم الحكمة الإصابة في الفعل، لأنه في صورة الخطأ لا يقع الشيء في موضعه.

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَاوُبُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

٣٤ - ﴿و﴾ اذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تعظيماً له بخضوعكم له ليتبين فضله أكثر، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وكان من الجن مختلطاً مع الملائكة ﴿أَبَى﴾ أي امتنع، ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي رفع نفسه إلى منزلة لا تستحقها، ﴿وَكَانَ﴾ أي صار بفعله هذا ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

٣٥ - ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ من جنان الدنيا، ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي واسعاً مرفهاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من أي مكان منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ بالأكل ﴿هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الحنطة، نهياً إرشادياً، لا تحريمياً، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسكما لأنكما تحرمان أنفسكما من هذه الجنة،

كقول الطيب: لا تأكل الحامض فتمرض وتحرم نفسك من الأطعمة اللذيذة، والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

٣٦ - ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي حملهما على الزلة والابتعاد عن الجنة بسبب أنه حملهما على الأكل من الشجرة، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ أي كانت نتيجة عمله أن أخرجاً ﴿وَمَا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم أو من الطاعة لله تعالى، ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا﴾ أي انتقلوا عن الجنة إلى مكان دونها، والخطاب لآدم وحواء والشیطان ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فالشیطان عدو لهما، وهما عدوّه، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ أي استمتاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ الأجل أو إلى يوم القيامة.

٣٧ - وَلَمَّا نَدِمَ آدَمُ ﴿عَلَىٰ فَعْلِهِ﴾ تداركته رحمة الله ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ توجب تلك الكلمات التوبة، وهي أسماء الخمسة أصحاب الكساء ﴿فَنَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِ﴾ أي قَبِلَ توبته لَمَّا قَالَ آدَمُ تلك الكلمات ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير القبول للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ كثير الرحم، وقبوله للتوبة من رحمته عباده.

٣٨ - ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لعل الخطاب لذرية آدم ﴿وَلَا تَكُونُوا فِي صِلِهِ﴾ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي إذا جاءكم، أصله «إن» الشرطية و«ما» التي دخلت لتصحيح لحق نون التأكيد ﴿مِنِّي هُدًى﴾ عبر الرسل، ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَفُ عَلَيْهِمْ﴾ من الأهوال المستقبلية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم في الماضي.

٣٩ - ﴿وَلَا يَتَّبِعِ الْهُدَى﴾ وهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كالرسل والكتب ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.



بحوث:

الأول: السجود: هو الخضوع بكيفية خاصة، وهي وضع الجبهة على الأرض ونحوها، وهو إذا كان للعبادة فهو خاص بالله تعالى، لعدم جواز عبادة غيره مطلقاً، وإذا كان للتعظيم فقد كان جائزاً في بعض الشرائع السابقة كسجود إخوة يوسف عليه السلام وأبويه له، وكسجود الملائكة لآدم عليه السلام، وهو في الحقيقة عبادة الله تعالى لكونه بأمره تعالى، وقد نسخ هذا الحكم في الإسلام، ويمكن أن يكون سجودهم لله تعالى ولكن جعل آدم قبله لهم كما جعلت الكعبة قبله لنا في صلاتنا.

وقيل بأن سجود الملائكة لم يكن بالكيفية المعهودة، لأن الملائكة مجردات، ولا معنى لهذه الكيفية في المجردات لأنها ليست مادية فكان سجودها بمعنى الخضوع بكيفية لا نعلمها.

وهذا الكلام غير صحيح لأن الملائكة أيضاً أجسام مادية لكنها لطيفة، بل لا مجرد سوى الله تعالى، فكل المخلوقات أجسام، ويدل على ذلك ما ورد من أن الله تعالى، خلق الماء أولاً ثم خلق منه كل شيء^(١)، مضافاً إلى أن ادعاء أن الملائكة مجردات رجم بالغيب، لم يدل عليه دليل عقلي ولا نقلي.

(١) للتفصيل راجع (فقه العقائد) للإمام الشيرازي رحمته الله.

الثاني: إبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن لقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(١) وهو كان مأموراً بالسجود لآدم عليه السلام مع الملائكة قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٢).

ومخالفة إبليس نشأت من سوء اختياره، لأن الله تعالى لا يريد الشر ولا يفعله ولا يرضاه قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾^(٣)، إذ لا يريد الشر إلا المحتاج أو الخبيث، والله تعالى منزّه عن النقائص وهو الغني العدل.

سؤال: فلماذا خلق الله تعالى إبليس مع علمه بما يؤول إليه أمره؟ ولماذا سلطه على الإنسان ليوسوس في صدره ويصدّه عن السبيل؟

الجواب: إن كل ما خلقه الله تعالى خلقه خيراً لا شراً فيه، وإنما ينشأ الشر من سوء اختيار الإنس أو الجن، والله تعالى خلق كل شيء سواهما لا اختيار له كالحوانات، أو معصوماً عن المعاصي كالملائكة، ومن عظمته تعالى أن خلق خلقاً مختاراً لم يلجئه إلى ما أَرَادَهُ، وحباه بعقل يميّز به بين الحسن والقبيح، وأرسل له الرسل ليثيروا دفائن العقول ويرشدوه إلى الصواب، وعرّز فيه فطرة سليمة، وهذا من أعظم آيات الله تعالى فلذا قال حينما خلق الإنسان: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٤) فالإنسان أفضل من جميع الموجودات - إن عمل حسب إرادة الله تعالى - ولذا خلق تعالى له جميع ما في الأرض، كل هذه الفضيلة إنما هو بسبب أنه موجود مختار، وكذلك الجن - وإن كانوا دون البشر - لكنهم أيضاً لاختيارهم كانوا مكلفين

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

ومفضّلين على غيرهم، وإبليس من هؤلاء الجن الذي خلقه الله خيراً، لكنه تحوّل إلى شرّ بسوء اختياره.

مضافاً إلى أن عدم استجابة المؤمنين لإبليس مما يزيدهم درجة ورفعة لم يمكنهم الوصول إليها لولا وسوسته ومقاومتهم لها.

فالإنسان يتكامل وينمو كلما قاوم الوسوس ورّوض نفسه (لكن نفسي أروضها بالتقوى)، فلذا ترتفع درجة الإنسان كلما كانت الوسوس أشد والمقاومة أقوى، كما في سائر المشاكل التي تعرض على الإنسان إذ:

«والأزمات نوع من حركة الحياة، بل هي الهيكل العظمي للحياة، لأنها تسرع عملية الحياة، وتربي قدرة الإنسان على الاحتمال، فلها رسالة أعلى من رسالة الرخاء، فتوقع الرخاء الدائم ناتج عن الجهل بطبيعة الحياة والرخاء إذا استمر لفترة، فإنه يربي الإنسان الرخو الذي يخترق في أول تجربة، ولا يصلح إلا للبطالة واللهو»^(١).

سؤال: كيف وقع ما أراده إبليس من المعصية، ولم يقع ما أراده الله من الطاعة؟

الجواب: لله تعالى إرادتان: إرادة تكوينية لا يتخلف المراد بل يقع فوراً، قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، وإرادة تشريعية التي هي أوامره ونواهيه، ولم يجبر أحداً عليها، فإن أطاع العبد وقع ما أراده الله تعالى، وإن عصى لم يقع، كل ذلك بمشيئته تعالى وإعطاء القدرة للعبد^(٣).

(١) خواطري عن القرآن، ج ١، ص ١٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٣) للتفصيل راجع الجزء الثاني من شرح أصول الكافي - للمؤلف ..

الثالث: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾ الاستكبار هو رفع النفس إلى منزلة لا تستحقها، ويلزم هذا المعنى الأنفة مما لا ينبغي أن يؤنف منه، والاستكبار عن أحكام الله هو أساس سائر المعاصي، فإن ارتكاب المعاصي إنما ينشأ بسبب استصغارها ورؤية الإنسان نفسه فوق النهي، وكذلك في ترك الواجبات.

الرابع: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كان بمعنى صار، أي وصار باستكباره من الكافرين كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾^(١) أي صرتم، أو بمعنى أنه كان من الكافرين قبل الأمر ولكن ظهر كفره حينما عصى أمر السجود، أو هو التفات وليس حكاية مثل من يحكي قصة ثم يقطعها بتوجيه خطاب إلى السامعين.

الخامس: ﴿الْجَنَّةِ﴾ هذه الجنة ليست جنة الآخرة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، لأن تلك الجنة يخلد فيها من دخلها لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢) بل هي جنة من جنات الدنيا كما ورد عن الصادق عليه السلام^(٣) والظاهر أنها كانت في نفس هذه الأرض.

السادس: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فكل شيء في هذه الجنة ومن أي مكان منها كان مباحاً، وإنما ذكر هذا المقطع حتى يكون أتم للحجة من منع الشجرة المنهية، فإن من أجل له كل شيء - وهي من الكثرة ما لا تحصى - ومُنِعَ عن شيء واحد فإن خالف فقد انقطع عذره.

السابع: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ لم يكن الأكل من الشجرة حراماً لأن الأنبياء معصومون، لا يرتكبون المحرمات - كبائرهم وصغائرهم -، ولا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٢.

(٣) البرهان ج ١، ص ٣٣٧ عن الكافي وعلل الشرائع.

مكروهاً لأن المكروه قبيح - وإن لم يكن بحدّ الحرمة - والأنبياء لا يفعلون القبيح.

بل كان النهي إرشادياً، كنهى الطبيب عن أكل الحامض لأنه يوجب تشديد المرض مثلاً وليس نهيه للتحريم أو الكراهة، فالأكل من تلك الشجرة كان أثره الخروج من الجنة، فأرشد الله تعالى آدم لذلك.

وقيل: كان الأولى لآدم ﷺ الامتناع عن الأكل، لأن مقام النبوة يستدعي ترك بعض المحلّلات، فإن الأعمال تُقاس بفاعلها، فربّ فعل حسن من شخص لا يجذب من آخر - وإن لم يكن محرماً ولا مكروهاً عليه - وهذا يُعبّر عنه بترك الأولى، وسمعت الوالد رحمه الله تعالى يستشكل على هذا الكلام وينزّه الأنبياء ﷺ حتى عن ترك الأولى.

أما القول: بأنه كان قبل النبوة، وتجويز المعصية الصغيرة على الأنبياء قبل النبوة!! فكلام باطل، لدلالة الدليل على عصمة الأنبياء مطلقاً - قبل النبوة وبعدها.

وكذلك القول: بأنه كان قبل التكليف!! فإنه تناقض إذ كيف ينهى عن أكل الشجرة وهو غير مكلف؟

وكذلك القول: بأن النهي كان للامتحان، فإن معنى ذلك أن آدم ﷺ تجرأ على الحرام!! أي فعل ما توهمه حراماً!!، والعصمة ملكة تمنع عن ارتكاب الحرام حتى إذا كان متوهماً - إن فرض إمكان ذلك في حق الأنبياء..

الثامن: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ أي كانت نتيجة عمل إبليس أن اخرج الله تعالى آدم وحواء من الجنة.

قيل: وهذا الإخراج لم يكن على وجه العقوبة، لأن الأنبياء لا تجوز عليهم القبائح، وإنما تغيرت المصلحة بتناول الشجرة، لأن الجنة كانت على سبيل التفضل، فله تعالى المنع عنها تشديداً للامتحان، كما له أن يفقر بعد غناء.

التاسع: ﴿كَلِمَتُ﴾ الكلمات التي تلقاها آدم من الله تعالى هي «سأله بحق محمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة صلى الله عليهم» كما في الكافي^(١).

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ «سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليّ، فتاب الله عليه»^(٢).

وفي رواية أخرى أنه قال: (لا إله إلّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين، لا إله إلّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وأنت خير الراحمين، لا إله إلّا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم)^(٣).

وروي غير ذلك، ولا منافاة بينها إذ لعل «الكلمات» كانت كل ذلك.

العاشر: ﴿قُلْنَا﴾ استعمال ضمير الجمع: إما للتعظيم لأن القائل الله وهو أهل الكبرياء والعظمة.

ويمكن أن يقال إن الأفعال التي يفعلها الله بالواسطة استعملت في

(١) الكافي ج ٨، ص ٣٠٥ عنه البرهان ج ١، ص ٣٥٤.

(٢) معاني الأخبار ١٢٥ عنه البرهان ج ١، ص ٣٥٦.

(٣) الكافي ج ٨، ص ٣٠٤، عنه البرهان ج ١، ص ٣٥٣.

القرآن الكريم بضمير الجمع ، لأن الأمر من الله تعالى والتنفيذ من غيره ، فصح نسبة الفعل إلى الله وإلى غيره مثل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾^(١) حيث كان المنفذ للأمر الملائكة ، وأما إذا كان الفعل من دون واسطة فقد يؤتى بضمير المفرد مثل ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾^(٢) ومثله فيما يختص بالله تعالى مثل ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٣) . ويجوز فيه ضمير الجمع تعظيماً .

الحادي عشر: ﴿أَفِطُوا﴾ الأمر الأول لآدم وحواء والشيطان ويصح أن يقال إنه كان لآدم وحواء لجواز استعمال ضمير الجمع في الاثنين ، وأما الأمر الثاني في ﴿أَفِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لعل الخطاب لذرية آدم ﷺ لقوله بعد ذلك . ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا التقسيم إنما يصح في ذرية آدم ﷺ .

ويحتمل أن يكون الخطاب لآدم ﷺ وحواء بعد قبول التوبة ، حيث بين تعالى أن قبول التوبة لا يلزم الرجوع إلى الجنة والأول أظهر .

الثاني عشر: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «الخوف» عن مكروه مستقبلي ، و«الحزن» هو الهم الشديد على ما فات في الماضي ، وواضح أن المؤمن في القيامة يدخل الجنة فلا يخاف من الأهوال ولا يحزن على المشاكل التي تعرض لها في الدنيا ، وكذلك المؤمن في الدنيا لا ﴿خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ، إذ الخوف الكامل إنما يكون عن مكروه لا يُعوّض ، والمكروه الذي يُصيب المؤمن في الدنيا يُعوّض ، والمخاوف التي يراها المؤمن في الدنيا ليست مخاوف بالنسبة إلى ما يراه الكفار من العذاب .

(١) سورة القدر، الآية: ١ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦ .

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٠ .

الثالث عشر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ الكفر إن كان عن قصور لا يوجب الدخول في النار، بل ورد في بعض الروايات أن الكفار القاصرين، والمجانين من أبناء الكفار، وكذلك الصغار من أبنائهم، يمتحنون يوم القيامة، وأما إذا كان كفراً عن عاد، فذلك الذي يوجب الخلود في النار فلذا قال تعالى: ﴿كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾.

الرابع عشر: لما كان الكلام من أول السورة حول تقسيم الناس إلى مؤمنين وغير مؤمنين وذكر أحوال كل صنف ثم الاحتجاج على الكفار، ثم وصلنا إلى هذا المقطع الذي فيه بيان أول كفر بعد خلق الإنسان وأسبابه ودوافعه والتحذير منه، ختم الله تعالى المقطع، بذكر أصل التقسيم وما يترتب عليه من عقاب الكفار ونعيم المؤمنين

(فصل)

بنو إسرائيل نموذج آخر:

للمؤمنين والكفار

(فصل)

بنو إسرائيل نموذج آخر: للمؤمنين والكفار

بعد الاحتجاج على الكفار بذكر خلق آدم ﷺ وما اكتنفه من أحداث، ذكر الله تعالى مثلاً لأمة عرضها الكفر والإيمان، إذ بني إسرائيل حضارة كاملة نموذج للجنس البشري، حيث اجتمعت فيهم مختلف حالات الأمم، إذ كانوا مضطهدين ثم أصبحوا ملوكاً، وكان فيهم الأنبياء والعلماء والأثرياء والمستكبرين وعبداء الطاغوت والمخالفين لأوامر الله تعالى والمسوخ وغير ذلك.

وفي هذه الآيات تذكر جذور الإيمان والكفر وعلائم المؤمنين والكفار ونحو ذلك قال تعالى:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ ۚ وَمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَاذِبِينَ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ۚ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ۚ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۚ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۚ﴾

٤٠ - ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ﴾ أي عبد الله وهو يعقوب عليه السلام ﴿أَذْكُرُوا﴾ بالشكر والتعظيم والإطاعة ﴿نَعْبَىٰ آلَىٰ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كل النعم، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أودعته في فطرتكم من الإيمان، أو ما أخذته من أسلافكم، ومنه الإيمان بمحمد عليه السلام ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهو حسن الثواب في الدنيا والآخرة، ﴿وَأِيَّانِي فَأَرْهَبُونِ﴾ فلا تخافوا من غير الله إذا وفيتم بالعهد.

٤١ - ﴿وَأِيمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ وهو القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إذ التوراة قد ذكرت النبي عليه السلام والقرآن، فتم تصديقها بظهور النبي ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي بما أنزلت، لأنهم كانوا مرجعاً للجهل فكفرهم يسبق كفر الجاهل الذين يتبعونهم، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أي لا تستبدلوا ﴿بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهي المصالح الدنيوية الزائلة، ﴿وَأِيَّانِي فَأَتَّقُونِ﴾ فلا تحذروا وتتقوا غير الله لأن الله بيده النفع والضرر.

٤٢ - ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ أي لا تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ فتلبسوا الباطل لباس الحق، ﴿وَتَكْنُبُوا الْحَقَّ﴾ كأوصاف الرسول محمد عليه السلام، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بأن فعلكم هو باطل وأن الحق مع محمد عليه السلام.

٤٣ - ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لأنها تنهى عن المنكر وقد توجب هدايتكم، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ حتى يسهل عليكم الابتعاد عن المصالح الدنيوية، ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ لأن الجو العام يؤثر في الإنسان سواء في الخير أم الشر.

٤٤ - ﴿تَأْتُمِرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ﴾ أي أعمال الخير، والاستفهام للإنكار

الثاني: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْنَا﴾ ليس تكراراً، لأن كل النعم من الله تعالى، لكن قد تكون بعض النعم بالواسطة - كالتصدق على الفقير - فيخفى على البعض أنها نعمة من الله عز وجل فينسبونها إلى غيره، ولكن نعم الله تعالى على بني إسرائيل كانت واضحة أنها من الله تعالى، لأنها لم تكن بواسطة - عادة - وهذا ما يستدعي شكر تلك النعمة بدون أي التباس، كإنجائهم من آل فرعون، وقبول توبتهم بعد عبادتهم العجل، وإنزال المن والسلوى وغير ذلك.

الثالث: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ كل العهود، لأن حذف المتعلق يفيد العموم، ومن أهم تلك العهود الإيمان بالرسول محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿الَّتِي الْأَيْمَنُ الَّذِي يُبَدُونُهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٢) وقد ذكر القرآن الكريم العهود المختلفة التي أخذت منهم كما سيأتي - إن شاء الله - في الآيتين ٨٣ و ٨٤ من هذه السورة.

الرابع: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ أي الوعود التي وعدها الله لهم إذا التزموا بعهودهم، ومنها ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَأُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٣)، لكن أكثرهم نبذوا عهد الله وراء ظهورهم فاستحقوا الذلة في الدنيا وعذاب الخزي في الآخرة، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(٤) وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦١.

الخامس: ﴿وَلَيْتَىٰ فَازَهُبُونَ﴾ تقديم المفعول يفيد الحصر، أي ارهبوني ولا ترهبوا غيري، وهو تسكين لمن أراد الإيمان منهم، وتحذير لمن لم يرده، حتى لا يعتذر لتركه العهد - ومنها الإيمان بالرسول محمد ﷺ - بأنه يخاف الناس، فيأتيه الجواب بأن الله أحق أن تخشاه وترهبه، لأن الخوف من الناس إنما هو لإبعاد ضرر دنيوي منهم، وأمّا الخوف من الله فإنه يبعد الضرر الدنيوي والأخروي، وكلنا يعلم ما حلّ باليهود الذين خالفوا النبي ﷺ فقد قتل بعضهم وأسر البعض واغتنمت أملاكهم وأراضيهم فخسروا الدنيا، فلو كانوا يؤمنون فبالإضافة إلى حفظ ما عندهم كانوا يحصلون على مغانم كثيرة أخرى، هذا فضلاً عن خسرانهم الآخرة وذلك هو الخسران المبين.

السادس: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي القرآن يصدق التوراة، فإن التوراة ذكرت أن محمداً ﷺ سيبعث، وذكرت أوصافه، فكانت بعثته تصديقاً لهذا الخبر، وليس المراد أن القرآن يصدق كل ما في التوراة التي هي بأيدينا لوضوح التحريف والحذف والزيادة فيها، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِندِ اللَّهِ﴾^(١) أو المراد أن القرآن يصدق التوراة الأصلية غير المحرفة.

السابع: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ لعل المراد أنه كان ينبغي أن تكونوا أول المؤمنين بالقرآن وبالرسول محمد ﷺ، لعلكم ببشارة التوراة، ولا انتظاركم بعثته بشوق قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، فلا تكونوا أول كافر به فيكون من باب المقابلة، لا الأول مطلقاً

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

فإن مشركي مكة كانوا أول الكافرين قبل اليهود، أو لأن العالم مرجع الجاهل فيكون كفره أولاً وكفر الجاهل ثانياً لأنه تابع، أو لا تكونوا أول كافر من أهل الكتاب، ولعل الأول أفصح.

الثامن: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هي الرئاسة الزائلة، لأن كل المصالح الدنيوية إنما هي ثمن قليل لزوالها، ولتعرض المشتري للعذاب الدائم الذي ليس فوقه عذاب، وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: «كان حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود في كل سنة فكروها بطلانها بأمر النبي صلى الله عليه وآله فحرفوا لذلك آيات التوراة»^(١) ولعل هذه المأكلة من مصاديق المصالح الدنيوية التي كان يخشون زوالها لو آمنوا.

التاسع: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ التقوى من الوقاية، وهي حفظ النفس من الشهوات ونحوها، فيكون معنى الآية لا تغرنكم الدنيا والتمن القليل، بل احفظوا أنفسكم من عذاب الله الذي سيصيبكم لو اتبعتم الشهوات والمصالح الدنيوية، قال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾^(٢) أي احفظوها من النار فيكون معنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٣) احفظوا أنفسكم من عذابه وعقابه.

العاشر: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ اللبس - بفتح اللام - هو التعمية، كأنه ألبس الباطل لباس الحق، وهذا ديدن أهل الضلال لأن الباطل الصريح لا يقبله أحد إلا إذا خدعوا السذج والجهال بإظهاره بمظهر الحق، ومن أعمالهم كتابة أمور باطلة بأيديهم وزيادتها في التوراة حتى يظن الناس أنها حق من كلام الله تعالى، وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما بدء

(١) مجمع البيان، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

وقوع الفتن أهواء تُتَّبَع، وأحكام تُبْتَدَع، يُخَالَف فيها كتاب الله، ويتولى رجال رجالاتاً، على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، لكن يُؤْخَذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»^(١).

الحادي عشر: ﴿وَتَكُنُّهُوَ الْحَقَّ﴾ الفرق بينه وبين ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، هو أن كتمان الحق إخفاءه حتى لا يظهر، ولبس الحق بالباطل هو إظهار الباطل على أنه حق، فينهاهم الله عن الأمرين. وإن كان بينهما تلازم - عادة -.

الثاني عشر: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ العالم الذي يكتُم الحق ويظهر الباطل لا عذر له، وأما الجاهل فقد يُعْذَر إذا كان قاصراً بمعنى عدم تمكنه من الوصول إلى الحق قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَغْفِرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾^(٢)، وأما الجاهل المقصّر الذي كان يمكنه أن يتعلم لكنه تهاون في ذلك فإنه والعالم غير العامل سواء، وقد ورد أنه يقال له: «هَلَّا تعلمت»^(٣).

الثالث عشر: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ هذه أمور ثلاثة توجب هداية الإنسان وابتعاده عن المصالح الدنيوية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ومن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ والزكاة تروّض النفس

(١) نهج البلاغة الخطبة ٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٨.

(٣) الوسائل: ج ٥، ص ٣٧١.

على ترك التعلق بالمال الزائل فإن من لا يمتنع عن دفعها يمتنع عن أكل المال بالباطل - عادة - فلا يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، وحيث إن الجو العام يؤثر في الإنسان فإن كان صالحاً رغبه إلى الصلاح فأمرهم الله تعالى بالاشتراك في صلوات الجماعة فقال ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾.

الرابع عشر: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾ قيل: إن صلاة اليهود لا ركوع فيها فيكون هذا الفصل ترغيباً لهم إلى الإسلام وإلى العبادة على الكيفية الإسلامية.

ويستفاد منه رجحان صلاة الجماعة، عن النبي ﷺ: «من صلى الخمس في جماعة فظنوا به خيراً»^(١).

الخامس عشر: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾، قيل: إن رؤساءهم كانوا يقولون لمن أسلم من أقربائهم أن اثبتوا على ما أنتم عليه، ولا يؤمنون هم^(٢) حفاظاً على منافعهم فقال لهم الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ وهو الثبات على الإسلام، ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تسلمون، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فتجدون اسم النبي وأوصافه ﷺ^(٣).

وهذا بعيد لأنهم كانوا يحاربون الرسول ﷺ بمختلف الوسائل والسبل، ومن المستبعد أن يدعوا أقرباءهم إلى البقاء على الإسلام، ودراسة حالاتهم ونفسياتهم وملاحظة الآيات الواردة في شأنهم تدل على مرضهم النفسي ومحاولتهم للتخريب على الإسلام بمختلف الوسائل والسبل.

(١) الوسائل ج ٥، ص ٣٧١.

(٢) مجمع البيان، ج ١، ص ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه.

وقيل: كانوا يأمرّون العرب بالإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، فلما بُعث كفّروا به.

وهذا أيضاً بعيد، لأنهم كانوا ينتظرون بعثة النبي ﷺ وكانوا يمتّون أنفسهم بأنه منهم، أنه ينصرهم فيكون الفتح لهم على العرب قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) أي يطلبون الفتح بالرسول ﷺ.

والأقرب أن المراد أمراً عاماً، فإنهم كانوا يتلون التوراة على الناس ويصفون أعمال الخير والبر إلى العوام، لكنهم كانوا لا يعملون بذلك، فكانوا يكذبون ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، إذ سياق الآيات هو أمرهم بالفضائل التي كانوا يتركونها، ونهيهم عن الرذائل التي كانوا يفترونها ومنها أمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم.

السادس عشر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي إذا تركتم باطلكم فقد تصابون ببعض المشاكل، وهذا أمر طبيعي لكل من يغيّر دينه فإن نمط حياته تتغير، فقد يفقد بعض المكاسب، وقد يحاربه أقرباه وأصدقاءه، فيقول تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ لأن الصبر مفتاح الفرج، يعود بالنفع على الصابر، إذ الدنيا لا تخلو من المشاكل، والإنسان بين أمرين: إمّا أن تحطمه تلك المشاكل، وإمّا أن يحطمها هو، والصبر هو الطريق الأمثل للتغلب عليها، وكذلك (استعينوا بالصلاة) لأن الصلاة هي الارتباط بين الله تعالى وبين العبد فتوجب اطمئنان القلب، حيث إن المصلي يعلم بأنه ارتبط بركن شديد التي كلّ الأمور بيده.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

وروي أنّ الصبر هو الصوم^(١) ولعله ذكر مصداق للصبر، إذ في الصوم منع الإنسان نفسه من الشهوات والملذات، فتروّض النفس على الصعاب ويتعلّم الصبر في مختلف الأمور.

وعن الصادق عليه السلام: كان عليه السلام إذا أهاله شيء فزع إلى الصلاة ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٢).

السابع عشر: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي شاقة وثقيلة، والضمير راجع إلى الاستعانة أي إن الاستعانة بالصبر والصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين، والاستعانة وإن لم تكن مذكورة، إلا أنها تعرف بدلالة الكلام في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤَيِّدُ بَلَدًا وَلَا يُوَسِّدُ لِكُلِّ فِتْنَةٍ مَخْرَجًا﴾^(٣) الضمير راجع إلى الميت وهو غير مذكور في الكلام السابق إلا أنه مستفاد من سياق الكلام حيث إنه حول الإرث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٤) ... الخ.

وكون الصلاة شاقة وثقيلة على غير الخاشعين، لأنها وإن لم تستغرق وقتاً، إلا أنّ لزوم أدائها في مختلف الأوقات وبشكل منظم وخاصة في أوقات يرغب الإنسان في النوم كصلاة الصبح أو انشغاله بأعمال أخرى كالظهرين والعشاءين، إضافة إلى وساوس الشيطان وصرفه الإنسان عنها، كل ذلك وغيره يجعل الصلاة ثقيلة صعبة على الإنسان إلا الخاشعين.

الثامن عشر: ﴿الْخَاشِعِينَ﴾، الخشوع هو التذلل في القلب ويظهر ذلك

(١) البرهان، ج ١، ص ٢٧٧ عن الكافي.

(٢) المصدر عن الكافي

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٤) سورة المائدة الآية: ١١.

على الصوت والطرف قال تعالى: ﴿خَشَعَةً أَنْصُرُهُمْ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾^(٢) وروى عن الباقر عليه السلام: «الخاشع الذليل في صلاته المقبل عليها»^(٣)، وأما الخضوع فهو اللين والانقياد، فهو من فعل الجوارح قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾^(٤) أي لا يليته، فالخاشعون لا تثقل عليهم الصلاة لعلمهم بعظمة الله وأنهم يرجعون إليه للحساب فيثابون على هذه الصلاة فهم راغبون إليها كل رغبة، فمثلهم كمثل العامل الذي يعلم بأنه لو أتم عمله يُعطى أجره مضاعفاً فإنه يكون نشطاً راغباً إلى العمل حتى لو كان شاقاً.

التاسع عشر: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يوقنون، بمعنى يعلمون بأنهم يلاقون حساب الله تعالى فيوفيههم أجورهم ويحلهم دار الأمن بعد خوفهم، فلذا تحصل لهم حالة الذلة والخشوع لله تعالى.

والتعبير بالظن للمبالغة لأن أدنى مراتب الرجحان يوجب الخشوع، فحتى من يظن بأن الصلاة - وهو عمل لا يستغرق وقتاً طويلاً - لها هذا الأجر العظيم فإنه يحصل له الخشوع فكيف بمن هو موقن؟

العشرون: ﴿مُلَقُّوْا رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي يلاقون حسابه ويرجعون إلى ثوابه والجميع - مؤمناً كان أم كافراً - يلاقي حساب الله تعالى ولذا قال تعالى عن المنافقين: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نَفَقَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾^(٥)، ثم بعد

(١) سورة القلم، الآية: ٤٣.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٨.

(٣) البرهان، ج ١، ص ٣٧٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

الحساب يكون الرجوع إلى ثواب الله أو عقابه قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

وليس في الآية دلالة على إمكان رؤية الله تعالى، لأن اللقاء ليس الرؤية، إذ لو لم يره - كما لو كان أعمى - لكن تكلم معه فيقال: «لقيه»، وإذا رآه من بعيد ولم يتكلم معه لا يقال «لقيه»، ولأن القائلين بالرؤية يقولون باختصاصها بالمؤمنين مع أن لقاء الله يشمل المنافقين كما في الآية السابقة ﴿فَاعْقَبْنَهُمْ نِقَافًا فِي الْقُورِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾^(٢)، مضافاً إلى استحالة رؤية الله تعالى، لأن الرؤية إنما هي اصطدام النور بالجسم ورجوعه إلى البصر فتحتاج إلى كون الشيء جسماً وأن يكون في مكان خاص مقابل الرائي، والله تعالى ليس بجسم وهو غير محدود بمكان أو مقدار فكيف يمكن رؤيته؟ مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾^(٣) وقوله سبحانه: ﴿قَالَ لَنْ نَرِيَّ﴾^(٤) وسيأتي تفصيل ذلك - إن شاء الله - بعد قليل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة الاعراف، الآية: ١٤٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(فصل)

النَّعْمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

الأمر الأول: نعمة قيادة الأمم

لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة الواجبات والمحرمات على بني إسرائيل، ذكر في الآيات التالية النعم التي أنعمها عليهم بالتفصيل حتى يكون أدعى للترامهم بالشرع فقال سبحانه:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٧ - ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا تمهيد للنعم التي ستذكر تباعاً، ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمان أنبيائكم كموسى عليه السلام، فإن كل مؤمن في زمان نبيه أفضل من سائر العالمين.

٤٨ - فراعوا هذه النعمة أحسن مراعاة، ولا تعولوا على الأمانى بأنكم في مأمن من العذاب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي﴾ أي لا تقضي ولا تؤدي ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ من الحقوق، فكل نفس بما كسبت رهينة، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي من النفس ﴿شَفَعَةٌ﴾ فإن

الشفاعة ليست اعتباطاً وإنما لها شروط خاصة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية تعدله ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ بأن ينصرهم أحد من الله وعذابه.



بحوث:

الأول: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ﴾ ذكر هذا المقطع مع أنه سبق في الآية ٤٠، لأن الأول كان تمهيداً لأمرهم ونهيهم، وهذا تمهيد لذكر النعم التي عليهم بالتفصيل وبيان نقاط قوتهم وضعفهم، وقيل الأول للنعم عليهم والثاني للنعم على آبائهم، ويحتمل أن يكون للتأكيد فإن النعم هي الأصل فيما يجب شكره فاحتيج إلى تأكيدها.

الثاني: ﴿فَضَّلْتَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هذه أولى النعم وأهمها وهي نعمة القيادة الروحية العالمية، فإن الله اختارهم ليكونوا قادة العالم وارضى أن يكونوا حملة دينه فبعث فيهم الأنبياء تترى، وهذا التفضيل خاص بالعالمين في زمان أنبيائهم.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُودًا وَكَوْنًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١) فإنه من الواضح أن التفضيل الشمولي لكل العالمين من الأولين والآخرين ينحصر في شخص واحد إذ لا يمكن أن يكون الأفضل إلا شخص واحد، فدل ذلك على أن التفضيل إنما هو في زمانهم.

ثم إن التصدير بذكر النعم وميزات وفضائل المستمع، يكون له تأثير نفسي بليغ في تأثير الموعظة التي تلحقها.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٦.

الثالث: ﴿وَأَنقُذْ يَوْمَئِذٍ﴾ ... فإن اليهود كانوا يزعمون بأنهم شعب الله المختار، فلا يعذبون، فردعهم الله تعالى وحذرهم يوم الجزاء، فلا يمكن الفرار من عقوبة الله تعالى مهما فعلوا، ولا يجري هنالك ما يجري في الدنيا من درء العقاب، فإن الناس يدرؤون العقاب بأحد أمور أربعة عادة:

١ - أن يؤدي شخص آخر الحقوق عن الإنسان.

٢ - الشفاعة بأن يشفع أصحاب النفوذ، فلا يصدر الحكم ضد المجرم.

٣ - أن يحكم عليه بدفع الفدية، فيدفعها ويتخلص من سائر العقوبات.

٤ - أن ينقذه أصحاب القوة من العقوبة.

وكل هذه الأمور يستحيل التعويل عليها لدرء عذاب الآخرة فهناك:

١ - ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾^(١) وكل إنسان في فكر نفسه ﴿يَوْمَ يُقْرَأُ التَّوْرَةُ مِنْ أَجْلِهِ﴾^(٢) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ﴾^(٢).

٢ - لا شفاعاة إلا لمن ارتضاه الله ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٣).

٣ - ولا فدية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْتَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤ - ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٦.

٤ - ولا قوة فوق قوة الله عزَّ وجل ﴿لَا يُصْرُونَ﴾...

الرابع: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾.

الشفاعة طلب بعض الأولياء من الله عزَّ وجل غفران ذنوب بعض العصاة أو رفع درجات بعض المؤمنين.

وطريقة القرآن الكريم هي إثبات الكمال لله تعالى وسلبه عن غيره ثم إثبات بعض الكمال لغيره بإذنه تعالى، ليتبين أن ما لغيره من الكمال ليس بشكل استقلالي، وإنما هو بأمر الله وإذنه، لكي لا يتوهم الناس أن غيره من الأولياء يشاركونه في الأمر.

مثلاً علم الغيب منحصر بالله تعالى، ولكن قد يُطلع الله على غيبه من يشاء قال تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَّسُولِي﴾^(٢)، ومثال آخر: الخلق، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾^(٣) ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٤) وقال سبحانه عن لسان عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَنشَأْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفَخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٥).

وهكذا في الشفاعة فإن الشفاعة، خاصة بالله تعالى، وقد يأذن سبحانه لبعض الأولياء بالشفاعة ضمن ضوابط خاصة، والآيات تبين ذلك وهي على أصناف:

(١) سورة النمل، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الجن، الآيتان ٢٦ - ٢٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

١ - إثباتها لله فقط قال سبحانه: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(١)
﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾^(٢) ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾^(٣).

٢ - إن الله يأذن لأوليائه بالشفاعة قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٥).

٣ - لا يشفع من لم يرضه الله، قال عز من قائل: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٦)
﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٧).

٤ - الشفاعة لها ضوابط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٨) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(٩) ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٤٢) ﴿قَالُوا لَرَّ نَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤٣) ﴿وَلَرَّ نَاكَ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾^(٤٤)
﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾^(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٤٦) ﴿حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِيْنَ﴾^(٤٧) ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾^(١٠).

٥ - الشفاعة لا تنال بعض الناس قال سبحانه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

(١) سورة الانعام، الآية: ٥١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٥) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(٦) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٧) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٨) سورة الانبياء، الآية: ٢٨.

(٩) سورة مريم، الآية: ٨٧.

(١٠) سورة المدثر، الآيات: ٤٥ - ٤٨.

شَفَعَةً ﴿١﴾ ﴿يَوْمَ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ ﴿٢﴾ ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ﴿٣﴾ .

يستفاد من ذلك كله، أن الشفاعة حقيقة ثابتة، وهي مثل كل كمال خاصة بالله تعالى، وقد يأذن الله تعالى لمن يشاء بالشفاعة، ولا يشاء الله تعالى الشفاعة إلا لمن استحقها فليست اعتباطاً.

وبعض هذه الشروط - التي وردت في الآيات السابقة - هي :

أ - أن يرضى الله عن المذنب، والله لا يرضى عنه إلا إذا تاب أو عمل صالحاً.

ب - أن يكون له عهد عند الله، ولعل هذا العهد هو الإيمان والعمل الصالح.

ج - أن لا يكون ظالماً.

د - عدم الاستخفاف بالصلاة.

هـ - إطعام المسكين - ومنها الزكاة الواجبة -.

و - عدم الخوض مع الخائضين.

ز - عدم التكذيب بيوم الدين.

وأما اليهود فإنهم فقدوا كل شروط الشفاعة، فلذا خاطبهم الله تعالى بقوله : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ .

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣.

الأمر الثاني ومن نعم الله تعالى على بني إسرائيل نعمة النجاة والحرية

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

وبعد نعمة التفضيل والقيادة، تأتي النعمة الثانية وهي نعمة الحرية التي هي أهم من النعم الأخرى.

٤٩ - ﴿و﴾ اذكروا نعمة نجاتكم من الاستعباد وجعلكم ملوكاً لأنفسكم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي قومه وخواصه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يلقونكم ويولونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي العذاب الشديد، وذلك العذاب أنهم ﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي يبقونهم أحياء للخدمة والاستمتاع، ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ﴾ أي الذبح والاستحياء ﴿بَلَاءٌ﴾ وامتحان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لصعوبة تحمله.

٥٠ - ﴿و﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ﴾ أي بسببكم ولأجلكم ﴿الْبَحْرَ﴾ أي جعلناه فرقة فرقة، فكانت فواصل بين ماء البحر حتى صارت كالشوارع ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فرعون وآله

بمعنى الجبر وإنما بمعنى عدم منعه تكويناً عنها، ويمكن أن يكون هذا البلاء عقوبة لهم لما خالفوا الأوامر الإلهية قبل موسى ﷺ فعاقبهم الله بأن سلط الفراعنة عليهم ثم لما تضرعوا إلى الله تعالى أنجاهم من آل فرعون، ويمكن أن يكون الضمير في ﴿ذَلِكُمْ﴾ يرجع إلى الإنجاء، فيكون معنى البلاء النعمة أي وفي إنجائكم من آل فرعون نعمة عظيمة من الله تعالى لأن البلاء يطلق على الشر والخير كما في قوله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾^(١).

الثالث: ﴿فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ﴾ أي بسبيكم ولأجل إنجائكم، وكانت هذه معجزة عظيمة بأن تفرق ماء البحر وصار كالحيطان وظهرت اليابسة من قاع البحر.

وقال بعض المنبهرين بالغرب والمنهزمين نفسياً إن ذلك كان بالمدّ والجزر ولم يكن معجزة، وهذا قول من لا يؤمن بالغيب ويريد إنكار المعاجز ارضاء للماديين، مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٢) مضافاً إلى أن المد لا يمكن أن يغرق جيشاً بأكمله لأنه تدريجي فيمكن الفرار منه، وكذلك إن البحر الأحمر مدّه ضعيف لأنه محصور من أكثر أطرافه باليابسة فلا يغرق في مدّه أحد عادة، وكذا بحيرات سيناء.

ثم إنه قد مرّ سابقاً أن المعجزات هي لإثبات صدق مدعي النبوة لا لتغيير الأسباب الظاهرية، إلا في موارد نادرة وهذا من هذه الموارد النادرة فإن الله فرق البحر ليس لتصديق موسى ﷺ وإنما لإنجائه وبني

(١) سورة الانبياء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

إسرائيل ، ولعل السبب أن الله لا يريد إخلاء الأرض من الحجة ومن دين يرتضيه ، فإذا قصرت الأسباب الظاهرية عن حفظ دينه تدخلت الأسباب الغيبية ومنها هذه القصة ، وكذلك إنزال الملائكة يوم بدر ، وأما إذا لم تقصر الأسباب الظاهرية عن حفظ دينه فإن الأمور تسير بشكل طبيعي وإن كان فيها قتل الأنبياء والأوصياء .

الأمر الثالث والرابع من نعم الله على بني إسرائيل نعمة الشريعة والتوبة

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٥١ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٥٣ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ عَنكُمْ ظِلْمُكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

٥١ - ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي جعلنا له موعداً لتلقي الكتاب، ﴿ثُمَّ﴾ لما طال الأمد حيث زعمتم أن موسى مات ﴿أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي بعد ذهابه إلى الطور صنعتم العجل، من الذهب وعبدتموه، ﴿وَأَنْتُمْ﴾ بفعلتكم هذه ﴿ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم أي جلبتم الضرر على أنفسكم.

٥٢ - ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي قبلنا توبتكم بعد عبادة العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن العفو نعمة من الله تعالى تستوجب شكراً.

٥٣ - ﴿وَإِذْ﴾ اذكروا نعمة أخرى كانت حين عبادتكم للعجل

الثاني: ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾. الوقت المحدد لموسى ﷺ كان أربعين ليلة، لكن الله تعالى لأجل امتحان بني إسرائيل أخبرهم بالثلاثين وسكت عن العشرة الباقية، فلما انقضت الثلاثين زعموا أن موسى قد مات، فاستغل السامري ذلك وصنع العجل وتبعه على ذلك الكثير منهم، وسيأتي تفصيل ذلك - إن شاء الله - في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾^(١)، فلما رجع موسى ﷺ بالكتاب ورآهم على تلك الحالة غضب منهم وأسف على فعلتهم، فندموا على عبادتهم العجل، فتاب الله عليهم فكان الكتاب بعد ذلك هدى وموعظة لهم.

الثالث: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ تذكير لهم بأنكم انحرقتم انحرافاً كبيراً في الماضي بعبادة العجل، لكن الله تعالى رحمكم ولما تبتم قبل توبتكم، والآن أيضاً طريق التوبة مفتوح أمامكم فأمنوا بالنبي محمد ﷺ يكفر الله تعالى عن ذنوبكم السابقة ويقبل توبتكم.

الرابع: ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أي التوراة فهي الجامع بين كونها كتاباً منزلاً من عند الله تعالى، وفرقاناً يميز بين الحق والباطل، كما نقول رأيت العالم والعابد، ونقصد شخصاً واحداً جامعاً بين العلم والعبادة، فإن بعض المعجزات هي فرقان تفرق بين الحق والباطل لكنها ليست كتاباً كفلق البحر، لكن التوراة إضافة إلى كونها فرقاناً فهي كتاب في متناول الجميع.

الخامس: ﴿بَارِكُمْ﴾ أي الخالق الذي أخرجكم من العدم إلى الوجود وإنما جيء بهذا الاسم دون سائر الأسماء والحسنى، لتقبيح فعلتهم حينما تركوا عبادة خالقهم الذي أوجدتهم من العدم وبهذه الكيفية الدقيقة وهرعوا إلى عبادة العجل الذي لا يتمكن من صنع شيء وهو مثل في الغباء.

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٤٢.

ثم لما أمرهم بقتل أنفسهم قال: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ فتكرر «البارى» مرة أخرى لشدة مناسبة هذه الصفة للحكم وهو القتل أي أن الذي خلقكم هو الذي أمر بقتل بعضكم بعضاً.

السادس: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قبول التوبة إنما كان بقتل بعضهم بعضاً، ولعلّ هذه التوبة العجيبة كانت بسبب أنهم أشربوا في قلوبهم حب عبادة الأصنام، فحينما عبروا البحر ورأوا قوماً يعبدون صنماً قالوا لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(١) وحينما غاب موسى عبدوا العجل، فكان حب الأصنام متجذراً في قلوبهم حتى بعد رؤية الآيات الباهرات والمعجزات الظاهرات، ولم يمكن اقتلاع هذا الحب بإظهار الندم وبالكلام فقط، فكان يخشى عليهم الرجوع إليه لو مات موسى، فإنه لما غاب أياماً عبدوا العجل فكيف إذا غاب عنهم دائماً بالموت!! فاحتاجوا إلى توبة من نوع آخر تكون صعقة نفسية ماثلة أمامهم دائماً، ليقتلع حب الأصنام من قلوبهم نهائياً، فكانت هذه التوبة بقتل بعضهم بعضاً.

السابع: ﴿لَمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي قبلنا توبتكم عن عبادة العجل ورفعنا عنكم عذاب الآخرة الذي استحققتموه، لأجل أن تشكروا الله تعالى على هذه النعمة، ويستفاد منها أن شكر النعمة واجب، إذ قد مرّ أن «لعلّ» من الله تعالى ليس للترجي لاستلزام الترجي الجهل بالمستقبل المحال على الله تعالى العالم بكل الأمور، بل المقصود هو نتيجة الترجي.

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٣٨.

الأمر الخامس
ومن نعم الله على بني إسرائيل
نعمة إحياء الأموات منهم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الصَّعِقَةِ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٥٥ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لا نصدقك أبداً ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً، ولما كان هذا ظلماً كبيراً عُوقبوا بالموت ﴿فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الصَّعِقَةِ﴾ وهي النار التي تنزل من اصطكاك السحب ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ إلى إصابتها لكم وهذا أشد في الألم لانخلاع القلب قبل الموت.

٥٦ - ﴿ثُمَّ﴾ استجابة لدعاء موسى ﷺ ﴿بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة وترجعون عن عنادكم وغييكم.



بحوث:

الأول: الفرق بين (الإيمان به) و(الإيمان له)، أن الأول بمعنى الإذعان لوجوده، فالإيمان باليوم الآخر - مثلاً - بمعنى الاعتقاد بتحقيق هذا اليوم، وكذلك الإيمان بالله أي الاعتراف بوجوده تعالى، وأما الثاني فبمعنى

تصديق كلامه أي قبول كلامه الذي فاه به قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) أي يعتقد بوجود الله ويصدق كلام المؤمنين.

الثاني: ﴿حَقَّ نَزَى اللَّهِ جَهْرَةً﴾ في الآية دلالة على عدم إمكان رؤية الله تعالى - لا في الدنيا ولا في الآخرة -، ولذا عاقبهم بأن أماتهم بالصاعقة، ولو كانت الرؤية ممكنة لما كان في طلبهم غضاضة ولا مشكلة حتى يستحقوا عليه العقاب.

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾^(٢) ومعنى (أدركه البصر) الرؤية بالعين، وكذلك قوله تعالى لموسى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾^(٣) وكلمة «لن» لنفي التأييد أي للأبد، فيكون المعنى يا موسى لن تراني للأبد لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَبُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾^(٤) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ^(٥) فبمعنى إلى رحمة ربها ناظرة.

والله عز وجل - في سورة النساء - يذكر أن هذا الطلب - في نفسه - ظلم: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾^(٥).

وأما قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾^(٦) فإن طلبه كان استجابة لما طلبوا حيث روي «أنهم قالوا: لن نؤمن لك حتى

(١) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٢) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٦) سورة الاعراف، الآية: ١٤٣.

تسأله - أي الرؤية لك -، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحتهم، فأوحى الله إليه يا موسى سلني ما سألك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(١) وسيأتي تفصيل ذلك في سورة الأعراف - إن شاء الله تعالى .

الثالث: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ تقارنت الصاعقة من الزلزلة، فكان الأمران سبب موتهم لقوله تعالى: ﴿وَأَخْزَاةٌ مُّؤْمِنٌ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾^(٢)، ولعل الصاعقة أصابت الجبل فأحدثت زلزالاً، فهم بالنظر إلى الصاعقة والزلازل الذي رافقها انخلعت قلوبهم فماتوا من جراء ذلك.

الرابع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ في الآية دليل على إمكان الرجعة، لأن هؤلاء بعد موتهم أحياهم الله تعالى استجابة لدعاء موسى ﷺ ولكي يتركوا عنادهم حينما يرون النعمة عليهم، فلا يوجد مانع من أن يحيي الله تعالى من يشاء من هذه الأمة بعد موتهم وقد دلت الروايات المتواترة على وقوع الرجعة، بل الرجعة من مصاديق قدرة الله عز وجل فإنه قادر على إحياء الأموات في الآخرة وفي الدنيا، كما أن عيسى ﷺ أحيى الأموات بإذن الله تعالى، كما أن الله أحيى موجودات أخرى غير الإنسان - بعد موتها، كما في إحيائه البقرة - كما سيأتي في الآيات اللاحقة إن شاء الله تعالى -.

(١) تفسير البرهان ج ٤ ص ١٨٢ - ١٨٣ عن العيون والعلل.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

الأمر السادس
ومن نعم الله على بني إسرائيل
النعم الماديّة (من الأكل والشرب والسكن و...)

أ - المأكل

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَاسْلَوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٥٧ - ﴿وَ﴾ من نعم الله عليكم - يا بني إسرائيل - أن ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلنا السحاب ظلاً لكم، يقيكم حرّ الشمس وبرد القمر، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾ وهو ماء حلوى يقع على أوراق الأشجار صباحاً، أو مادة صمغية حلوة تخرج من الأشجار، ﴿وَاسْلَوَىٰ﴾ طير يعرف بالسماوي، ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ﴿وَ﴾ لكنهم ظلموا وكفروا بهذه النعم أيضاً و﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ لأن الله غني عن العباد، وظلم الظالم لا يقدر في سلطانه تعالى، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث يمنعوها من رحمة الله تعالى بالعباد وكفران النعم.



بحوث:

الأول: لَمَّا عبر بنو إسرائيل البحر عتوا مرة أخرى عن أمر ربهم، فغضب الله تعالى عليهم، وابتدأهم بالتيه أربعين عاماً، حيث تاهوا في صحراء سيناء وهي صحراء شديدة الحرارة نهاراً وشديدة البرودة ليلاً وقليلة الماء والطعام، ثُمَّ تابوا إلى الله تعالى فتاب عليهم وأنزل عليهم هذه النعم. والعقوبات الإلهية ليس لها جانب انتقام - لأنه تعالى غني عن ذلك وانتقامه بمعنى نتيجة الانتقام أي العقاب - بل في كثير من الأحيان يراد بالعقوبة الدنيوية: تنبيه الإنسان وتربيته، فلذلك أريد من عقاب بني إسرائيل بالتيه تربيتهم وتعليمهم على الحياة الحرّة بعيداً عن العبودية، ليصلحوا لقيادة الأمم حين دخولهم الأرض المقدسة، وخاصة أن مدة التيه أربعون سنة، وهي تكفي لتبدل جيلين مما يسهل قيامهم بالمهمة المنوطة بهم.

الثاني: ﴿الْقَمَامَ﴾ السحاب وقيل هو السحاب الأبيض الذي لا يمنع نور الشمس ولكنه يمنع حرارته.

وفي التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام «يصيبكم حرّ الشمس وبرد القمر»^(١) ولعل المراد ببرد القمر - بعد وضوح أنه ليس للقمر برد - هو البرد في الليل، لأن الصحارى من طبيعتها الحرارة في النهار والبرد في الليل، والسحاب كما يمنع حرارة النهار كذلك يمنع برودة الليل، ولما نسب الحرّ إلى الشمس ناسب نسبة البرد إلى القمر مجازاً من باب المقابلة.

الثالث: ﴿الْمَنَّ﴾ روي عن رسول الله ﷺ أن «من المَنَّ الكمأة»^(٢)

(١) البرهان ج ١، ص ٣٩٧.

(٢) البرهان ج ١، ص ٣٩٨.

ويمكن أن يقال: إن الماء الذي ينزل من السماء يوجب حدوث الكمأة،
كما أنه سبب الماء الحلو على أوراق الأشجار وكذلك سبب المادة
الصمغية الحلوة التي تخرج من الأشجار، فيجوز أن تراد كل تلك
المعاني من ﴿الْمَنَّ﴾ والله العالم.

ب — المسكن

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

٥٨ - ﴿و﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس أو
أريحا وذلك بعد بقائكم في التيه لمدة أربعين سنة ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي أكلاً واسعاً مرفهاً، ﴿و﴾ أضيفوا المعنويات إلى
الماديات بأن ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ خاضعين لله تعالى
﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي اللهم حط ذنوبنا، وحينئذ ﴿نَنْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾
ذنوبكم ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ إضافة إلى غفران خطاياهم نزيدهم نعماً
أخرى، والمحسنون هم الذين لم يرتكبوا الخطايا الأخرى.

٥٩ - لكن كثيراً منهم عتوا عن أمر ربهم ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فبدل أن يقولوا «حطة» قالوا كلمات أخرى
فيها استهزاء ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾ عذاباً، قيل: الطاعون ﴿مِّنْ

أَسْمَاءَ ﴿جَهة العلو لأن الهواء والغبار ينقلان المرض ﴿يَمَا كَانُوا
يَقْسُونَ﴾ أي بسبب خروجهم عن طاعة الله تعالى.



بحوث:

الأول: لما بقي بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة - قيل: توفي فيها موسى وهارون عليهما السلام - وانتهت مدة العقوبة، أذن الله تعالى لهم بالخروج عن التيه ودخول فلسطين، ولما وصلوا إلى بيت المقدس أو أريحا أمروا بدخولها شاكرين لأنعم الله تعالى، طالبين منه العفو والصفح عن ذنوبهم السابقة، لكن كثيراً منهم عتوا عن أمر ربهم، فاستهزؤوا بدل طلب العفو، فأنزله الله على الظالمين منهم المستهزئين بأمره تعالى عذاباً من السماء - قيل هو الطاعون - نتيجة لظلمهم وخروجهم عن طاعته وعدم اتعاظهم بالعقوبات السالفة.

الثاني: ﴿فَكَلُّوا يَنْهَا﴾ قيل المقصود هو دخولهم القرية بالقهر والغلبة، فيكون ما فيها مغنماً لهم، فيتصرفون في الغنائم كما يشاؤون من دون عناء وتعب، ولكن الأنسب لقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا﴾، هو الدخول العادي من دون قتال، كدخول سائر الناس، وإنما كان الأكل رغداً لأن طعامهم في التيه كان المنّ والسلوى بشكل عام في حين أن المدينة تحتوي على مختلف ألوان الأطعمة مما يستلذ ويطاب.

الثالث: ﴿حَيْثُ شَقِمَ﴾ لعل ذكر هذه الجملة لأجل أن حرية الإنسان في اختيار مكان طعامه يوجب زيادة اللذة منه، لأن الحالات النفسية للإنسان

تؤثر في تلذذه، فقد يعجبه مكان دون مكان آخر، مضافاً إلى الإحساس بحرية الاختيار مما يوجب اطمئنان النفس.

الرابع: ﴿سُجَّدًا﴾ قيل المراد به دخولهم خاضعين لله تعالى، لأن أصل معنى السجود: الخضوع، ولعل الأقرب هو السجود بالمعنى المصطلح من وضع الجبهة على الأرض شكراً لله تعالى على نعمة انتهاء التيه والوصول إلى الهدف المنشود بعد أربعين سنة، ولعل طلب السجود منهم حين دخولهم من الباب لأجل أن الإنسان بعد تحمل المشاق والصعوبات إذا وصل إلى هدفه المنشود قد ينسى الله عزَّ وجلَّ وتبطره النعمة وتعمي بصره، فطلب منهم استهلال النعمة بالسجود لله عزَّ وجلَّ، ولكن مع ذلك نجد أن بعضهم نسي كل ذلك وأوجبت النعمة بطره إلى حد الاستهزاء بأمر الله تعالى.

الخامس: ﴿حِطَّةٌ﴾ أي قولوا: اللهم حط ذنوبنا حطة، قيل: حطة في الأصل مفعول مطلق، فلما حذف الفعل لدلالة الكلام عليه، رفع حطة لكي يدل على الثبوت والاستمرار، أي يكون طلب غفران الذنوب مستمراً في جميع الحالات، وقيل غير ذلك.

السادس: ﴿تَنَفَّرَ لَكُمْ﴾ من لطف الله تعالى على العباد أن فتح باب التوبة من الخطايا وسهَّلها، بحيث إن كلاماً واحداً يوجب غفران الذنوب، بشرط الندم على الفعل، بأن يتطابق اللسان مع القلب، وأداء الحقوق، وفتح باب التوبة هو لمنع المذنب عن الانغماس في ذنبه، إذ إن اليأس يوجب تمادي الإنسان في غيئه، في حين أن فتح باب التوبة يسبب رجوع الكثيرين.

السابع: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ من أسباب البلايا السماوية هو خروج

الإنسان عن طاعة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(١)، فإنزال الطاعون - على ما قيل في معنى الرجز - كان بسبب خروجهم عن طاعته عز وجل واستهزائهم بأمره تعالى.

ولا بأس بالإشارة إلى أن طاعة الله عز وجل تشمل تنفيذ أوامره ونواهيه في مختلف الأمور، ومنها ما يتعلق بالنظافة، فإن القذارة والتلوث مما لا يريده الله عز وجل، فلذا يحب الله المتطهرين، وشرع الاجتناب عن النجاسات - وأكثرها قذارات - كما شرع الغسل والوضوء وغيرهما، وغير ذلك، وإن التزام الإنسان بهذه الأوامر والنواهي، يوجب نظافة البيئة والبدن، ويقلل الأمراض وخاصة المعدية منها.

الثامن: الباب الذي كانت تحط عنده ذنوب بني إسرائيل كان باب القرية، وأما في أمة محمد ﷺ فباب حطة هم أهل البيت ﷺ كما روي عن الباقر عليه السلام أنه قال: «نحن باب حطتكم»^(٢).

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.

(٢) البرهان، ج ١، ص ٤٠٦.

ج - المشرب

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٦٠ - ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما أصابهم العطش في التيه، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ حتى نسقيهم بالإعجاز ليكون أربط على قلوبهم وأبلغ للحنة، فلما ضرب موسى ﷺ الحجر ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين خاصة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من الأسباط ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾ أي مكان شربهم، ويقال لهم: ﴿كَلُوا﴾ من المن والسلوى ﴿وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثو والعثي: التمادي في الغي وتجاوز الحد في الفساد.



بحثان:

الأول: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ تعدد العيون قد يكون لأجل كثرتهم حيث

لا تكفيهم عين واحدة وحفظاً للنظم وعدم التدافع تمّ تخصيص كل عين بسبط من الأسباط، ويحتمل أن يكون لأجل العداوة بين تلكم الأسباط فلم يكن داعٍ لحشرهم في عين واحدة، قد يختلفون عليها فتبرز العداوة أو تشتد، والحكيم كلما تمكن من إزالة مفجرات العداوة فعل ذلك، والإسلام كما يأمر الناس بالابتعاد عن العداوة والبغضاء كذلك يزيل أسباب تشديد العداوة أو أسباب ظهورها.

الثاني: ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الإنسان حينما يُغمر بالنعمة قد ينسى النصب الذي عاشه قبلها، وكذلك قد ينسى الله تعالى ويصاب بالبطر، فيحتاج إلى من يذكره بأن هذه النعمة من الله تعالى، وأنه يجب عليه أن يخضع ويتواضع له تعالى، فلا يتمادى في غيه ويترك الفساد والإفساد.

فصل

أسباب انحراف بني إسرائيل

(فصل)

أسباب انحراف بني إسرائيل^(١)

المطلب الأول: الكفران بالنعم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَضِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ قَادُغُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقَشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهِيطُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

٦١ - لما ذكر الله تعالى نعمه على بني إسرائيل وذكرهم بها، ذكر سبحانه كفرانهم بالنعم، والعقاب الذي نالهم جرأ ذلك ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ حال كونكم في التيهه ﴿يَمْوِسُ لَنْ نَضِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ المن والسلوى، فإنه يتكرر كل يوم لذا عبروا عنه بالطعام الواحد، ﴿قَادُغُ لَنَا﴾ أي لأجلنا ﴿رَبِّكَ يُخْرِجُ﴾ أي يظهر ﴿لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ النباتات التي لا ساق لها، ومرادهم أطيب البقول، ﴿وَقَشَائِهَا﴾

(١) يبدأ هذا الفصل من الآية ٦١ وينتهي بالآية ١١٠، في هذا الفصل اثنا عشر مطلباً تجمع الأسباب وإن كان بعضها قد مر.

الخيار، ﴿وَفُؤْمَهَا﴾ الحنطة وقيل الثوم، ﴿وَعَدَسَهَا وَبَصِلَهَا﴾ فإنهم كانوا مزارعين وفلاحين فحَنُّوا إلى ما كانوا عليه، ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي تجعلون الأدنى عوضاً عن الأفضل وهو المن والسلوى، الذي هو أسهل وألذ وأكثر فائدة إضافة إلى أنه اختيار الله تعالى.

ثم قال لهم موسى عليه السلام: **إِنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دَعَاءَكُمْ ﴿١٠﴾ أَقْبِلُوا بِمَضْرَىٰ**
أَيَّ أَنْزَلُوا مِنْ التِّيهِ إِلَىٰ مَدِينَةٍ فِي أطرافه ﴿١١﴾ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴿١٢﴾ من البقل
والقثاء وغيره.

﴿و﴾ لأنهم لم يرضوا ما اختاره الله لهم فعاقبهم الله تعالى بأن ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ﴾ فهم أذلاء أمام الناس، ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي الفقر فإنهم فقراء القلب والنفس، حتى الثري منهم مع ثروته فإنه لا تفارقه المسكنة ﴿وَبَاءُ﴾ رجعوا ﴿يَغْضِبُ مِنْ اللَّهِ﴾ فكان رجوعهم من النعمة إلى النقمة.

و﴿ذَلِكَ﴾ الذي أصيبوا به من الذلة والمسكنة، والغضب من الله سبب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بغير جرم، ﴿و﴾ سبب ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر وقتل الأنبياء ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ أي خالفوا أوامر الله ﴿وَكَانُوا يَمْتَدُون﴾ أي يتجاوزون حدود الله إلى نواحيه، فأدى ترك الأوامر وفعل النواهي إلى التجرؤ على الكفر والقتل، مما أورثهم الذلة والمسكنة وغضب الله تعالى.



بحوث:

الأول: ﴿طَعَامٍ وَحِدٍ﴾ المقصود به المنّ والسلوى المذكوران في

الآيات السابقة، وإنما عبر عنه بالواحد لأنه كان يتكرر كل يوم، وما يتكرر حتى لو كان متعددًا يقال له واحد، لأنه لا تبديل ولا يختلف. أو أن المراد نوع واحد من الطعام حتى وإن كان ذا لونين.

الثاني: ﴿أَذْعُ لَنَا رَبَّنَا﴾ ولم يقولوا ربنا، ولعلّ هذا أول مقدمات انحرافهم وطغيانهم على الله وعدم الاعتراف بربوبيته، أو لأنهم كانوا يعلمون أنه مستجاب الدعوة وأن الله يستجيب له، أو لعلمهم بأن موسى من تربية الله تعالى لالتزامه بأوامره ونواهيه دونهم.

الثالث: ﴿أَسْتَبْذِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ لعل أفضلية المنّ والسلوى على ما طلبوه من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل لجهات:

أ - المنّ والسلوى اختيار الله تعالى، ولا يختار الله إلا ما هو الأفضل مما فيه المصلحة، وكان من شقائهم أنهم رجحوا اختيارهم على اختيار الله وذلك يؤدي إلى الشقاء الأبدي كما في طلب ذلك القائل ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

ب - سهولة ما اختاره الله لهم وصعوبة ما اختاروه لأنه يحتاج إلى كد ونصب أو دفع مال.

ج - المنّ والسلوى ألد وأطيب مع عدم وجود أي ضرر فيه، لأنهما طعام سماوي لا ينشأ منه ضرر أو مرض، عكس سائر الأطعمة التي قد توجب المرض أو لا تلائم جسم الإنسان.

(١) سورة الانفال، الآية: ٣٢.

هـ - المنّ والسلوى لهما قيمة غذائية وتؤمنان كل ما يحتاجه جسم الإنسان - بسبب غيبي -، عكس سائر الأطعمة التي قد تؤمن جانباً واحداً، ولذا احتاج الإنسان إلى مختلف الأطعمة التي تُلبّي احتياج جسمه .

الرابع: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ الهبوط قد يكون مادياً بمعنى أن التيه كان مرتفعاً والمصر كان في منخفض، أو معنوياً أي النزول من الدرجة العالية التي كان بموجبها يرزقهم الله المنّ والسلوى إلى المنزلة الدنيا، فتكون نسبة الهبوط إلى المصر من باب أن هبوطهم من الدرجات العليا كان في المصر فنسب إليه مجازاً.

الخامس: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي أحاطت بهم كما تحيط الخيمة على من فيها فيقال ضربت عليه قبة، أو أن الذلة والمسكنة لصقت بهم كما يقال ضرب الطين بالجدار أي ألصق به، والمعنى واحد.

وهذا من معاجز القرآن، فاليهود في طول تاريخهم أذلاء في نفوسهم وأمام الناس، وحتى في العصر الحاضر حيث احتلوا فلسطين وشكّلوا دولتهم اللقيطة، فإنهم يعيشون الذل والاستجداء من الدول الكبرى والتذلل والتزلف لها، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَجَبَلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾^(١).

وكذلك لا تفارق نفسياتهم المسكنة، فإنهم رغم ثروتهم دائمو التشكي والجشع وعدم التنعم بالثروات مخافة الفقر، وكذلك دائمو التصاغر والتفاقر مخافة الجزية أو سائر الضرائب، وعن رسول الله ﷺ: «الغنى غنى النفس»^(٢).

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٢.

(٢) مجمع البيان ج ١، ص ١٣٩.

السادس: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي رجعوا من النعمة إلى النعمة أو أنهم رجعوا من عند موسى إلى النعمة بسلبهم النعمة.

وغضب الله بمعنى إنزال العقوبة على المغضوب عليهم، لأن غضبه ليس كغضب البشر، وذلك لأن غضب البشر هو انفعال خاص بسبب حدوث ما يكرهه ويترتب عليه بعض التغيرات الكيمياوية في جسم الإنسان، ويظهر عادة على صفحات الوجه، ولأن الله تعالى ليس محلاً للحوادث - فذاته سبحانه لا تغيير فيها ولا تبديل -، كان معنى غضبه هو ترتيب آثار الغضب أي العقوبة - دنيوية كانت أم أخروية - فيكون الغضب من صفات الفعل لا من صفات الذات.

السابع: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ «ذلك» إما إشارة إلى الغضب أي سببه الكفر والقتل، أو إشارة إلى كل ما سبق من الذلة والمسكنة والغضب فهي كانت نتيجة الكفر والقتل.

الثامن: ﴿رَبِّقْتُلُوكَ الْتَيْبِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قيل: «بغير الحق» توضيحي، لأنهم أيضاً كانوا يعتقدون بأن قتلهم الأنبياء كان من غير جرم ولكن مع ذلك كانوا يقتلونهم، لأنهم لم يكونوا يطيقون إرشاد الأنبياء وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ونصحهم.

وهذا القتل قد يكون بالمباشرة، وقد يكون بالتسبيب.

وفي الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام: «والله ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسيا فهم، ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها، فأخذوا عليها فقتلوا، فصار قتلاً واعتداءً ومعصية»^(١).

(١) البرهان ج ١، ص ٤٠٨ نقلاً عن الكافي ج ٢، ص ٢٧٥.

التاسع: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ «ذلك» إما تأكيد لـ «ذلك» الأولى، فيكون ذكر سبب ثان بعد السبب الأول، أو ذكر العام بعد الخاص وقدم الخاص وهو القتل والكفر لأهميته.

أو أنه بيان سبب السبب أي إن العصيان والاعتداء كانا سبب الكفر والقتل، والكفر والقتل كانا سبب غضب الله عليهم وضربهم بالذلة والمسكنة.

ولعل الفرق بين العصيان والاعتداء - هنا -، هو أن العصيان مخالفة أوامر الله تعالى، والاعتداء ارتكاب ما نهى عنه بتجاوز حدود الله وتعيديها إلى المحرمات.

وفي البرهان عن رسول الله ﷺ:

«ألا فلا تفعلوا كما فعلت بنو إسرائيل، ولا تُسخطوا الله تعالى، ولا تقترحوا على الله تعالى، وإذا ابتلي أحدكم في رزقه أو معيشته بما لا يحب فلا يحدس شيئاً يسأله لعل في ذلك حتفه وهلاكه، ولكن ليقل:

«اللهم بجاء محمد وآله الطيبين إن كان ما كرهته من أمري خيراً لي وأفضل في ديني فصبرني عليه وقوّني على احتماله ونشطني على النهوض بثقل أعبائه، وإن كان خلاف ذلك خيراً فجدّ عليّ به ورضني بقضائك على كل حال، فلك الحمد».

فإنك إذا قلت ذلك قدّر الله ويسر لك ما هو خير»^(١).

(١) البرهان ج ١، ص ٤٠٤ (عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَاتِ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٦٢ - ولما ذكر الله سبحانه ما ابتلى به بنو إسرائيل من المخالفة
وما نالهم من العذاب، بيّن أن من يؤمن ويعمل الصالحات، يُجزى
جزاءً حسناً - سواء كان من بني إسرائيل أو من غيرهم - كما أن من
يخالف يعاقب على عمله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أسلموا
﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود، ﴿وَالصَّٰدِقِينَ﴾ دين خاص لعلهم في
أصلهم أهل كتاب قبل التحريف، ﴿مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ﴾ حقيقة بأن لا يكون
نفاقاً - من هؤلاء أو غيرهم -، ويدخل الإيمان بالنبى والوصى في
الإيمان بالله تعالى ﴿و﴾ آمن بـ ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما سيأتي عليهم في المستقبل في الدنيا،
وفي القيامة لأنهم آمنون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لما أصابهم من المكاره
لأنهم يعلمون أن الله يعوضهم عنها.



بحوث:

الأول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لعل الغرض من هذه الآية بيان أن مجرد اتباع ملة - من غير اعتقاد ولا عمل - مما لا ينفع، ولا يترتب عليه الأثر المرجو من الأجر والأمن.

بل لا بدّ من الإيمان الحقيقي والعمل الصالح.

فلذا لا ينفع إسلام المنافقين، مع أنهم في الظاهر يُصنّفون ضمن المؤمنين بالإسلام، بل هم في الدرك الأسفل من النار.

وكذلك لا ينفع بني إسرائيل مجرد نسبتهم إلى موسى ﷺ، لأنه ليس بأمانيتهم فإن من يعمل سوءاً يجز به.

وهكذا سائر الملل والنحل.

الثاني: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ عن علي بن إبراهيم (رضوان الله عليه) إنهم قوم لا مجوس ولا يهود ولا نصارى ولا مسلمون وهم قوم يعبدون الكواكب والنجوم^(١).

ويحتمل أنهم أهل كتاب في الأصل قبل أن ينال دينهم التحريف. أو أنهم انشقاق عن أهل الكتاب.

وهل من يتسمون بالصابئة الآن في جنوب العراق هم نفس هؤلاء الذين عناهم الله تعالى في القرآن الكريم؟

فيه غموض، وخاصة أنه ينقل أن بعض من في شمال العراق منهم ينفي صلتهم بهم، والله أعلم بحقيقة الحال.

(١) البرهان ٤٠٨/١ عن تفسير القمي.

الثالث: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ لم يقل سبحانه من آمن منهم، بل عمم الأمر وذلك لأن أي إنسان آمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً فإنه ينال جزاءه الحسن من الأجر والأمن، ولا يختص ذلك بمن أظهر الإسلام أو كان يهودياً أو نصرانياً أو صابئياً.

فلذا مع أن المبتدأ - وهو اسم إن - خاص - المسلم واليهودي والنصراني والصابئي -، ولكن الخبر عام، وهو جملة من آمن بالله... الخ.

وإنما كان المبتدأ خاصاً لأن الكلام كان حول بني إسرائيل قوم موسى ﷺ وذكر ما نالوه من العقاب بسبب عصيانهم واعتدائهم، ولشدة اختلاط هذه الملل أي المسلمين والنصارى والصابئة مع اليهود، حسن ذكر حكم يشتركون فيه حتى مع كون الحكم عاماً يشمل غيرهم أيضاً.

الرابع: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يدخل ترك المعاصي في عنوان العمل بالصلاحات لأن العامل بالمعاصي لا يكون عاملاً بالصلاحات.

الخامس: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مرّ في بحوث الآية ٣٨ الفرق بين الخوف والحزن، فإن الحزن لمكروه واصل، والخوف لمكروه مرتقب، والمخاوف والأحزان التي يراها المؤمن الصالح في الدنيا هي ليست مخاوف بالنسبة إلى ما يراه الكفار من العذاب والنار.

السادس: يحتمل في الآية أنها تشير إلى من التزم بهذه الشرائع قبل نسخها، فاليهودي في زمن موسى ﷺ قبل نسخ شريعته، والنصراني في زمن عيسى ﷺ قبل نسخها، والصابئي - إن قلنا إن دينهم قبل التحريف دين سماوي - قبل نسخ شريعته، هؤلاء كلهم في الجنة إن كان إيمانهم إيماناً حقيقياً واستتبع العمل الصالح.

أما بعد نسخ هذه الشرائع فلا يعذر أحد في التمسك بها، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾^(١).

السابع: لماذا لم تذكر الآية الإيمان بالأنبياء مع أن الإيمان بهم من أصول الدين، ولولاه كان الشخص كافراً؟

لعل الجواب هو أن الإيمان بأنبيائهم داخل في العنوان أي في ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿هَادُوا﴾... الخ، فلا يكون الإنسان مسلماً إلا إذا آمن برسول الله محمد ﷺ، ولا يكون الرجل من الذين هادوا إلا إذا كان مؤمناً بموسى عليه السلام، وهكذا، فدخل الإيمان بهم في المبتدأ (اسم إن).

الثامن: في مجمع البيان وفي هذه الآية دلالة على أن الإيمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب، لأنه تعالى قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٢).

ولعل ذلك درجة من درجات الإيمان، لأن الإيمان في القرآن يطلق على درجات مختلفة، فأقلها هو إظهار الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾^(٣) وأعلىها هو الاعتقاد مع العمل، كما في قول الإمام الرضا عليه السلام: «الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان»^(٤)، وما في هذه الآية هو الدرجة الوسطى أي الاعتقاد الحقيقي، وأما العمل فهو مذكور بعد هذا الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٢) مجمع البيان ٢٤٤/١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٤) الخصال: ص ١٨٦، ح ٣٤١، وعيون الأخبار: ج ١، ص ٣٩.

المطلب الثاني
ومن أسباب انحراف بني إسرائيل
(مخالفة الميثاق)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

٦٣ - ﴿و﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الشديد
وذلك بالفطرة أو الدلائل الواضحة، أو مباشرة بواسطة موسى ﷺ ،
﴿و﴾ كان ذلك لما رفضوا العمل بالتوراة لصعوبة وجدوها،
فهددناكم بأن ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي الجبل اقتلعه الله ورفع
فوقهم وهددهم بأنهم إن لم يقبلوا بما في التوراة ألقى بالجبل عليهم،
فلما قبلتم العهد والميثاق قلنا لكم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أي
بجدٍّ وعزم، وقوة بالقلب والبدن ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بأن تعملوا به ولا
تتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تحفظون أنفسكم من عذاب الله، أو من
المخالفة الموجبة للعقاب.

٦٤ - ولكنكم لم تفوا بالعهد ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن
العمل بالأحكام ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الميثاق، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن

أمهلکم لكي تتوبوا ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بأن قبل توبتکم ﴿لَکُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في الدنيا قبل الآخرة.



بحوث

الأول: ﴿مِثْقَاكُمْ﴾ ظاهر السياق أن الميثاق الذي أخذ منهم كان مباشرة، وذلك بواسطة موسى عليه السلام بأن أخذ منهم العهد الشديد بالعمل بالتوراة، فعاهدوا الله على ذلك.

ويحتمل - إضافة إلى الميثاق المباشر - الميثاق عبر ما أودعه الله في فطرتهم وفطرة غيرهم، وما أظهره الله لهم ولغيرهم من البراهين الساطعة والآيات الواضحة.

الثاني: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ﴾ لما جاءهم موسى عليه السلام بالألواح، فرأوا ما فيه من الأحكام الشاقة امتنعوا عن قبولها، فقلع الله الجبل أو قطعة منه وجعله فوقهم، وهددهم بأنهم إن لم يقبلوا الدين، أطبقه عليهم فيهلكوا، فلما رأوا ذلك قبلوا بالميثاق.

وهنا سؤال وهو: إنه لا إكراه في الدين، فكيف أخذ الله تعالى منهم الميثاق تحت وطء التهديد؟ ولماذا كان هذا الميثاق ملزماً لهم مع أنهم أكرهوا عليه؟

ولعل الجواب: أنهم لما رفضوا العمل بما في الألواح، استحقوا من الله العذاب والهلاك، فلما اقترب عليهم العذاب - بإطباق الجبل عليهم - أدركتهم رحمة الله تعالى، فكشف عنهم العذاب شرط أخذ

الميثاق، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾، وليس ذلك إكراهاً، كما يتعارف الآن في المحاكم من تخفيف أو إلغاء عقوبة المجرم، شرط تعهده والتزامه ببعض الأمور، فإذا وفى بالعهد لا يعاقب، وإن نقض العهد جرت عليه العقوبة، بل قد تشدد عليه، ومثل ذلك الأحكام التعليقية في المحاكم.

الثالث: ﴿الطُّور﴾ والطور هو كل جبل، فإن كان عليه شجر مثمر سُمي طور سنين، أو طور سيناء، كما روى ذلك الصدوق رضوان الله عليه في علل الشرائع عن ابن عباس^(١).

ثم غلبت التسمية حتى انصرف (الطور) و(طور سيناء) و(طور سنين) إلى الجبل المعهود الذي عليه كان يناجي موسى ﷺ الله تعالى.

ويمكن أن يكون الطور في هذه الآية جبل من الجبال - لا الجبل المعهود - كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَنفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾^(٢).

الرابع: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ سئل الصادق ﷺ «عن قول الله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أقوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيهما جميعاً»^(٣).

ولعل الوجه أن قوة القلب توجب قوة العمل أيضاً، فإن المحرك الأساسي للإنسان فكره وتصوره، فإن كان الفكر قوياً أوجب ذلك الاستقامة وتحمل البدن، وضعف الفكر يؤدي إلى ضعف العمل أيضاً.

الخامس: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي ما فيه من الشواب وفي تركه من العقاب.

(١) البرهان ٤٠٩/١ (عن العلل).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٣) البرهان ٤٠٩/١ - ٤١٠ (عن العياشي، ومحاسن البرقي).

ففي تفسير العياشي: واذكروا ما في تركه من العقوبة^(١) وفي التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: اذكروا جزيل ثوابنا على قيامكم به وشديد عقابنا على إباطكم له^(٢).

السادس: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كلما ورد الترجي عن الله في القرآن، فلا بد من حمله على غير المعنى المتعارف في الترجي.

وذلك لأن الترجي يستعمل فيما لا علم بالعاقبة، فيرجو المتكلم أمراً متوقع الحدوث من دون تأكيد لوقوعه، وبما أن الله عالم بكل شيء وبعواقب الأمور فلذا يلزم صرف كلمة لعل وأشباهاها عن معناها المتعارف - وهو رجاء المتكلم - إلى رجاء المخاطب، أو محبوبة ذلك الأمر مجرداً عن رجائه.

وفي هذه الآية الكريمة تحمل (لعل): إما على رجاء المخاطبين من بني إسرائيل بأن يرجوا الالتقاء بسبب الأخذ والذكر، فيكون لعل بمعناها الحقيقي من الترجي، أو لبيان أن الله يحب الالتقاء، فتسلخ لعل من معناها الحقيقي إلى المعنى المجازي.

السابع: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحَّمَهُ﴾ لعل الفرق بين الفضل والرحمة - هنا - هو أن التوبة عمل صالح، وكل عمل صالح يحتاج إلى توفيق من الله تعالى، بأن يهيئ الأسباب الموجبة لذلك العمل الصالح، فلذا صح نسبة كل خير إلى الله تعالى لأنه هياً الأسباب الموصلة إلى الخير.

وبما أنه كان يمكن لله تعالى أن لا يقبل التوبة - كما لا يقبلها حين الاحتضار أو حين نزول العذاب - فلذا قبوله لتوبتهم كان برحمة منه.

(١) البرهان ١/٤١٠.

(٢) البرهان ١/٤١٢.

فلولا ذلك الفضل بأن وفقهم للتوبة، وتلك الرحمة بقبوله توبتهم لكانوا من الخاسرين.

وبما أن تهيئة أو عدم تهيئة الأسباب للتوبة، لا تسلب العصاة اختيارهم فهم على كل حال مختارون، فلا جبر عليهم.

وبما أن الله سبحانه حكيم ولا يعمل أمراً اعتباطاً، فإن توفيتهم للتوبة أو لغيرها لم يكن اعتباطاً، بل لعله كان مكافأة لهم على بعض أعمال الخير التي فعلوها.

وهكذا يقال في هداية الله للبعض وفي إضلاله للبعض الآخر، فإن الهداية جزاء لبعض أعمالهم الحسنة، كما أن الإضلال هو عقاب لبعض سيئاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) وقد مرّ بعض البحث في ذلك.

الثامن: ﴿الْخَسِرِينَ﴾ الخسران هو فقد رأس المال أو بعضه. وبما أن رأس مال الإنسان هو عمره وقواه، فإذا صرفها في طاعة الله فإنه يربح بأن يُعوّض الجنة إضافة إلى الربح الدنيوي، ولكن إن صرفها في معصية الله فإنه يخسر عمره وقواه ويكتسب النار والعياذ بالله مضافاً إلى العقوبات الدنيوية، والعاصي بما أنه يستحق العقوبة فإنه خاسر - لا محالة - لولا أن تدركه رحمة الله بقبول توبته.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٤.

المطلب الثالث من أسباب انحراف بني إسرائيل (التحايل على الأحكام)

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥) ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

٦٥ - ومن الموبقات التي حدثت في بني إسرائيل كان تحايلهم على الأحكام الشرعية ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ أي عرفتكم ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ﴾ أي جاوزوا حدود الله إلى نواهيه ﴿فِي﴾ يوم ﴿السَّبْتِ﴾ حيث حُرِّمَ عليهم الصيد فيه، وإمعاناً في الامتحان كانت الأسماك تظهر في السبت وتختفي في سائر الأيام، فاحتالوا على التحريم، بأن حفروا أحواض وأوصلوها بالبحر بواسطة سواقي، فلما كانت تكثر الأسماك في السبت وتدخل الأحواض عبر السواقي، كانوا يغلقون منافذها، ثم يأتون في يوم الأحد ويصطادون الأسماك المحبوسة في الأحواض من دون أي عناء، ﴿ف﴾ عقوبة لهم لتعديهم حدود الله ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾ أي جعلناهم - وبسرعة - ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي مبعدين عن كل خير، مطرودين عن رحمة الله تعالى.

٦٦ - ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي هذه المسخة ﴿نَكَالًا﴾ عقوبة ﴿لِّمَا بَيْنَ



100

ومسحه إياهم، لا أن هناك أمراً، ومعناه: وجعلناهم قردة، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنثِيَاً طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) ولم يكن هنالك قول، وإنما أخبر عن تسهيل الفعل عليه وتكوينه بلا مشقة^(٢).

ويمكن أن يكون القول على معناه الحقيقي، بخلق ألفاظ ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، لأن الله مسبب الأسباب، فيمكن أن يجعل في هذه الألفاظ المخلوقة سبباً لمسحهم، كما أن الله عاقب أقواماً بأن جعل الماء سبباً لموتهم في الطوفان، أو جعل مطر الأحجار سبباً لهلاكهم.

الثالث: ﴿نَكَلًا﴾ النكل في اللغة المنع، ومنه النكول في باب القضاء أي الامتناع عن الحلف، وهذه العقوبة الشديدة بالمسخ ثم الهلاك، فيها ردع وزجر، أي منع الآخرين عن ارتكاب المعاصي، لأن من شاهد عقوبة العاصي يمتنع عادة عن أن يرتكب مثل ما ارتكبه.

وقد يفسر النكال بالعبرة، لأن من يعتبر بما فعله الآخر، فإنما يمنع نفسه عن اتباعه.

الرابع: ﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلت الأمة الممسوخة عبرة ورادعاً للأمم التي كانت تعاصرها، وكذلك جعلت عبرة ورادعاً للأمم اللاحقة التي يصلها خبر المسخ.

ويمكن أن يكون المراد: أن جعلت هذه المسخة عقوبة لأصحاب السبت، لأجل ذنوبهم التي كانت بين يدي العقوبة أي الصيد، والذنوب التي كانت خلف العقوبة، أي سائر المعاصي التي ارتكبوها قبل الصيد،

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) مجمع البيان: ١/٢٤٨.

ولعل التعبير بـ ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ و﴿خَلْفَهَا﴾ لأجل أن الله تعالى لا يأخذ الإنسان بالمعاصي - عادة - إلا بعد تراكمها وتجمعها، رحمةً للعباد، وفتحاً لباب التوبة لهم، فعلى هذا يكون أصحاب السبت قد تجمعت عليهم معاصٍ كثيرة إلى أن جاءت معصية الصيد في يوم السبت، فتراكم المعاصي سبب أن يأخذهم الله بجميع ذنوبهم السابقة واللاحقة، وهذا المعنى الثاني لعله أنسب لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إذ على المعنى الأول تكون هذه الجملة تكراراً للنكال، أو من ذكر الخاص بعد العام، لكن على المعنى الثاني يكون النكال: لأصحاب السبت، والموعظة: للمتقين الذين رأوهم أو سمعوا أخبارهم (لأن غير المتقين لم يتعظوا بهم).

المطلب الرابع ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (اللجاج والتمرد على الأحكام)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذَهَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

٦٧ - ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ﴾ قُتِلَ رجل من بني إسرائيل، ولم يعرف قاتله، فأراد الله أن يبين لهم قدرته: بأن يُحييه بضرب ذنب البقرة الميتة على ذلك الميت ليخبر عن قاتله ف﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ آية بقرة كانت لا على التعيين، لكنهم لتمردهم قابلوا أمر الله بكلام خشن ف﴿قَالُوا أَنَتَّخِذَهَا هُزُؤًا﴾ فأَي ربط بين معرفة القاتل وبين ذبح بقرة؟ ف﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ وألتجئ إليه من ﴿أَنْ﴾

أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٥﴾ قليلى العقل، لأن الاستهزاء بالغير فى هكذا أمور من شأن الجاهل.

٦٨ - ﴿قَالُوا أَذُعُ لَنَا﴾ أى لأجلنا ﴿رَبِّكَ﴾ ولم يقولوا ربنا وذلك زيادة فى تمردهم ﴿يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ﴾ أى كم مضى من عمرها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ أى ليست كبيرة هرمة ﴿وَلَا يَكُرُّ﴾ أى ليست صغيرة ﴿عَوَانٌ﴾ متوسطة ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أى بين الكبيرة والصغيرة، ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ولا تؤخروا امتثال أمر الله بالأسئلة التافهة.

٦٩ - ﴿قَالُوا أَذُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أى شديدة الصفرة، صافية لا تميل إلى السواد ولا إلى البياض ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ لأن لونها جميل زاه يجلو القلوب.

٧٠ - ﴿قَالُوا أَذُعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ﴾ صفاتها التى تسبب حصر البقرة فى واحدة معلومة وذلك ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ كثير، ولا ندري أية بقرة أريدت منا فلذا ﴿تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المحددة، فلما قالوا إن شاء الله يسر الله الأمر عليهم بعد أن صعبه بسبب تمردهم.

٧١ - ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ﴾ الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أى ليست مما تعمل فى الحرث فيذلها العمل، لأن كل مُكْرَه ذليل، فهى لا ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ بتقليب التراب بواسطة المحراث، ﴿وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ﴾ الأرض المزروعة، ﴿مُسْلَمَةً﴾ من العيوب ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾

أي ليس فيها لون يخالف لونها، بل كلّها صفراء من دون أن يخالطه لون آخر.

فلما اجتمعت تلك الصفات في بقرة معينة كانوا يعرفونها ﴿قَالُوا أَلَكُنْ جِثَّةً بِالْحَقِّ﴾ أي الأمر الواضح بعد الإجمال ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب غلاء سعرها، وقيل كان ثمنها ملء جلد ثور ذهباً، وعن الرضا عليه السلام: «ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم»^(١).



بحوث

الأول: لعل سبب تمرد ولجاج بني إسرائيل هو ما قيل: من طول مدة عبوديتهم لفرعون، فكانوا يُذلّونهم بأصناف الإذلال، فلما طال عليهم ذلك ومضى عليه أجيال متعاقبة، تطبعوا بطابع الذل، وصغار النفس، واللجاج والتمرد، وصارت لهم عقدة نفسيّة من الأمر والنهي، وكل من كان شأنه ذلك إذا وصل فجأة إلى النعيم والحرية المطلقة فإنه تتوق نفسه إلى ما تطبع عليه من اللجاج والتمرد.

وقد بدت هذه السجيّة من أول لحظة افتكّوا من العبودية، حينما عبروا البحر، فطالبوا بإله كما لعباد الأوثان إله. واستمر بهم الأمر رغم مشاهدتهم للآيات الباهرات ورغم العذاب الإلهي لهم كل مرة.

الثاني: وردت في الروايات قصة صاحب البقرة:

(١) البرهان ٤٢٦/١ عن العيون وتفسير العياشي.

فعن الإمام الرضا عليه السلام: «إن فتى من بني إسرائيل كان باراً بأبيه، وإنه اشترى بيعاً، فجاء إلى أبيه والأقاليد [أي المفاتيح] لخزانة الأموال أو البضائع تحت رأسه، ففكره أن يوقفه، فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه، فأخبره، فقال له أحسنت، خذ هذه البقرة فهي لك، عوضاً لما فاتك، قال: فقال له رسول الله موسى عليه السلام: انظر إلى البر ما بلغ بأهله»^(١).

وأما القتل فورد في الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام:

«إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثم أخذه وطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثم جاء يطلب دمه، فقالوا لموسى عليه السلام: إن سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبرنا من قتله؟ فقال: اثنوني ببقرة... [إلى أن قال] فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها إلا بملء مسك [جلد ثور] ذهباً، فجاءوا إلى موسى، وقالوا له ذلك فقال اشتروها، فاشتروها، وجاءوا بها، فأمر بذبحها، ثم أمر أن يضربوا الميت بذنبها، فلما فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله، إن ابن عمي قتلني، دون من يدعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله»^(٢).

وروي: أن الله تعالى عوضهم ضعف ما دفعوه ثمناً للبقرة، وذلك لأنهم لما امتثلوا أمر الله بدفع ملء جلد ثور ذهباً ثمناً للبقرة، اشتكوا إلى موسى عليه السلام الفقر، فدلهم على كنز فيه ضعف ما دفعوا^(٣).

(١) البرهان ٤٢٧/١ عن العيون، وتفسير العياشي.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تفصيل الرواية في البرهان ٤٢٥/١ عن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام.

ولعل ذلك لكي يكون تشجيعاً لهم ولغيرهم على امتثال أوامر الله تعالى، وخاصة في الأمور المالية، فإن الإنسان لو رأى سرعة التعويض بل ومضاعفة الجزاء فإنه يتشجع على الطاعة.

ويظهر من الروايات الواردة في الواجبات المالية كالزكاة والخمس أو التي تستلزم صرف أموال كالحج، أن الله تعالى يُعوّض الإنسان عما دفعه - وزيادة - في الدنيا سريعاً، قبل الثواب الجزيل في الآخرة.

الثالث: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ الاستعاذة بالله هي الالتجاء إليه من الشرور - نفسية كانت أم خارجية -، وذلك لأن الشر النفسي قد يُردي صاحبه، والشر الخارجي قد يضرّ المبتلى به أو يصرفه عن الخير، فعلى الإنسان أن يقي نفسه من الشرور، بالأسباب الطبيعية المتعارفة، مما دل عليها الشرع أو العقل، وفي الوقت نفسه عليه أن يلتجئ إلى الله ويلوذ به لكي يُعينه على عدم الوقوع في الشر، وعدم التضرر منه، وحيث إن الله تعالى هو مسبب الأسباب فلو عمل الإنسان بأوامره - ومنها التمسك بالعلل والأسباب الطبيعية - فإن الله يعينه لو استعاذ به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّوْءِ إِلَّا مَا رَجَعَهُ رَبِّي﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢) وقال عز وجل: ﴿مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٣).

وإنما استعاذ بالله من الجهل، ولم يقل لهم (إني لست من الجاهلين) لتأكيد أن الأمر بالذبح من الله تعالى لا منه، مضافاً إلى أن توقي الشرور

(١) سورة يوسف، الآية ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٣) سورة الناس، الآية: ٦.

والسفاهات بحاجة إلى توفيق من الله سبحانه، لأن النفس أماراة بالسوء إلا ما رحم ربي .

الرابع: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يدل هذا المقطع من الآية الكريمة على أن الاستهزاء بالناس صفة الجاهلين قليلي العقل .
لأن العاقل لا يستهزئ بالناس، وخاصة من جاء لقضاء حاجة، أو حلّ مشكلة .

لأن الاستهزاء بالغير إما بسبب عقدة نفسية يريد المستهزئ أن يفرغها على الغير، أو بسبب ضعف حجته، فلمّا لم يتمكن من مقارعة الحجة بالحجة وَضَعُفُ أَمَامَ دَلِيلِ الْغَيْرِ وَبَرَهَانِهِ، فإنه يريد جبر النقص بالاستهزاء ونحو ذلك .

أما العاقل فإنه لا تتحكم به بالانفعالات النفسانية، بل هو الذي يتحكم بها، كذلك إنه يقبل الحق ولو كان ذلك الحق ضده، قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾^(١).

والجاهل هنا إما بمعنى غير العالم لأن العالم، الحقيقي يمنع علمه عن السفاهات، أو بمعنى غير العاقل، وهذا المعنى أقرب إلى السياق .

الخامس: ﴿تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ لا يخفى أن للألوان تأثيرات نفسية خاصة، (وكذلك ما يشعره الإنسان بسائر حواسه)، فقد توجب انشراح النفس، أو انقباضها، أو غير ذلك من الآثار النفسية، ولذا فإنه كثيراً ما يُستشار خبراء علم النفس في اختيار الألوان، سواء في البضائع التجارية أو في المستشفيات أو في الأبنية أو في غيرها .

ويظهر من هذه الآية أن اللون الأصفر للبقرة هو سبب دخول السرور

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

في قلب من ينظر إليها ولا أقل من كون اللون الأصفر دخيلاً في دخول السرور في قلوب من ينظر إليها.

حيث إن للألوان تأثيراً، فإنه قد ورد في الأحاديث استحباب أو كراهة اختيار بعض الألوان في الملابس والنعال وغيرهما.

فعن الباقر عليه السلام: من لبس نعلًا صفراء، لم يزل ينظر في سرور ما دامت عليه، لأن الله عز وجل يقول: ﴿صَفْرَاءَ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾^(١).

وعن الصادق عليه السلام لما سئل: فما ألبس من النعال؟ قال: عليك بالصفراء، فإن فيها ثلاث خصال: تجلو البصر، وتشد الذكر، وتفيي الهمة وهي مع ذلك من لباس النبيين^(٢).

قال السيد الوالد (رضوان الله عليه): إما غيبّي، وإما أن من آثاره الفرح والانبساط مما يوجب المضي في قضايا الجنس والاكتساب، فيكون سبباً للمال والولد بل والعلم كما يأتي في رواية أخرى^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: إن علياً عليه السلام كان لا يلبس إلا البياض أكثر ما يلبس^(٤).

وعن الصادق عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: البسوا البياض فإنه أطيب وأطهر^(٥).

(١) الفقه ج ٩٤، ص ٢٧٢ عن فروع الكافي.

(٢) المصدر عن الفروع والخصال.

(٣) الفقه ج ٩٤، ص ٢٧١.

(٤) الفقه ج ٩٤، ص ٢٤٥.

(٥) المصدر، ج ٩٤، ص ٢٤٤.

وقال السيد الوالد (رحمة الله عليه): أما الخضرة فالظاهر أنه لا أساس بأنها كانت شعار العلويين، بل الظاهر أن شعارهم كان البياض، وقد ألمحنا إلى ذلك في كتابنا (الإمام الرضا يقود الحياة)^(١).

السادس: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

روي عن النبي ﷺ «لكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم، وأيم الله لو لم يستثنوا ما بُيِّنَتْ لهم إلى آخر الأبد»^(٢).

أي لما قالوا ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فإن الله تعالى أعانهم بالهداية، فلذا لم يسألوا بعد ذلك سؤالاً آخر بل قالوا: ﴿أَلَتَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾، مع أنه كان في إمكانهم إضافة أسئلة تافهة أخرى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً ۖ إِنَّمَا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ﴾^(٣) لأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، فإذا فعل الإنسان ما عليه، ثم التجأ إلى الله ليهيئ الأسباب الموصلة إلى المقصود، فإنه تعالى يُعِينُهُ، بفضلِهِ وكرمه.

السابع: ﴿قَالُوا أَلَتَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

موسى ﷺ جاء بالحق من الأول، ولو كانوا من الأول يذبحون أية بقرة، لكانوا قد امثلوا الأمر وتحقق الغرض، لكنهم لعنادهم ولاتهامهم موسى ﷺ شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فلما قالوا: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هداهم الله تعالى فلم يشددوا أكثر فتبين لهم الحق.

(١) المصدر، ج ٩٤، ص ٢٦٤.

(٢) مجمع البيان، ٢٥٩/١.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

ويمكن أن يكون الذي ساقهم إلى هذا القول، أنهم لم يجدوا سؤالاً آخر، فاضطروا إلى قبول الكلام، لا عن قناعة بل لانقطاع حجتهم وعدم تمكنهم من الرد، كما يحدث كثيراً في المناظرات والمحاججات، حيث إن أحد المتحاورين يُظهر قبوله لكلام الآخر، لا بسبب قناعته به، بل بسبب انقطاعه عن الجواب، بحيث لم يحر جواباً إلا بالاعتراف بما يقوله محاوره.

ولعل المراد بالحق هنا الأمر الواضح، أي جئت بالأمر الواضح بعد الإجمال، أو ما يستحقه المقام من التفصيل.

الثامن: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

إما بسبب غلاء ثمن البقرة، وقيل إن سبب امتثالهم للأمر واستعدادهم لدفع الثمن الباهظ لم يكن بداع ديني، بل حملهم على ذلك طبعهم اللجوج واتهامهم موسى عليه السلام، فأرادوا اختبار موسى عليه السلام وكلامه، فدفعوا الثمن. وفيه تأمل.

وإما معناه أنهم بأسئلتهم التافهة وتمردهم كادوا لا يمثلون أمر الله تعالى، كما في بعض مخالفاتهم الأخرى، لكن الله هداهم للطاعة بسبب قولهم ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

التاسع: سؤال حول تشديد الحكم عليهم بعد كونه سهلاً؟ فقد يقال كيف نسخ الحكم الأول وهو ذبح أية بقرة، بحكم ثان وهو ذبح بقرة عوان بين الفارض والبكر، ثم نسخ هذا الحكم بحكم ثالث وهو ذبح بقرة عوان صفراء، ثم نسخ هذا بحكم رابع هو ذبح بقرة عوان صفراء غير ذلول إلى آخر الأوصاف؟

مع أنه لا نسخ إلا بعد العمل ولو لمرة واحدة - كما في آيات نجوى الرسول ﷺ^(١).

وليس هذا من قبيل التخصيص، وذلك لأن العام مراد من الأول، لكن لا يتبين المراد إلا بعد ورود الخاص، وهنا كان الحكم في الأول غير مخصص بحيث إنهم لو ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم. وللجواب عن هذا السؤال:

١ - قال السيد المرتضى رحمه الله: إن الحكم من الأول كان خاصاً بهذه البقرة وبجميع الأوصاف المذكورة، وإنما تأخر البيان عن وقت الخطاب ولا إشكال في ذلك^(٢).

لكن يظهر من سياق الآية وكذلك من الروايات - وبعضها صحاح^(٣) أن الأمر في البداية كان مطلقاً، لكنهم لما شددوا شدد الله عليهم.

٢ - إنه يمكن النسخ قبل العمل شرط حضور وقت العمل، كما ارتضى هذا المبنى الشيخ المفيد (رضوان الله عليه)^(٤).

فهنا لما أمروا بذبح بقرة مطلقة حان وقت العمل، فلما لم يذبحوا نسخ الذبح المطلق، بذبح بقرة لها أوصاف خاصة.

٣ - إنه لم يكن نسخ أصلاً، وذلك لأن الأمر كما يرتفع بالإطاعة فمن صلى الفريضة بعد دخول وقتها ارتفع عن ذمته الأمر بها وذلك بالامتثال، كذلك يرتفع الأمر بالمعصية لو لم يبق الموضوع أو الوقت،

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٢ - ١٣.

(٢) مجمع البيان ج ١، ص ٢٦١.

(٣) كالتي رواها الصدوق في العيون بأسناد معتبرة عن الرضا عليه السلام كما في البرهان ج ١، ص ٤٢٦.

(٤) المعالم، المطلب السابع في النسخ، ص ٢١٨ [ط: مؤسسة النشر الإسلامي].

فإذا أمر المولى بإنقاذ الغريق وعصى العبد إلى أن مات غرقاً، فإن الأمر
بالإنقاذ يسقط بسبب العصيان لفوات الموضوع أي موت الغريق.
فهنا كان الأمر الأول ذبح آية بقرة، وهذا الأمر كان موقتاً بوقت
خاص، وقد سقط الأمر بانتهاء وقته، فكان الأمر بذبح بقرة ذات أوصاف
خاصة أمراً جديداً وليس نسخاً.

وهذا الاحتمال أقرب وخاصة عند من لا يرى النسخ أصلاً.

العاشر: لعل التفصيل في هذه الآيات في قضية البقرة وجزئياتها -
إضافة إلى الفوائد الجمة من الأمور المختلفة التي كانت تحيط بالقضية - هو
بيان طبيعتهم اللجوجة، مما يتضح منه سبب مخالفتهم الكثيرة، في مختلف
القضايا الأخرى المذكورة في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، أو
التواريخ، والتفصيل هنا في قصة البقرة يوصل الفكرة بشكل أوضح.
كذلك لعله لبيان أن من يشدد على نفسه يشدد الله عليه، فكان
التفصيل في القضية يوضح مسألة تشديدهم والتشديد عليهم، فتأمل.

وفي الميزان: (وزعموا أن ليس للإنسان أن يقبل قولاً إلا عن دليل،
وهذا حق، لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله
تفصيلاً ولا يكفي في ذلك الإجمال، ومن أجل ذلك طالبوا تفصيل
أوصاف البقرة، لحكمهم أن نوع البقرة ليس فيه خاصة الإحياء، فإن كان
ولا بدّ فهو فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كاملة البيان، ولذلك قالوا
﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ وهذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة،
فشدد الله عليهم^(١).

(١) الميزان ج ١، ص ٢٠١.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

٧٢ - ﴿و﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ قام بالقتل بعضهم ولكن نسب إليهم على عادة العرب من نسبة العمل إلى الجميع وإن كان العامل البعض، ﴿فَادَرَأْتُمْ﴾ أي تدافعتم بأن دفع كل واحد القتل عن نفسه ﴿فِيهَا﴾ في تلك النفس ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ ومظهر ﴿مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي تكتُمونه من أمر القاتل وسبب القتل.

٧٣ - ثم أمرناكم ﴿فَقُلْنَا﴾ لكم ﴿أَضْرِبُوهُ﴾ أي القتل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي بذنبها، فلما فعلوا ذلك أحى الله القتل فقام وأخبر بقاتله، وأراهم الله قدرته، بأنه سبب الحياة وليست الأسباب الظاهرية، وإلا فكيف ضرب ميت بميت يوجب الحياة؟ وكما أحى الله القتل في قصة البقرة ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾، ﴿و﴾ كما رأيتم قدرة الله وعلائمه في القصة كذلك ﴿يُرِيكُمْ﴾ الله ﴿ءَايَاتِهِ﴾ في الآفاق وفي أنفسكم فكل يوم ترون علائم الله تعالى في مختلف الأمور ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي

لكي تستعملوا عقولكم ولا تعطلوها، فإن من لا يستعمل عقله فهو كمن لا عقل له.

٧٤ - لكن أكثركم بقي غافلاً وعطل عقله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فلم تؤثر فيها المواعظ، فجفت عن الخير والرحمة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من آيات الله تعالى، في إحياء القليل وسائر الآيات الأخرى ﴿فَهِيَ﴾ أي قلوبكم ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ﴾ أن تلك القلوب ﴿أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ من الحجارة، وكلمة «أو» هنا لإيهام الأمر على السامع ابتداءً، ليكون أكثر دلالة على الأشدّة لما يفصل في الحجر، وهذا تشبيه المعقول بالمحسوس، وسبب أن قلوبكم أقسى من الحجارة لأن بعض الحجر فيه نفع - قليل أو كثير - وقلوبكم لا يرجى خيرها ﴿وَلِإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ التفجر التفتح بالسعة والكثرة أي لحجر يتفجر ﴿مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تخرج المياه الكثيرة الجارية من جوف بعض الجبال والأحجار، ﴿وَلِإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَّا يَشَقُّ﴾ أي تحصل فيه فطور تنزّ ماء كبعض العيون، ﴿وَلِإِنَّ مِنْهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَّا يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فإن لم يجز منها الماء ولكنها خاشعة، ولها خشية - تكوينية - بأن تسير حسب قوانين الله من الجاذبية وغيرها، ولكنكم تخالفون قوانين الله، فالحجر خير منكم!!، ثم لا تتوهموا أن الله لا علم له بأموركم وأفاعيلكم، بل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو عالم بكم ويجازيكم من غير أن يظلمكم.



بحوث:

الأول: التسلسل الزمني للقضية كان القتل ثم ذبح البقرة لكشف القاتل،

لكن في الآيات الكريمات ذكر عكس التسلسل الزمني، ولعل ذلك لبعض الجهات:

١ - إن الغرض الأصلي من ذكر القصة هو بيان لجاجتهم وتمردهم فلذا قَدِّم ما هو المقصود أولاً وبالذات، وذكر قصة القتل لتمام القصة.

٢ - إن ما ذكر من قصص بني إسرائيل هو لتعداد ما ارتكبوه من الجنايات، تقرّياً لهم، وتحذيراً للمسلمين من حذو أثرهم، وهذه القصة وإن كانت واحدة إلا أنه أُريد منها تقرّيعين اثنين وتحذيرين، ففي البداية تقرّيعهم على لجاجهم، وثم تقرّيعهم على القتل والتدارؤ فيه، قال في الكشف: «وإنما قدمت قصة الأمر بذبح بقرة على ذكر القتل، لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقرّيع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: اضربوه ببعضها»^(١).

الثاني: ﴿فَأَذَرْنَا مِنْهُ﴾ أصله «تدارأتم» من «درأ» بمعنى دفع أي كل واحد حاول دفع التهمة عن نفسه وإلقاءها على الآخرين، وقد يكون فيه معنى الاختلاف.

وذلك لأن العادة أن الناس في المشاكل يحاولون إلقاء اللوم أو المشكلة على الآخرين، عكس الانتصارات حيث يحاول كل أن يظهر نفسه بمظهر المشارك، ولذا قيل «لانتصار ألف أب، والهزيمة يتيمة».

والصحيح أن يُبرئ الإنسان نفسه من التهم الباطلة، من دون إلقاء المسؤولية على الآخرين عملاً بالظنة والتهمة.

(١) الكشف ج ١، ص ١٥٤.

الثالث: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لأنه من سنن الله في الكون إظهار الحقائق - ولو بعد حين - في الدنيا قبل الآخرة قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

ويستفاد من بعض الأحاديث أن البغي أسرع المحرمات عقوبة، وكان القاتل يكشف على كل حال، لكن الله عجل في فضحه والانتقام منه وبهذه الكيفية، انتصاراً لنبيه، وتأديباً لبني إسرائيل، وإظهاراً لقدرته، وإفهاماً للناس بالعقوبة العاجلة للقتل لأنهم ينسون سبب العقوبة - لو تأخرت -.

الرابع: قيل: إن أول ما شرع منع القاتل من الإرث كان في هذه القضية، وذلك لأن المال الكثير للمورث قد يوجب طمع الوارث في قتله ليستولي على أملاكه، ولأن من طرق كشف القاتل هو كشف المستفيد من الجناية، فمن أوائل الأسئلة التي يلقيها المحقق الجنائي هو: من المستفيد؟ ويتم التدقيق والتحقيق عنه وقد يؤدي هذا السؤال ومحاولة الإجابة عنه إلى كشف خيوط الجريمة.

فإذا علم الوارث أنه في معرض التحقيق والانتقام - كونه مستفيداً من موت مورثه -، وأنه لو اكتشف القتل فإنه يمنع عن الإرث، فإنه يرتدع عن ارتكاب الجريمة في أحيان كثيرة.

الخامس: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ كان من الممكن أن يكون الأمر في كشف القتل على المتعارف بأن يبحثوا عن البيّنات أو القرائن أو اللوث - وحسب الأحكام الظاهرية -.

ولكن الله أراد أن يريهم آياته وعجائب فعاله لتلين قلوبهم، فلذا جعل

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

اكتشاف القاتل عبر هذه الطريقة، وهي ضربه ببعض البقرة المذبوحة حتى يكون الإحياء أظهر وأكثر تأثيراً، لأنهم كانوا ينتظرون الإحياء عبر هذه الطريقة غير المتعارفة.

السادس: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي جفّت من الخير والرحمة فلم تؤثر فيها المواعظ، و﴿ذَلِكَ﴾ قد يراد به إحياء القتيل في قصة البقرة، ويمكن أن يراد به جميع الآيات التي شاهدوها - وما أكثرها -.

فيكون إشارة إلى بني إسرائيل في زمن موسى ﷺ، وكذلك من كانوا في زمن رسول الله محمد ﷺ، وإلى يوم القيامة، وليس معنى ذلك أن قلوبهم لم تكن قاسية قبل ذلك، بل لعل المراد أن المتوقع ممن يرى هذه الآيات الباهرات أن يخشع قلبه ويلين، لكن هؤلاء للجأهم وشقاوتهم لم تلن قلوبهم، بل استمرت على ما كانت عليه من القسوة.

السابع: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ هذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، وبيان أن الحجارة كما هي صلبة ويصعب التأثير عليها، كذلك هذه القلوب لا تتأثر بالمواعظ، فهؤلاء يمتنعون عن الإقرار بالحق لما قامت الحجة عليهم، وكذلك يمتنعون عن العمل بما علموا من الطاعات.

الثامن: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسَوَةً﴾ بما أن التريد مستحيل على الله تعالى، لأن منشأ التريد هو الجهل وعدم العلم بأي الفردين، فلذا فإن «أو» هنا للإبهام، بمعنى أن المتكلم العالم لا يذكر الأمر بشكل واضح بل يذكره مبهماً، حتى يصل إلى غرضه، ثم بعد ذلك يتم تبين ما أجمل، ولعل الغرض هنا هو الإلفات إلى شدة قساوة قلوبهم، ولإيصال الفكرة جاء الإبهام بين أمرين هما: ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ و﴿أَشَدَّ قَسَوَةً﴾، ولذا لم يقل (أقسى)

بل قال ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، لأن المعنى وإن كان واحداً، لكن الإلفات في ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أكثر وذلك لتضمن الجملة على كلمة الشدة أيضاً.

ثم بعد حصول الالتفات إلى هذه القساوة، بين الله تعالى أن قلوبهم أشد من الحجارة في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾.

التاسع: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ التفصيل في أقسام الحجارة وتقسيمها إلى الأقسام الثلاثة، إنما يراد منه زيادة بيان قسوة قلوب هؤلاء فالغرض الأساسي من التفصيل في أقسام الحجر ليس لأجل الحجر نفسه، بل لبيان مزية الحجر على قلوبهم، وذلك لإيصال الفكرة - وهي قساوة قلوبهم - بشكل أجلى وأوضح بما لا لبس فيه.

العاشر: ﴿يَهَيِّطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

هبوط الحجر من خشية الله قد يراد به انقياده لإرادة الله سبحانه وتعالى حيث إن الله قدر الجاذبية - تكويناً - فانقادت لهذه الإرادة الجمادات.

ويمكن أن يراد المعنى الحقيقي كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنِينًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢) وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسُخِ بِحُكْمٍ﴾^(٣). بناءً على حمل هذه الآيات على الظاهر من المعنى الحقيقي.

وعلى كل فالمعنى أن قلوبهم أشد قساوة من الحجر، لأن الحجر فيه خشية من الله وهؤلاء لا يخشونه تعالى.

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤١.

الخلاصة:

هنالك عدة دروس تستفاد من قصة ذبح البقرة - كما في الكشف^(١) والمجمع^(٢) وغيرهما ومنها:

- ١ - محبوبة الذبح، تقرباً إلى الله، واكتساباً للثواب.
- ٢ - لزوم ترك التشديد، حتى لا يشدد الله سبحانه.
- ٣ - لزوم المسارعة إلى امتثال أمر الله تعالى.
- ٤ - نفع اليتيم بالتجارة.
- ٥ - بركة برّ الوالدين.
- ٦ - محبوبة الشفقة على الأولاد.
- ٧ - اختيار الأنسب للتقرب إلى الله، كما في البقرة المذبوحة حيث كانت جميلة الظاهر، سالمة من العيوب.
- ٨ - إن الله هو سبب الأسباب فالحياة منه تعالى وأما الأسباب الأخرى فهي أمور ظاهرية، وعلى الإنسان أن يأخذ بها لكن مع علمه بأن الأمر بيد الله.

(١) الكشف، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) مجمع البيان، ج ١، ص ٢٦٣.

المطلب الخامس

ومن أسباب انحراف بني إسرائيل
(تحريف كلام الله تعالى أو الجهل به)

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

٧٥ - ﴿أَفَنظَمُونَ﴾ أيها المؤمنون، استفهام إنكاري بمعنى لا تطمعوا، وأصل الطمع هو «الأمل بما يظن نفعه» ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ هؤلاء اليهود ﴿لَكُمْ﴾ أي يصدقوكم، فإن تعدية الإيمان باللام يفيد معنى التصديق والاستجابة، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم بعض كبارهم ولم ينسب العمل إلى كلهم لأن التحريف لا يتأتى إلا من البعض، ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ التوراة وسائر الكتب السماوية ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي يغيرونه - معنى أو لفظاً - تحريفاً ينسجم مع مصالحهم أو مصالح من أخذوا منهم الرشوة، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بأنهم يحرفون، وهذا يشدد جريمتهم لأن من لا يفهم كلاماً

الاعتقاد بشيء كالإيمان بالله وبالرسول، وقد يتعدى باللام فيقال «آمن له» ومعناه هو الاستجابة للشخص وتصديقه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وهنا بمعنى أنكم تطمعون أن يصدقكم ويستجيبوا لكم أي يؤمنوا كما آمتم.

الثاني: ﴿فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ في الآيات السابقة واللاحقة نسب إلى جميعهم ما فعله بعضهم، على الأسلوب البلاغي في نسبة عمل بعض القوم إليهم أجمع، لأن الطبع واحد والكل راضٍ عن عمل البعض.

لكن هنا نسب الأمر إلى بعضهم فقال تعالى: ﴿فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، ولعل ذلك بسبب أن التحريف لا يمكن أن يقوم به إلا البعض من أحبارهم وكبرائهم ولا يتأتى من عامتهم وقد أشار سبحانه في الآية ٧٨ أن فريقاً منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، فالتحريف لا يتأتى منهم، وينحصر في البعض منهم، إضافة إلى أنه نوع بلاغة في الكلام مع جواز نسبته إلى كلهم لرضاهم عنهم، ولذا نسب التحريف في آيات أخرى إليهم كلهم قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(٢).

الثالث: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

لعل وجه ذكر أنهم كانوا يسمعون ويفهمون ثم يحرفون، للدلالة على عمق جريمتهم في التحريف، فإنهم سمعوا وفهموا المقصود ومع ذلك قاموا بالتحريف، في حين أن من لم يسمع قد يعتذر أو يُعتذر له بأنه لم يكن يدري أو أن ما نقل له لم يكن صحيحاً، فالمشكلة في الناقل لا فيه،

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٣.

فأراد الله بيان أن هؤلاء كانوا مع علمهم وفهمهم بالمقصود يقومون بالتحريف، فلا يمكن الاعتذار لهم بأي وجه من الوجوه.

ويمكن أن يكون المراد هو أنهم كانوا يسمعون ثم يحرفون تحريفاً معنوياً أو في نقل الألفاظ، وأما التحريف في الكتابة فهو قسم آخر من أقسام التحريف ذكر في آيات لاحقة فيكون تقسيم إذاً إلى أقسام ثلاثة: فقسم يحرفون معنى أو لفظاً، وقسم أميون، وقسم ثالث يحرفون الكتابة، فتأمل.

الرابع: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ هو تغيير المعنى إلى خلاف المقصود، أو تغيير اللفظ ليتغير المعنى، كجعل الحلال حراماً أو الحرام حلالاً.

وروي: أنهم قالوا لبني إسرائيل: إن الله تعالى قال لنا هذا، وأمرنا بما ذكرناه لكم، ونهانا، وأتبع ذلك: بأنكم إن صعب عليكم ما أمرتكم به فلا عليكم أن لا تفعلوه، وإن صعب عليكم ما عنه نهيتكم فلا عليكم أن ترتكبوه وتواقعوه، وهم يعلمون أنهم بقولهم كاذبون^(١).

وسبب التحريف أنهم كانوا يرون كلاماً أو حكماً لا يرضون به، إما للمشقة في تطبيقه، أو لأنهم يريدون الإثراء أو الوجاهة على حساب الحق، فيجدون الحكم مانعاً، أو يرتشون ممن لا يريد تطبيق ذلك الحكم فيغيرونه إرضاءً له، أو لغير تلك الأسباب.

وفي التوراة وقع التحريف في اللفظ أيضاً.

والتحريف اللفظي حدث لجميع الكتب السماوية الأخرى، سوى القرآن الكريم حيث حفظه الله تعالى من التغيير اللفظي، فما هو موجود الآن بين الدفتين هو ما نزل على رسول الله محمد ﷺ بلا زيادة ولا نقصان.

(١) البرهان ج ١، ص ٤٣٩، عن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام.

خلفاً لما زعمه ابن تيمية حيث توهم أن التوراة الحالية هي كما نزلت على موسى ﷺ من دون تحريف^(١) وكأنه لم يقرأ قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِن عِندِ اللَّهِ﴾^(٢).

وأما تغيير المعنى، أو التأويل من غير دليل، فهذا ما أحدثه البعض في معاني الكتب السماوية، وحتى أن بعض المسلمين فسّروا أو أولوا آيات من القرآن الكريم خلفاً لما أراده الله تعالى، وذلك بسبب الجهل أو مراعاة لمصالحهم أو مصالح الحكام - والعياذ بالله -

ومن أنواع التحريف - بتغيير المعنى - البدع، وهي إدخال ما ليس من الدين في الدين، فما ليس له أصل في الدين يكون اعتباره من الدين من التحريف المعنوي ويقال له البدعة، وكذا الزيادة والنقيصة فيما هو توقيفي كالصلاة والصوم.

وأما تطبيق الكليات على الجزئيات - حتى المُستجد منها - فإنه ليس من البدعة في شيء، بل هو امتثال لأوامر الله تعالى، فمثلاً صلة الرحم من الأحكام الشرعية الكلية، فيجب أو يستحب أن يصل الإنسان أرحامه، وهذا حكم كلي يمكن تطبيقه بشكل جزئي، حتى بما لم يكن متعارفاً سابقاً كالاتصال بالهاتف مثلاً، فهذا ليس من البدعة بل هو تطبيق لأمر شرعي كلي على مصداق جزئي جديد.

الخامس: ﴿قَالُوا ءَمَنَّا﴾.

أي آمنا بأن محمداً ﷺ موجود في كتبنا، ولم يكن غرضهم الإيمان

(١) منهاج السنة: ج ١، ص ٣٦٣، وج ٢، ص ١٥٣ وص ٥٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

حقيقة، وإنما كان ذلك نفاقاً منهم، صوناً لأنفسهم، أو لأجل أن يطلعوا على أسرار المسلمين حينما يدخلون في صفوفهم، ومن ثمَّ يترصدون بهم الدوائر.

ولعل وجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه كان من دأب أسلافهم تحريف كلام الله، فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ وكان اسمه مذكوراً في التوراة الموجودة في أيديهم كما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿الرَّسُولَ الَّذِي أَلْمِمْتَ الَّذِي يَحْدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(١)، حينذاك من كان يظهر منهم الإيمان، كان يخبر المسلمين بما في التوراة من وصف رسول الله محمد ﷺ، وقد شق ذلك على كبارهم فلذا حرّفوا هذه المقاطع من التوراة بحذفها إخفاءً للحجة.

ويحتمل بأن قولهم ﴿ءَاْمِنَّا﴾ لا يراد به إظهارهم الإسلام نفاقاً، بل هم مع بقائهم على كفرهم كانوا يقرؤون التوراة وفيها ذكر لرسول الله ﷺ، فالإيمان هنا بمعنى اعترافهم بما في التوراة من غير قبول للإسلام - ولو ظاهراً -، ويقرب هذا الاحتمال عتاب بعضهم لهؤلاء مما ذكره الله تعالى.

السادس: ﴿فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَاجُّوكُمْ﴾

فَتَحَّ باب العلم بمعنى علّمه وأرشده إليه، فكانوا يتصورون بأنهم بإخفائهم ما في الكتاب من أوصاف النبي ﷺ يتمكنون من خداع الله سبحانه وتعالى، حيث كانوا يزعمون بأن الله لا يعلم أسرارهم وما يُسرّون، فلذا اعتبروا اعترافهم أمام المسلمين سيكون سبباً لانكشاف

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧.

أمرهم أمام الله سبحانه، حيث سيشهد المسلمون عليهم أمام الله تعالى بأنهم أقرروا واعترفوا بورود ذكر للنبي ﷺ مما سيوجب مؤاخذتهم.

وهؤلاء لجهلهم بالله تعالى، كانوا يتصورون بأن الله كالناس، فلذا نسبوا إلى الله الفقر، وغلّ اليد، والجهل وغيرها من صفات النقص، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

في حين أن من أعمل عقله، علم يقيناً بأن الله لا كالأشياء، فهو علم بلا نهاية، ولا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض.

والغريب أن بعض من يدعي الإسلام حذا حذو اليهود، فقالوا بجهل الله بالجزئيات، لأنهم بأوهامهم توهموا ذات الله، ثم فسروا علمه وسائر صفاته بما ينسجم مع ما توهموه.

مع أن الإنسان يستحيل أن يفهم ذات الله تعالى، ولذا ورد في الروايات النهي عن التفكير في ذات الله، لأن المخلوق المحدود يستحيل أن يحيط بغير المحدود اللامتناهي.

ولأن صفات الله الذاتية عين ذاته تعالى، وليست أمراً زائداً على الذات، فكما يستحيل معرفة كنه ذاته، كذلك يستحيل معرفة كنه صفاته.

بلى العقل يدرك أن الله موجود وأن له صفات كمال، وهو منزّه عن النقائص، لكنه لا يمكنه أن يدرك كنه ذاته وصفاته تعالى.

بل الإنسان لا يمكنه أن يدرك كنه حقيقة الممكنات، مثلاً الإنسان يعجز عن فهم كنه حقيقة الوجود، مع أن الوجود من أوضح الأشياء، وهكذا سائر الأمور الواضحة التي يعتقد بها الإنسان ويراها، فإنه يعجز

عن فهم حقيقتها وكنهها ، فإذا كان هذا حد فهم الإنسان في الممكنات الواضحة ، فإنه أعجز من فهم كنه ذات الله تعالى وصفاته .
والمتحصل : أن الله تعالى عالم بكل شيء كلياً كان أم جزئياً ، علنياً أم سرئياً ، ظاهراً أم مضمراً .

وكما أن سنخ ذاته يختلف اختلافاً تاماً عن ذات الممكنات ، كذلك علمه وسائر صفاته تختلف اختلافاً تاماً عن علم الممكنات ، لأن علمه عين ذاته .

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال :

«علم الله لا يوصف منه بأين ، ولا يوصف العلم من الله بكيف ، ولا يفرد العلم من الله ، ولا يباين الله منه ، وليس بين الله وبين علمه حد»^(١) .
ومن أرجع الصفات الثبوتية إلى الصفات السلبية فقال : إن معنى أنه عالم قادر مريد : أنه ليس بجاهل وليس بعاجز وليس بمكره وهكذا سائر الصفات ، لعلّه أراد هذا المعنى ، أي أن علمه يختلف عن علمنا بشكل تام ، ولا يمكن لنا أن نفهم معنى علمه .

ولذا قال صاحب الفصول بالاشتراك اللفظي^(٢) ، أي للعلم معنيان أحدهما علم الممكنات وهذا النوع نفهمه ، والآخر علم الله تعالى ولا يمكن لنا فهمه .

وإن كان الأصح أنه لا اشتراك لفظي ، بل هناك معنى واحد : للعالم ولغيره من الصفات ، ولكن مع نوع من التأويل في إطلاق هذه الصفات عليه .

(١) من فقه الزهراء ج ٢ ، ص ٢١٤ عن البحار ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٢) الفصول / بحث المشتق .

وذلك لأن العرف وأهل اللغة لا يلتفتون إلى هذه البحوث الدقيقة، فيطلقون هذه الأوصاف عليه سبحانه بنفس المعنى الذي يطلقونها على غيره، ولكن لما كانت اللغة قاصرة عن بيان كنه الذات والصفات، لاستحالة إدراك المحدود الممكن للواجب غير المحدود، فإن ألفاظ الصفات في القرآن الكريم جرت عليه ولكن بضرب من التأويل، فتأمل^(١).

السابع: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالله يعلم سرهم وجهرهم، فسّرهم حين يتناجون مع شياطينهم، وجهرهم حين يناقون مع المسلمين.

وكذلك دحض حجتهم أمام الله تعالى، لا فرق فيه بين أن يُظهروا بعض الحقائق أمام المسلمين أو لا يظهروها.

كما أن الحجة عليهم لا تختص بما يخفونه من صفات النبي ﷺ بل لا حجة لهم أمام الله تعالى في كثير من أعمالهم الأخرى من القتل ونقض الميثاق والتحريف وغيرها، وروي أنهم قدروا بجهلهم أنهم إن لم يخبروهم بتلك الآيات لم يكن له حجة عليهم حجة في غيرها^(٢).

(١) قال المحقق العراقي في نهاية الأفكار ج ١، ص ١٥٢ «بأن عقول الممكنات طرأ لما كانت قاصرة عن الإحاطة بذات الواحد الأحد ولم تدرك منه سبحانه إلا بقدر قابليتها واستعدادها، فلا جرم إذا كان همّ عقول الممكن جهة دون جهة وقصر النظر على علمه أو قدرته أو حياته أو إرادته سبحانه، يصير مدركه لا محالة محدوداً في نظره بحيث ينتزع من حد ما أدركه حيثية الذات تارة والعلم أخرى وحيثية الإرادة والقدرة ثالثة وهكذا من دون أن تكون تلك الحيثيات الانتزاعية الناشئة من قصور النظر راجعة إليه.

(٢) البرهان ج ١، ص ٤٤٤ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨)
 فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا
 بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

٧٨ - ﴿وَ﴾ هنالك قسم ثاني ﴿مِنْهُمْ﴾ أي اليهود، وهم العوام
 الذين لا يقرأون ولا يكتبون، فلا يتمكنون من العلم بحقائق الكتاب،
 فهم ﴿أُمِّيُونَ﴾ نسبة إلى الأم، أي لم يتعلموا القراءة والكتابة، وهم ﴿لَا
 يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ لأنهم لم يقرأوه ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ استثناء منقطع أي
 ليس لهم إلا أمان بالنجاة في الآخرة، ولا يعلمون بتحقيق تلك الأمان
 ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم إلا الظن بالنجاة ولا علم لهم به.

٧٩ - ولأن جهل الأميين كان بسبب تحريف علمائهم ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي
 الهلاك والعذاب ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فليس هو كتاب منزل،
 وإنما هو ما كتبه علماءهم لمصالحهم، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا﴾ الذي كتبه هو
 منزل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وهؤلاء هم القسم الثالث من اليهود، وسبب هذا
 الافتراء هو: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ أي بما كتبه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرئاسة على
 العوام، أو مصالح دنيوية مالية ونحوها، وهذا الويل لأمرين: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ

مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿لأنهم ارتكبوا أشد المحرمات المهلكات﴾ ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ
مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ لأن ثمن الحرام حرام شديد.



بحوث:

الأول: كما مرّ، لعل هذه الآيات من الآية ٧٥ إلى الآية ٧٩ تشير إلى حالاتهم مع التحريف، وفريق منهم: يحرف المعنى أو يحرف في كلامه حينما ينقل كلام الله، ويؤيده ما مرّ من الرواية الدالة على أنهم لما نقلوا التوراة أضافوا هذا القول: «بأنكم إن صعب عليكم ما أمرتكم به فلا عليكم أن لا تفعلوه... الخ».

وفريق آخر منهم: هم الأميون الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، فلا علم لهم بالتوراة إلا ما سمعوه من علمائهم المحرفين، وهؤلاء يظنون بأنهم ناجون ولا علم لهم بذلك.

وقسم ثالث منهم، من يحرفون تحريفاً كتبياً، أي يضيفون إلى الكتاب ما ليس فيه.

ولعل ذكر الأميين في الوسط مراعاةً للتسلسل الزمني، بسبب أن التحريف كان في البداية تحريفاً في المعنى أو في النقل فقط، فاتّبع الأميون المحرفون بالمعنى واللفظ، ثم احتاج هؤلاء المحرفون إلى تغيير الكتابة أيضاً.

أو لأنهم لما حرفوا المعنى رأوا استجابة من عوامهم فتشجعوا على تحريف الكتابة أيضاً.

أو أن الآية الأخيرة لبيان العذاب للمحرفين، فبعد أن ذكر الله تعالى أنهم قسمان بين محرّف وأمي، بعد ذلك بيّن سبحانه العذاب الذي يلحق المحرفين.

الثاني: ﴿أُمِّيُّونَ﴾

الأمي منسوب إلى الأم ويراد به الذي لا يكتب ولا يقرأ، فكأنه تربى في ظل أمّه لا المعلم، أو كأنه بقي كما ولدته أمّه.

ومعنى الأمي في مختلف آيات القرآن هو هذا.

وسياتي - إن شاء الله - أن إطلاق الأمي على رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾^(١)، أيضاً بهذا المعنى، لأن الرسول ﷺ - وإن كان بالإعجاز يعلم جميع الأمور ومنها القراءة والكتابة -، لكنه لم يتعلمهما عند بشر، وكذلك لم يستعمل القراءة أو الكتابة طيلة حياته، وذلك لإكمال الحجة، ولكي لا يرتاب المبطلون، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢).

فيكون معنى الأمي فيه ﷺ هو الذي لم يتعلم الكتابة ولا القراءة عند بشر، وهذا لا ينافي معرفته بهما بالإعجاز أي بتعليم من الله تعالى.

وسياتي - إن شاء الله - بيان ما روي من أن نسبة الأمي إلى الرسول نسبة إلى أم القرى وهي مكة، وكذلك ما روي من قراءته أو كتابته، وأنه حتى لو فرض صحة هذه الروايات، ودفع التعارض بينها، فإنها لا تنافي

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

ما ذكرناه، لأن تلك الروايات تشير إلى الإعجاز لا إلى التعلّم عند بشر، كما أنها تشير إلى وقائع في المدينة المنورة أي بعد البعثة بسنوات طوال مما لا يتنافى مع دحض ارتياب المبطلين، فانتظر.

الثالث: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ جمع أمانة، وهذا استثناء منقطع، أي لأنهم أميون فإنهم لا علم لهم بالكتاب، ولا بما ورد فيه من أوصاف النبي ﷺ، وإنما هم إمعات يسمعون إلى ما يقوله أحبارهم وكبراءهم.

فهؤلاء بما سمعوه، يظنون النجاة في الآخرة، وهذه أمنيّتهم، ولكن لأنهم لا يطمئنون إليهم، فإنهم يمتّون النفس بالنجاة من غير اطمئنان، لمعرفتهم بحالات الأحبار وعدم ورعهم.

وكل من علم بعدم ورع عالم وكذبه ومصلحيته، فإنه لا يجوز له أن يقلّده، وهو ليس بمعذور في ذلك، لأنه جاهل مقصّر، ولا فرق بين من يعلم بالبطلان وبين الجاهل المقصر.

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن ذلك:

«فقال رجل للصادق عليه السلام: فإذا كان هؤلاء القوم لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم، لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمّهم بتقليدهم، والقبول من علمائهم، وهل عوام اليهود إلا كعوامنا يقلّدون علماءهم، فإن لم يجز لأولئك القبول من علمائهم، لم يجز لعوامنا القبول من علمائهم؟ (إلى أن قال):

فقال عليه السلام: إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وبأكل الحرام والرشا، وبتغيير الأحكام عن واجبها، بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به

أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم بأنهم يقارفون المحرمات.

واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل مثل ما يفعلونه فهو فاسق، لا يجوز أن يُصدّق على الله تعالى، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله.

فلذلك ذمّهم لما قلّدوا من قد عرفوا، ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكايته، ولا العمل بما يؤديه إليهم عمّن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم، في أمر رسول الله ﷺ إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى، وأشهر من أن لا تظهر لهم.

وكذلك عوام أمتنا، إذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر، والعصبية الشديدة، والتكالب على حطام الدنيا وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه - وإن كان لإصلاح أمره مستحقاً - ، وبالترفرق بالبرّ والإحسان على من تعصبوا له - وإن كان للإذلال والإهانة مستحقاً - ، فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم الله تعالى بالتقليد لفسقة فقهاءهم.

فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلا في بعض فقهاء الشيعة، لا جميعهم، فإنه من ركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة، فلا تقبلوا منهم عنا شيئاً ولا كرامة لهم^(١).

(١) البرهان ج ١، ص ٤٤٦ - ٤٤٧ عن التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام.

الرابع: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

ننقل مضمون كلام الشيخ الأعظم الأنصاري رحمته الله في الرسائل، مع بعض الإضافات من كلام السيد الوالد رحمته الله في كتاب (الوصائل إلى الرسائل)^(١) والكلام تارة في الظن بأصول الدين، وتارة في العلم الناشئ من التقليد.

١ - إن مسائل أصول الدين، وهي التي لا يجب فيها - أولاً وبالذات - إلا الاعتقاد باطناً والتدين ظاهراً، ولا يجوز فيها التقليد، على قسمين:

القسم الأول: ما لا يجب تحصيل العلم بها، لكن إذا اتفق حصول العلم، وجب الاعتقاد والتدين به، كبعض تفاصيل المعارف مثل أحوال البرزخ وخصوصيات الجنة والنار.

فلا يلزم العلم بها، ولكن لو علم بها وجب عليه الاعتقاد بها، تصديقاً لرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام.

القسم الثاني: ما يجب تحصيل العلم بها كأصول الدين.

فمن هو قادر على تحصيل العلم فلا يجوز أن يكتفي بالظن، فمن ظن بنبوة نبينا محمد ﷺ أو بإمامة أحد الأئمة عليهم السلام فإنه لا يجوز له الاقتصار على ذلك الظن، بل يجب عليه زيادة النظر لتحصيل العلم.

والدليل على ذلك جميع الآيات والأخبار الدالة على وجوب الإيمان والعلم والتفقه والمعرفة والتصديق والإقرار والشهادة والتدين، وعدم الرخصة في الجهل والشك ومتابعة الظن.

(١) كتاب الرسائل / باب الانسداد / التنبيه الخامس، وكتاب الوصائل ج ٦، ص ٤٣ - ١٣٧.

وحكم هذا الظان: أنه ليس بمؤمن، وذلك للأخبار المفسرة للإيمان بالإقرار والشهادة والتدين والمعرفة، الظاهرة في العلم.

٢ - في التقليد في أصول الدين:

لا إشكال في عدم جواز التقليد الموجب للظن في أصول الدين، وذلك للآيات والروايات الناهية عن اتباع الظن فيها، كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا أَلْفَنًا﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَلْفَنًا لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(٢) وغيرها من الآيات.

وأما التقليد الموجب للعلم بالحق، كبعض عوام المؤمنين فهل يجوز اتباعه أم لا؟

الأقوى - عند الشيخ الأعظم رحمته الله - كفاية الجزم الحاصل من التقليد الموصول إلى الحق، لعدم الدليل على اعتبار الزائد على المعرفة والتصديق والاعتقاد.

والإشكال: بأنه كيف يمكن إثبات العقاب في المقلد في الباطل، وعدم استحقاق العقاب للمقلد في الحق، مع فرض كونهما متساويين في سعيهما من جميع الجهات، سوى ما كان خارجاً عن وسعيهما، بأن كان أحدهما مولوداً في أهل الباطل، والآخر مولوداً في أهل الحق؟

جوابه:

أما الذي قلّد في الحق، فعدم استحقاقه للعقاب، واستحقاقه الجنة لأنه سلك الطريق الموصول إلى الجنة.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٦.

وأما الذي قلّد في الباطل :

فإن كان معذوراً في جهله - كالجاهل القاصر - فإنه يمتحن في الآخرة كما دل عليه النص وقول العلماء .

وإن لم يكن معذوراً في جهله ، فلا مانع عقلاً ولا شرعاً من عقابه ، فحالهما حال نفرين قلّد أحدهما من دلّه على الطريق ، والثاني من دلّه على خلاف الطريق ، فإن الأول سيصل دون الثاني .

انتهى ما اخترناه من الرسائل والوصائل - بالمضمون - .

الخامس: في المقدار الواجب من المعرفة:

قال الشيخ الأعظم الأنصاري رحمته الله:

١ - يكفي في معرفة الرب :

التصديق بكونه موجوداً ، وواجب الوجود لذاته ، والتصديق بصفاته الثبوتية ، ونفي الصفات الراجعة إلى الحاجة والحدوث ، وأنه لا يصدر منه القبيح فعلاً أو تركاً .

٢ - يكفي في معرفة النبي ﷺ :

معرفة شخصه بالنسب المعروف المختص به ، والتصديق بنبوته وصدقه .

ومعرفة ما عدا النبوة واجبة بالاستقلال على من هو متمكن منه بحسب الاستعداد وعدم الموانع .

والجهل بمراتب سفراء الله جلّ ذكره مع تيسر العلم بها ، تقصير في حقهم ، وتفريط في حبهم ، ونقص يجب بحكم العقل رفعه ، بل من أعظم النقائص .

٣ - ويكفي في معرفة الأئمة عليهم السلام :

معرفتهم بنسبهم المعروف ، والتصديق بأنهم أئمة يهدون بالحق ،
ويجب الانقياد إليهم والأخذ منهم .

٤ - ويكفي في التصديق بما جاء به النبي ﷺ :

التصديق بما علم مجيئه متواتراً من المعاد الجسماني ، وعدم إنكار
الضروريات إذا علم بأنها من الدين .

وبالجملة : يكفي في الإيمان : الاعتقاد بوجود الواجب الجامع
للكمالات ، المنزه عن النقائص ، ونبوة محمد ﷺ ، وإمامة
الأئمة عليهم السلام ، والبراءة من أعدائهم ، والاعتقاد بالمعاد الجسماني الذي لا
ينفك عن الاعتقادات السابقة .

والمراد بمعرفة هذه الأمور : ركوزها في اعتقاد المكلف ، بحيث إذا
سأله عن شيء مما ذكر أجاب بما هو الحق فيه ، وإن لم يعرف التعبير عنه
بالعبارات المتعارفة على السنة الخواص ^(١) .

السادس : ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الويل أصله بمعنى الهلاك
والعذاب ، ثم استعمل في كل من وقع في الهلكة أو في المشكلات ، فإنه
يقال له أو يقولها للتحسر والتفجع والتوجع .

قال سبحانه : ﴿قَالَ يَوَيْلَیْٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغَرَابِ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿قَالَتْ يَوَيْلَیْٓ ءَإِلَٰدُ وَاٰنَا عَجُوْزٌ﴾ ^(٣) .

(١) نقل باختصار وبالمضمون مع تقديم وتأخير، الرسائل، باب الانسداد، التنبيه الخامس.

(٢) سورة المائدة الآية : ٣١ .

(٣) سورة هود، الآية : ٧٢ .

وروي أن الويل واد في جهنم^(١) وهو مصداق من مصاديق المعنى العام وهو الهلاك والعذاب.

والفاء في ﴿فَوَيْلٌ﴾ للتفريع، أي إن وقوع الأميين في المخالفة والأمانى غير الحقيقية، كان بسبب تحريفات علمائهم، فإذن الويل والهلاك لهؤلاء الأخبار المحرفين، لأنهم سبب الضلال، فهم ضالون مضلون.

ويمكن أن تكون تفريعاً للتقسيم - كما مرّ - حيث قسمت الآيات هؤلاء إلى أقسام، فمنهم يسمعون ويحرفون المعنى، ومنهم جهلة أميون، ومنهم يحرفون الكتابة، وعادة تحريف الكتابة يكون عبر اللاحقين، وتحريف المعنى عبر السابقين.

ويؤيده ما روي من تحريف الأخبار المعاصرين لرسول الله ﷺ التوراة بتغييرهم: ما ذكر فيها من صفات الرسول ﷺ، إلى صفات لا تنطبق عليه، ليؤمّوها على العوام وعلى المشركين، كما سيأتي في البحث اللاحق.

السابع: ﴿يَأْيُذِبِهِمْ﴾.

إشارة إلى التحريف، لأنه لو قال (كتب الكتاب) لا يفهم منه التحريف إلا بالقرائن، لأنه كثيراً ما يكتب الكتاب كما هو، كما في الخطاطين الذين يخطون رسم القرآن مثلاً، أما مع إضافة كلمة ﴿يَأْيُذِبِهِمْ﴾ فيفهم معنى: من عندهم، أي يكتب الكتاب من عند نفسه لا كما نزل. وفي التفسير إن أوصاف النبي ﷺ كانت مذكورة في التوراة، فلمّا أراد أخبارهم تعمية الأمر على الأميين، غيروا تلك الأوصاف.

(١) مجمع البيان ج ١، ص ٢٧٨ الوسائل ج ٦، ص ٧٦ - ٨٧.

وروي أنه :

قال الله عزَّ وجلَّ: [هذا] لقوم من هؤلاء اليهود كتبوا صفةً زعموا أنها صفة النبي ﷺ، وهي خلاف صفته، وقالوا للمستضعفين منهم: هذه صفة النبي المبعوث في آخر الزمان: إنه طويل، عظيم البدن والبطن، أصهب الشعر، ومحمد خلافه، وهو يجيء بعد هذا الزمان بخمسمائة سنة^(١).

وروي أنهم عمدوا إلى التوراة وحرفوا صفة النبي ﷺ، ليوقعوا الشك بذلك للمستضعفين من اليهود، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام^(٢).

الثامن: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾

أي ليحصلوا بهذا التحريف أغراضاً دنيوية من مال ورياسة، لأنهم توهموا أن اعترافهم بالرسول ﷺ يسبب زوال الرياسة والمال الذي كانوا يأكلونه من العوام، وهم قد غلطوا في زعمهم هذا، لأن الله تعالى فتح كنوز العالم على من أسلموا فصاروا سادة بعد أن كانوا عبيداً أو كالعبيد، وكما قالت فاطمة الزهراء سلام الله عليها: (وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرّق، وتقتاتون القِدّ، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد^(٣)).

(١) البرهان ج ١، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ - عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٢) مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٩.

(٣) مقطع من خطبتها في المسجد (من فقه الزهراء) ج ٣، ص ٧٩ - ١١٠.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

بل تحقق العكس فإن هؤلاء اليهود الذين حرفوا الكتاب حفظاً لمصالحهم الدنيوية، قد خسروا تلك المصالح أيضاً، مضافاً إلى خسارتهم الأخروية واكتسابهم للعذاب الدائم.

التاسع: ﴿ثُمَّناً قَلِيلاً﴾:

والثمن قليل، لأن كل ما كان بدلاً عن الآخرة فهو قليل قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣).

وكذلك كانت دنياهم قليلة أيضاً، فما كانوا يريدون من رئاسة تحولت إلى لعنة دنيوية وذكر سيئ، وكذلك إلى فقدهم المال والأموال حينما أوقدوا حروباً ضد المسلمين ونقضوا العهود، فخسروا أرواحهم وأراضيهم وأموالهم وسييت ذراريهم.

العاشر: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ﴾.

في هذه الآية تكرر الويل ثلاث مرات، ولعله لأنهم يعاقبون ثلاث مرات.

وبيان ذلك: أنه يستفاد من الآيات والروايات بأنه في الآخرة تحضر

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦ - ١٩٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

الأعمال التي عملها الإنسان في حياته الدنيا، ويعبر عنه بتجسيم الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٢).

وعليه فهؤلاء المحرّفون يعاقبون لأنهم قاموا بعملية التزوير ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ثم عملهم وهو التحريف أيضاً يحضر ويتحول إلى عذاب ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وكذلك الأموال ونحوها التي حصلوا عليها جرّاء عملية التحريف أيضاً تحضر متحوّلة إلى عذاب ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، فلذا لهم الويل ثلاث مرات.

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

المطلب السادس

ومن أسباب انحراف بني إسرائيل
(توهم عدم العقاب)

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٨٠ - ﴿و﴾ جمع منهم ﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا﴾ أي لن تصيبنا ﴿النَّكَارُ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً﴾ قليلة، فلا نتعجل المكروه في الدنيا للعذاب الذي بقدر أيام ذنوبنا، وقيل توهموا أن العذاب سبعة أيام، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله في جوابهم ﴿أَخَذْتُمْ﴾ أي هل اتخذتم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من طرفه ﴿عَهْدًا﴾ على ذلك، وإذا كان الأمر كذلك بأن وعدكم الله ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾؟ ﴿أَمْ﴾ أنتم تكذبون و﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فقولكم من غير دليل ولا برهان.

٨١ - ﴿بَلَى﴾ إنه لا يوجد هنالك عهد من الله تعالى، بل بالعكس هنالك وعيد بالعذاب الدائم، فإن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي عمل عملاً

٨٢ - ﴿وَ﴾ في المقابل ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿﴾، فالجنة لا تكون بالتمني بل بالإيمان والعمل الصالح، كما أنه يخلد في النار من أحاطت به خطيئته.



وأما اللمس فلا يطلق إلّا على ما يكون من المحسوسات الظاهرة كقوله تعالى: ﴿كَيْبًا فِي فِرْعَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(٤).

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧.

وكانهم كانوا يتوهمون أنهم حتى إذا دخلوا النار فإنهم لا يحسون آلامها، كالمشلول الذي لا يحس حرارة النار التي يمسها، بسبب فقدان أو انقطاع الموصلات العصبية، فتأمل.

الثاني: ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ الخُلف بمعنى النقض الفعلي للعهد، أي إن كنتم قد أخذتم عهداً فلن يخلف الله عهده، وذلك لأن الله لا يخلف الميعاد.

وبحكم العقل لا يجوز للحكيم أن يُخلف الميعاد، لأن الخُلف إنما هو لنسيانه أو عجزه أو خبثه، وتعالى الله عن ذلك، لأن تلك صفات النقص، والله مبرأ منها.

نعم لا مانع عقلاً أن لا يُنفذ الحكيم تهديده ووعيده، فيجوز أن يعفو عن خالف وعصى، لحكمة أو رحمة.

فلذا قالوا الوفاء بالوعد واجب، وأما تنفيذ الوعيد فإنه غير لازم.

الثالث: ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾

أي هل اتخذتم، يمكن أن يكون الاستفهام إنكارياً، أي للإنكار عليهم في زعمهم بأنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودة، فيقال لهم: بأن زعمكم باطل، لعدم وجود عهد من الله على ذلك، بل بالعكس فهناك وعيد بالعذاب الدائم، وعلى هذا المعنى تكون كلمة (أم) في قوله: ﴿أَمْ نَقُولُونَ﴾ منقطعة بمعنى ﴿بل﴾، فيكون المعنى استنكار أن يكون هنالك عهد من الله إليهم، بل زعمهم تَقُولُ على الله من غير علم.

ويمكن أن يكون الاستفهام في ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ تقريرياً وعليه تكون ﴿أَمْ﴾ للمعادلة، فيكون المعنى أخذ الإقرار منهم على أخذ أمرين: فهل هنالك

وعد أم هو تقول؟ ويكون أخذ هذا الإقرار تمهيداً لإثبات أنه تقول وأن هنالك خلوداً في النار، كما في الآية الآتية: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ﴾ الآية.

الرابع: ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لعله إشارة إلى بطلان زعمهم، فيكون معنى ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو: ما تعلمون بطلانه، وقد يعبر عن (العلم بالعدم) بـ(عدم العلم)، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَتَذَكَّرُونَ؟ إِنَّمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بما يعلم عدمه في الأرض.

ويمكن أن يكون ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في الآية بمعناه الحقيقي، فيكون المعنى أنهم كانوا يقولون بأن عذابهم قليل تخرساً وزعماً من غير برهان ودليل، فلم يكونوا يعلمون ذلك، بل كانت أمانيتهم ناشئة عن ظنون لا تغني ولا تسمن.

الخامس: ﴿بَلَىٰ﴾.

كلمة بلى تستعمل للإثبات بعد النفي، فيكون المعنى: أن النار ستمسككم أبداً، لأنهم نفوا عن أنفسهم النار إلا أياماً معدودة، فردّهم الله تعالى: بأنهم خالدون في النار.

السادس: ﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾.

تشبيه لعمل السيئة بالكسب، فكما أن الكاسب يعطي شيئاً ويأخذ شيئاً آخر في مقابله، كذلك عامل السيئات يعطي من قدرته وإمكاناته ويأخذ مقابلها السيئة، فمن عمل عملاً سيئاً فكأنه كسبه.

ولعل الإتيان (بالسيئة) مفرد نكرة، للإشارة إلى أن السيئة الواحدة أيضاً يمكن أن تخلد الإنسان في نار جهنم، فلا يتوهم متوهم: أن الخلود

في نار جهنم خاص بمن يعمل جميع السيئات أو الكثير منها، بل إن بعض السيئات، تكفي الواحدة منها في أن تجعله مستحقاً للخلود في جهنم.

فالشرك مثلاً سبب للخلود فيها، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

وهذا إخبار لا يمكن أن يتخلف وإلا كان كذباً، وتعالى الله عن ذلك.

نعم في بعض الموارد الأخرى وعيد بالخلود في النار ومعناه استحقاق المذنب للخلود، ولكن يمكن أن يشمل عفو الله تعالى لأنه لا مانع من عدم تنفيذ التهديد - رحمة أو حكمة -.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾^(٢).

وقال سبحانه: - في المُرابي -: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣).

وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(٤).

وفي هذه الموارد ونحوها أمر خلوده في النار أو عفوّه منوط بمشيئة

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٤.

الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وعلى ما بيّناه فإنه مصداق (للسيئة) في قوله تعالى : ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ ، فالسيئة تشمل الشرك وغيره من الكبائر الموعود عليها الخلود في النار، مع فرق أن الشرك لا يغفر فالخلود حتمي، وفي غير الشرك خلوده أو عدم خلوده في النار منوط بمشيئة الله، إن شاء خلّده فيها وإن شاء عفا عنه.

السابع : ﴿وَأَحْطَطْ بِهِ﴾.

أي احتوته من جميع الجهات واستولت عليه ، فلا منفذ للخير فيه ، وذلك كالذي في الدخان ، فإنه لا يرى ولا يتنفس ولا يلمس إلا الدخان .

فالذي يرتكب السيئة بدون أن تحيط تلك السيئة به فإنه قد تكفّر عنه وتغفر له ، بأن يوفق للتوبة أو تمحى كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾^(٢) ، أو غير ذلك من أسباب الغفران .

ويستفاد من الآية أن الجاهل القاصر - المعذور في جهله - لا يخلّد في النار لأن ما يرتكبه من السيئات لا تحيط به بل قد لا تعتبر خطيئة وذلك لجهله - المعذور فيه - .

بل دل العقل والنقل أن الجاهل القاصر لا يستحق العقاب قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.

يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾.

وفي الروايات إن الله يمتحن في يوم القيامة الجاهل القاصر، فإن نجح في الامتحان لا يعذب، وإلا أدخله نار جهنم، ولعل كلمة ﴿عَسَى﴾ في الآية إشارة إلى ذلك، والله العالم.

الثامن: ﴿خَطِئْتُهُ﴾.

الخطيئة نفس ﴿السَّيِّئَةِ﴾ المذكورة قبل كلمات حيث قال سبحانه: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِئْتُهُ﴾، وتغيير التعبير لمراعاة الجهات البلاغية. ولعله يراد ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ - هنا - الذنب الصغير المعبر عنه بالصغيرة، و(بالخطيئة) عندما تتحول نفس الصغيرة إلى ذنب به يستحق صاحبه الخلود في النار، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فيكون المعنى - على هذا - إن السيئة الواحدة لا توجب الخلود في النار إلا إذا أحاطت بصاحبها واستولت عليه، بحيث لم نترك له منفذاً للخير. فتأمل.

التاسع: ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أما الخلود في الجنة فذلك مما لا إشكال فيه، لأن أصل الثواب تفضل من الله تعالى، واستمراره تفضل آخر.

ولكن كيف نفهم الخلود في النار مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(٢)؟ وقال سبحانه: ﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾^(٣).

(١) سورة النساء، الآيات: ٩٧ - ٩٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣١.


(٣) سورة النبأ، الآية: ٢٦.

والجواب :

أولاً: الخلود في النار هو نتيجة الاعتقاد أو العمل، فإن بعض الأعمال مدتها قليلة لكن توجب مشكلة دائمة، فالقتل مثلاً عملية قد لا تستغرق إلا ثوانٍ، ولكن نتيجتها وهي الموت أمدها طويل جداً، وكذلك الذي يصاب بحادث قد يبتلى بعاهة دائمة مع أن زمان الحادث كان قليلاً ونتيجته كانت دائمة.

وثانياً: والخلود أيضاً نتيجة النية، كما ورد عن أبي هاشم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الخلود في الجنة والنار، قال: إنما خُلد أهل النار في النار، لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خُلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خُلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا لو بقوا أن يطيعوا الله أبداً ما بقوا، فالنيات تخلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ ^(١) قال: على نيته ^(٢).

أما ما توهم ابن العربي وأضرابه من أن (أهل النار فمآلهم إلى النعيم ولكن في النار، إذ لا بدّ لصورة النار بعد انتهاء مدة العذاب أن تكون برداً وسلاماً على من فيهم) ^(٣).

فهو مخالف للعقل والنقل قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾  خُلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ^(٤).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٨.

(٢) فقه العقائد ص ١٣١ - ١٣٢ عن علل الشرائع ص ٥٢٣.

(٣) قاله في الفص اليونسي، كما نقله فقه العقائد ص ١٢٧.

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١٦١ - ١٦٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَنَتَنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْضَجَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١).

وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) سورة المائدة الآية: ٣٧.

المطلب السابع
(من أسباب انحراف بني إسرائيل)
(مخالفة أحكام الله)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ .

٨٣ - ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾ أي العهد المؤكد الشديد ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بواسطة أنبيائهم ، وكان الميثاق في الواجبات وترك المحرمات ، أما في الواجبات :

(١) ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي حصر العبادة في الله تعالى .

(٢) ﴿و﴾ أن تحسنوا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، ﴿و﴾ كذلك تحسنوا بـ ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ ولعل الترتيب مراعاة للأولوية ففي الإحسان يقدم الأبوان ثم القربى ثم اليتامى ثم المساكين .

(٣) ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً ذا حُسن بمعنى «قولاً حَسَنًا» .

(٤) (٥) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي الصلوات الخمس ، أو حسب الكيفية التي كانت في شريعتهم ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ زكاة المال ، أو الأعم من المال وغيره كالجاه والعلم ونحوها ، فإن لكل شيء زكاة .



الأول: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَ﴾

ويمكن أن يشمل الميثاق ما أودعه الله تعالى في فطرتهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (١).

الثاني: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

هذا إخبار يراد به الإنشاء أي أمرهم بعبادة الله، ونهيهم عن عبادة غيره، وهو أبلغ من صريح النهي، لإيهامه المسارعة إلى قبول النهي فكأنهم انتهوا عما نُهوا عنه فصار خبراً يخبر عنه.

والعبادة - هنا - هي الخضوع بقصد التأليه ، وهو مخصوص بالله تعالى ولا يجوز لغيره ، لأن الألوهية خاصة به .

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

وأصل العبادة هي الخضوع لشخص أو شيء.

وإن لم يكن الخضوع بقصد التأليه، فقد يجوز لغيره سبحانه وتعالى، فالسجود مثلاً - وهو أقصى درجة الخضوع - وجب على الملائكة لآدم، ﷺ وطُرد إبليس من رحمة الله لعدم سجوده لآدم، وكذلك جاز السجود ليوسف ﷺ لأنه لم يكن خضوعاً للتأليه بل خضوعاً للاحترام، وقد نسخ هذا في الشريعة الإسلامية.

وقد يكون معنى العبادة هو: الإطاعة، وهذه الإطاعة واجبة لله تعالى، ولمن أمر الله إطاعته، ولا تجوز إطاعة من يُضِلُّ عن سبيل الله تعالى.

وفي القرآن الكريم: ﴿يَتَأْتَى لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىْءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٢) والمعنى هنا النهي عن إطاعة الشيطان وأذّر لم يأله الشيطان بل كان يطيعه فيتبعه.

ومن هذا المعنى كلمة (العبد) فإن إطلاقها على بعض الناس إنما هو بمعنى المطيع، المملوك مطيع لمولاه فقيّل له (عبد)، قال تعالى: ﴿عَبْدًا مَّملُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾^(٤).

وبهذا المعنى - أي الإطاعة - أقرّ رسول الله ﷺ اسم (عبد المطلب) على بعض أصحابه ومنهم عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، مع أن (المطلب) اسم بشر وهو (المطلب بن هاشم).

(١) سورة مريم، الآية: ٤٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٥.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٢.

وقد ورد اسمه في صحاح العامة^(١).

وإذا جاز (عبد المطلب) فقد جاز (عبد الحسين) - مثلاً -، لأنه ما من شك بأن الحسين عليه السلام أفضل من المطلب.

ومن سخافة العقول أن بعض العامة، لا يجوزون التسمية بعبد الحسين لأنهم يعتبرونه شركاً، لكنهم يجوزون عبد المطلب استثناءً^(٢)!! وكأنَّ الشرك أمر قد يجوز بصفة استثنائية!!

الثالث: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

قال في مجمع البيان: وفي هذه الآية دلالة على ترتيب الحقوق، فبدأ الله سبحانه بحقه، وقدمه على كل حق، لأنه الخالق المنعم بأصول النعم، ثم ثنى بحق الوالدين وخصهما بالمزية لكونهما سبباً للوجود وإنعامهما بالتربية، ثم ذكر ذوي القربى لأنهم أقرب إلى المكلف من غيرهم، ثم ذكر حق اليتامى لضعفهم، والفقراء لفقرهم^(٣).

وفي بعض الروايات تأويل الوالدين برسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام لأنهما أبوا هذه الأمة، وذوي القربى بالأئمة عليهم السلام، واليتامى بمن ينقطع عن إمامه لا يقدر على الوصول إليه ولا يدري كيف حكمه، والمساكين بالذين ضعفت قواهم عن محاجة أعداء الله، فالإحسان للرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام شكرهم ومعرفة حقهم ورعاية حقوقهم، والإحسان إلى المنقطع عن إمامه هو هدايته وإرشاده وتعليمه شريعتهم وإخراجه من ظلمة جهله إلى نور العلم، والإحسان إلى ضعفاء الحجة

(١) مثلاً: صحيح مسلم، الزكاة، ترك استعمال آل النبي على الصدقة، الحديث رقم ١٧٨٤.

(٢) وهذا من فتاوى ابن باز في موقع فتاواه على الانترنت.

(٣) مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٧.

هو: تقويتهم بفقهم وتعليمهم حتى تُزال مسكنتهم، ثم يسلطهم على الأعداء الظاهرين من النواصب، وعلى الأعداء الباطنيين إبليس ومردته حتى يهزموهم عن دين الله ويذودوهم عن أولياء الله^(١).

الرابع: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

بمعنى قولوا للناس قولاً حسناً، فوضع المصدر موضع الصفة للمبالغة، كما يقال (زيد عدل) أي عادل - مبالغة -.

أو بحذف المضاف، أي قولاً ذا حُسن.

والقول الحَسَن يشمل: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإرشاد الجاهل، وردّ الاعتداء بالكلام وغير ذلك، لأنه كلام مطلق.

كما أنه يشمل غير القول أيضاً - من الأفعال - وذلك لتعميم القول، ولبعض الروايات وسيأتي بعضها.

وكذلك يشمل المؤمن وغير المؤمن وحتى الكافر، وعن الصادق عليه السلام: «وقولوا للناس كلهم حسناً - مؤمنهم ومخالفهم -، أما المؤمنون فيبسط لهم وجهه، وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان، فإن يئس من ذلك يكف شرورهم عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين^(٢)».

وعن الإمام الباقر عليه السلام «في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، قال: قولوا لناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم^(٣)».

(١) ملخص بعض الروايات راجع البرهان ج ١، ص ٤٥٧ - ٤٥٩.

(٢) البرهان ج ١، ص ٤٦٠. عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٣) الكافي ج ٢، ص ١٣٢، عنه في البرهان ج ١، ص ٤٥٤.

وعنه عليه السلام : «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله عز وجل يُبغض اللعان، السباب، الطعان على المؤمنين، الفاحش، المتفحش، السائل الملحف، ويحب الحيي، الحلیم، العفیف، المتعفف»^(١).

في الحديث الأول (أن يقال فيكم)، والثاني (أن يقال لكم)، والفرق هو ما يقال عن الشخص في غيابه، وما يقال للشخص في وجهه وبحضوره.

والقول الحسن هو الأصل، وقد يستثنى من ذلك بعض الموارد، وذلك فيما لو جرّد الكافر أو الناصب سيفه وجاهر بالعداء، فيجب ردّ اعتدائه ولو استدعى قتاله - وحسب الموازين الشرعية -، فعن سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أطمع سائلاً لا أعرفه مسلماً؟ فقال: نعم، أعط من لا تعرفه بولاية ولا عداوة للحق إن الله عز وجل يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، ولا تعط من نصب لشيء من الحق، أو دعا إلى شيء من الباطل^(٢).

ولعل ذلك حتى لا يكون تقوية له في باطله الذي يدعو له، أو ليكون رادعاً له عن الدعوة إلى الباطل والنصب.

وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾^(٣).

(١) أمالي الصدوق، ص ٢١٠ عنه البرهان ج ١، ص ٤٥٥.

(٢) الكافي ج ٢، ص ١٣٢ عنه في البرهان ج ١، ص ٤٥٤.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

وأما ما رواه الكليني رضوان الله عليه، بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، قال نزلت هذه الآية في أهل الذمة ثم نسخها قوله عز وجل: ﴿فَقُولُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ اللَّهَ وَلَا يَوْمَ الْآخِرِ﴾ النخ^(١).

فلعل المراد بالنسخ هنا هو التخصيص، لا النسخ الاصطلاحي، أو يقال بأن الحكم إذا أريد منه العام - بالإرادة الجديدة - ثم بعد فترة من العمل استثنى مورداً وشرع له حكم آخر، فإن هذا من النسخ أيضاً، لأن النسخ هو انتهاء أمد الحكم، والمورد كان له حكم ثم انتهى أمده وشرع له حكم آخر، وهنا كان يلزم القول الحسن حتى على المعتدي، فنسخ ذلك الحكم بالقتال أو دفع الجزية صاغرين.

الخامس: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾...

صلاتهم وزكاتهم كانت تختلف في تفاصيلها عما شرع في الإسلام فكانت بكيفية أخرى.

ومن المعلوم أن الدين من آدم عليه السلام إلى النبي الخاتم عليه السلام هو دين واحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٣). وقال عز من قائل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤)، فالاعتقادات واحدة، ولكن كانت تختلف الشرائع - وهي في الأعمال -،

(١) الكافي ج ٥، ص ١١ عنه في البرهان ج ١، ص ٤٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

ومع أن أصول الأعمال واحدة في كل تلك الشرائع، لكن الاختلاف في الجزئيات وفي الكيفيات، وخاصة في العبادات.

وكلّ ما ثبت نسخه من الشرائع السابقة فعلينا اتباع الحكم الجديد، وما لم يثبت نسخه فإن حكمه باق، وعليه فإن حكم كان في الشرائع السابقة يجب علينا اتباعه إلا فيما ثبت نسخه.

وقد يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾^(١) وكذلك باستصحاب الشرائع السابقة - بناءً على جريانه -.

فالدين قد كمل يوم الغدير بقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

وكمال الدين كان بتثبيت قسم من أحكام الشرائع السابقة، وبنسخ بعضها، فمن الأحكام الباقية: الصلاة والصوم والحج والزكاة وحرمة شرب الخمر ونحوها.

ومن الأحكام المنسوخة: صوم الوصال وصوم الصمت ونحوهما.

السادس: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾.

أي أعرضتم عن أحكام الله ونقضتم الميثاق، و«توليتهم» مأخوذ من «ولّى الدبر» إذا أعرض عن الشيء، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ تأكيداً، لإفادته نفس معنى (توليتهم)، وحسن هذا التوكيد لأن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

جملة ﴿وَأَنْتُمْ مُقَرَّبُونَ﴾ حال، وهي بلفظ آخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا﴾^(١) فالضاحك حال، والفعل وهو التبسم بنفس المعنى ولكن بلفظ آخر تأكيداً.

أو المعنى ثم توليتم وأنتم من عادتكم الإعراض، فيكون التولي هنا ناتج عن طبعهم في الإعراض، ومصادق من مصاديق إعراضهم.

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.

٨٤ - ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ العهد الشديد الأكيد، وهو ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يريق بعضكم دم البعض، وهو إخبار بقصد الإنشاء بمعنى: لا تسفكوا، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي لا يُخْرِجُ بعضكم بعضاً، ﴿ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ﴾ أي اعترفتم بلزوم الوفاء بهذا الميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بهذا الإقرار ولا تنكرونها، وتشهدون بإقرار أسلافكم به، وكذلك أقررتم على أنفسكم وشهدتم على غيركم.

٨٥ - ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ بعد ذلك الميثاق ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الناقضون له الناكثون

﴿وَلَكُمْ فِي الْوَقْتِ أَنْفُسُكُمْ تُنَاقِضُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، إذ هؤلاء الذين يقتلونهم وتخرجونهم ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ أُسْرَى﴾ أي إذا أسرهم غيركم واحتاجوا إلى الفدية لإطلاق سراحهم - فكأنهم جاؤكم مستغيثين - ﴿تَقْدُواهُمْ﴾ أي تدفعون الفدية، ﴿وَهُوَ﴾ أي الإخراج ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ لتوضيح ضمير «هو» تأكيداً حتى لا يتوهم رجوعه إلى الفداء، ﴿أَفْتَوْمُنُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو وجوب الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو حرمة القتل والإخراج، فما هذا التناقض؟، ثم احكموا أنتم بأنفسكم ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾؟ ولا يكون مصيره ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالتعير من الغير، والجزية صاغرين، وقتل وأسر بعضكم بيد المسلمين، وإجلاء البعض الآخر منكم، ﴿وَلَكُمْ فِي الْعَذَابِ الدُّنْيَا﴾ هذا العذاب الدنيوي لا يكفر عن ذنوبهم، بل ﴿وَيَوْمَ أَقْبَمَهُمْ يَوْمَ يَرُدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن العصيان شديد.

بحوث:

الأول: روي عن ابن عباس: أن قريظة والنضير كانا أخوين، كالأوس والخزرج، فافترقوا، فكانت النضير مع الخزرج، وكانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقاً لما في التوراة^(١) «فقل لهم كيف تقاتلوهم ثم تغدوهم؟ فيقولون: أمرنا أن نفديهم ونهينا عن قتالهم، ولكننا نستحي أن نذل حلفاءنا»^(٢).

وقد قال الله سبحانه عنهم: ﴿بِأَسْهَرِ يَنِينِهِمْ شَدِيدٌ﴾^(٣)، فهم شديدو الاختلاف فيما بينهم، وقال تعالى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٤).

وهذا أمر طبيعي، لأنه لما كان كل همهم الدنيا، وتجميع الثروات، ولم يكن لأمر الآخرة في حياتهم شأن، فحين تعارض المصالح الدنيوية تتحول صدورهم إلى محل للعداوة والبغضاء ويظهر ذلك حين البأس.

وأما ما يرى من اتحادهم فهو في الظاهر، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥).

الثاني: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

فإن ما يجري على أهل الدين الواحد، وكذلك القرابة الواحدة، فهو

(١) مجمع البيان ج ١، ص ٣٨٥.

(٢) الجواهر الثمين، ج ١، ص ١١٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الحشر، الآية: ١٤.

جارٍ على الآخرين أيضاً - خيراً كان أم شراً -، فسفك دم أحدهم إنما هو سفك لدمائهم، ولذا قال تعالى: ﴿دِمَاءُكُمْ﴾.

وفي الإسلام شُرعت قوانين تُعمّ القرابة وأهل الملة.

فمثلاً في قتل الخطأ توزع الدية على العاقلة، وهم أقرباء الجاني من طرف الأب، مع أنهم ليسوا قتلة، لكن بما أن القاتل قريبهم فكأن الكل ساهم في قتل الخطأ، هذا مضافاً إلى أنه نوع من التضامن الاجتماعي.

وكذلك عن رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائرُه بالسهر والحمى»^(١). فأهل الملة الواحدة ما يجري لأحدهم كأنه جارٍ على كلهم.

الثالث: ﴿أَنْفُسُكُمْ﴾ اعتبر الغير هنا نفس الإنسان، وذلك لاتصال أحدهما بالآخر بالنسب أو الدين، فكأن أحدهما نفس الآخر، ويمكن أن يكون المراد أن من يفعل عملاً بالنسبة للآخر فكأنما سنّ ذلك العمل فقد يجري عليه في المستقبل، فالذي يُخرج أو يقتل الآخر فقد شرّع للآخرين قتله أو إخراجه، ولذا ورد (من حفر بئراً لأخيه وقع فيها)، وقال سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرْكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾^(٢) فالذي لا يُراعي أيتام الغير قد لا تُراعى أيتامه من بعده.

الرابع: ﴿أَقْرَبُكُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

أخذ الميثاق كان بموافقتهم ورضاهم - وقد مرّ نظير ذلك -، والإنسان قد ينكر العهد فيحتاج إلى إشهاد عليه، كما في الآخرة حيث

(١) البهار: ج ٥٨ ص ١٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩.

يقوم الأشهاد وتشهد الأعضاء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) وَقَالُوا لِمَ جُلِدْتُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا^(٣)،

وهؤلاء لم يكونوا ينكرون ذلك العهد، ولذا أقرؤا على أنفسهم وشهدوا على بني جلدتهم، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي على أنفسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أقرانكم وبني دينكم.

الخامس: ﴿تَنْظَهُرُونَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي يعاون بعضكم بعضاً في القبيح ومجاوزة الحد بالإفراط في الظلم.

ومن المحرمات التعاون على الإثم، وكذلك إعانة الظالم في ظلمه ففي حرمة إعانة الظالم في ظلمه، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٤).

قال عليه السلام: من مشى إلى ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام^(٥).

وقال عليه السلام: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد أين الظلمة؟ أين أعوان الظلمة؟ أين أشباه الظلمة حتى من برئ لهم قلماً أو لاق لهم دواة، فيجتمعون في تابوت من حديد، ثم يرمى بهم في جهنم^(٦).

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٢٠ - ٢١.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٧.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٥) مجموعة ورام، عنه: إيصال الطالب ج ٣، ص ٢٧١.

(٦) المصدر السابق.

وفي حرمة التعاون على الإثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١).

ومن التعاون على الإثم المحرّم تظاهرها على الرسول ﷺ، كما ورد في سورة التحريم، حيث قال تعالى: ﴿إِنْ نُنَبِّئُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٢) حيث تعاونتا فيما يؤذي رسول الله ﷺ.

السادس: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ دلت الآية على أن من المحرمات إخراج الناس من بلدانهم وأماكنهم، وهو ما يعبر عنه الآن بالتسفير والتباعد.

ومن يفعل ذلك فإنما يتبع فسقة اليهود، حيث كان عملهم هذا كفر ببعض الكتاب كما قال تعالى عنه: ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، وكذلك هو اتباع المشركين حيث أخرجوا رسول الله ﷺ والمسلمين من ديارهم في مكة المكرمة. كما أن ذلك من أمانى المنافقين، قال تعالى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾^(٤)، وقال عز من قائل: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

والمؤمنون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، فإن الله تعالى يكافئهم أحسن جزاء المحسنين، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١.

دِيرِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُلُّنَهُمْ جَنَّتْ
بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿١﴾.

وجزاء من يُخرج المؤمنين من ديارهم شديد في الآخرة، وكذلك
لعملهم أثر وضعي وعقوبة شديدة دنيوية.

منها: جواز قتالهم، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا
وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيرِهِمْ يَغِيرُ حَتَّىٰ إِلَّا أَن
يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ ﴿٢﴾.

ومنها: عدم جواز توليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ
فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣﴾.

ومنها: جواز إخراجهم ووجوبه في بعض الصور قال تعالى:
﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

ومنها: هلاكهم قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ
لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٤﴾، أي لو أخرجوك لا يبقون بعدك
إلا قليلاً، لأن هذه سنة الله في الحياة، إلى غير ذلك.

السابع: ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

والمراد من الإيمان - هنا - : العمل طبق الحكم الشرعي، فهنا كانوا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٦ - ٧٧.

يعملون بالفداء الواجب، فكان هذا إيمان ببعض الكتاب أي تطبيق الحكم، فإن الإيمان يستعمل بمعانٍ متعددة، وقد يكون تداخل في بعض الأقسام، ومن المعاني:

١ - الإيمان مقابل الكفر، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(١).

٢ - الإيمان مقابل النفاق، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وقال
رسول الله ﷺ للإمام علي عليه السلام: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا
منافق»^(٣).

٣ - الإيمان مقابل الإسلام، فيكون مرتبة فوق الإسلام، قال تعالى:
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٤).

٤ - التصديق باللسان، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥) وقد مرّ توضيحها وأن المراد هو
الذين آمنوا بألسنتهم.

٥ - التصديق بالقلب، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ﴾^(٦)، وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ تَزَلْ تُوْمِنُ قُلُوبُهُمْ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) رواه من العامة مسلم في صحيحه.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٤١.

٦ - الدرجة العليا من التصديق والعمل ، قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) .

وهناك الكثير من الروايات التي تفصل في درجات الإيمان وتبين المعاني المختلفة له ، وقد روى بعضها ثقة الإسلام الكليني رضوان الله عليه في كتاب الكافي الشريف - كتاب الإيمان والكفر - ، ومنها : ما عن الإمام الباقر عليه السلام «ثم بعث الله محمداً ﷺ وهو بمكة عشر سنين ، فلم يمت بمكة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً ﷺ رسول الله إلا أدخله الله الجنة بإقراره وهو إيمان التصديق»^(٣) .

كما أن للكفر معان أيضاً :

فقد يكون كفر في العقيدة ويشمل ذلك المنافقين أيضاً ، قال سبحانه : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾^(٤) ، وقال تعالى عن المنافقين : ﴿لَا تَعْزِدُوهُمْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٥) .

وقد يكون كفر في العمل ، أي يعمل عمل الكفار مع كون العقيدة سليمة قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الانفال، الآيات: ٢ - ٤.

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر ج ٢، ص ٥٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٦٦.

حَمِيدٌ^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)، وهذا ما يعبر عنه بالكفر العملي، أي يعمل الإنسان عمل الكفار، لا أن ذلك العمل يخرج منه من الإسلام إلى الكفر.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام؛ قال: «الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النعم، فأما كفر الجحود فهو الجحود بالربوبية، وهو قول من يقول: لا رب ولا جنة ولا نار» إلى أن قال «وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقر عنده»^(٣).

وفي هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يراد من الإيمان والكفر هو التطبيق العملي، فهؤلاء كانوا يطبقون حكماً من أحكام الله وهو الفداء، ويخالفون حكماً آخر وهو حرمة الإخراج والقتل، ولأن هذا العمل هو عمل الكفار، لأنه يعمل حسب ما يراه من مصلحة، لا حسب أوامر الله، فلذا عبر عن عملهم بأنه إيمان ببعض وكفر ببعض.

وليس معنى ذلك إمكان اجتماع الكفر والإيمان في العقيدة، لأن من أنكر أصلاً من أصول الدين فهو كافر، حتى لو قبل جميع ما سوى ذلك،

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٣) الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب وجوه الكفر ج ٢، ص ٣٩٢.

وأما من اعترف بجميع أصول الدين فهو مؤمن - بالمعنى الأول للإيمان - حتى لو خالف بعض أوامر الله ونواهيه وكان من العصاة، أو كان جاهلاً بما سوى أصول الدين.

ولذا لا توجد واسطة بين الإيمان والكفر في أصول الدين، ويمكن أن يكون واسطة بين الإيمان والكفر في العمل ويعبر عنه بالضلال، فمن أنكر أصلاً من أصول الدين فهو كافر، ومن أنكر بعض العقائد اليقينية من غير أصول الدين، أو أنكر بعض فروع الدين المسلّمة، أو عصى بترك الأوامر وفعل المناهي، فإنه يكون ضالاً.

قال الشيخ الأنصاري رحمه الله في أحد وجهين: «ودلالة الأخبار المستفيضة على ثبوت الواسطة بين الكفر والإيمان، وقد أطلق عليه في الأخبار الضلال، لكن أكثر الأخبار الدالة على الواسطة مختصة بالإيمان بالمعنى الأخص، فيدل على أن من المسلمين من ليس بمؤمن ولا كافر، لا على ثبوت الواسطة بين الإسلام والكفر» نعم، بعضها قد يظهر منه ذلك^(١).

وفي مجمع البيان: «ومما يسأل في هذه الآية: أن ظاهرها يقتضي صحة اجتماع الإيمان والكفر وذلك مناف للصحيح من المذهب؟ والقول فيه أنهم أظهروا التصديق ببعض الكتاب، والإنكار للبعض دون بعض، وهذا يدل على أنهم لا ينفعهم الإيمان بالبعض مع الكفر بالبعض الآخر»^(٢).

(١) الرسائل، باب الانسداد، التنبيه الخامس الوسائل ج٦، ص ٩٣ - ٩٧.

(٢) مجمع البيان ج١، ص ٣٨٧.

الثامن: ﴿وَيَوْمَ أَلْقَيْمَةِ يُرَدُّونَ﴾.

الردّ يستعمل عادة ويراد به الرجوع إلى الشيء الذي كان فيه، وردّهم يوم القيامة قد يكون إشارة إلى أنهم في الدنيا كانوا في عذاب، وفي الآخرة أيضاً يعذبون، فكأنهم رُدّوا وأرجعوا إلى العذاب، ويمكن أن يكون إشارة إلى رجوعهم إلى أصولهم، فهم من النار وإلى النار، كما تشير إليه أخبار الطينة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل خلق المؤمن من طينة الجنة وخلق الكافر من طينة النار»^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: وخلق عدونا من سجين وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه ثم تلا هذه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَلِلَّيْمِزِ السَّكَدِينَ﴾^(٢).

وورد مضمون هذه الأخبار في كتب العامة أيضاً^(٣)، وتوضيحها أن الله تعالى قبل خلقهم علّم بكفرهم فخلقهم من طينة سجين، كما أنه قبل خلق المؤمنين علم بإيمانهم فخلقهم من طينة عليين وما دونها، ولعل وجه

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب طينة المؤمن والكافر حديث ٢، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) سورة الانفطار، الآيات: ٧ - ١٠.

(٣) ففي مسند البزاز ج ٨، ص ٤٦ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم قبض من طينته قبضة بيمينه: وقبضة بيده الأخرى فقال للذي بيمينه هؤلاء للجنة ولا أبالي وقال للذي بيده الأخرى: هؤلاء للنار ولا أبالي ثم ردهم في صلب آدم». وفي مختصر تاريخ دمشق ج ١، ص ٣٦: أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق قال حدث علي بن نصر البصري بسنده إلى علي بن الحسين عن أبيه رفعه قال: «إن الله عز وجل خلق عليين وخلق طينتنا منها وخلق طينة محبيننا منها، وخلق سجين وخلق طينة مبغضينا منها، فأرواح محبيننا تتوق إلى ما خلقت منه وأرواح مبغضينا تتوق إلى ما خلقت منه».

وكذلك صحيح ابن حبان ج ٢، ص ٥٠ ومسند أحمد بن حنبل ج ٥، ص ٦٨.

ذلك أن الجنة لا تتناسب إلا مع طينة عليين ونحوها، والنار لا تتناسب إلا مع طينة سجين، فخلق من سيختار الإيمان من سجين يكون سبباً لدخول طينة سجين إلى الجنة وهذا خلاف الحكمة، وكذلك خلق من سيختار الكفر من غير سجين يكون سبباً لدخول غير سجين في النار وهذا أيضاً خلاف الحكمة.

التاسع: ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

دلت الآية على أنه قد يجمع عذاب الدنيا وعذاب الآخرة على بعض الناس، لاستحقاقهم العقوبتين.

وعذاب الدنيا قد يكون بطريقة تكوينية، بأن أراد الله عذابهم تكويناً بتهيئة أسبابه، وقد يكون عذاباً تشريعياً، بأن يشرع عقوبة بعض الجرائم، وهذه العقوبة الدنيوية قد تكون تطهيراً للمجرم إذا تاب وكان مؤمناً، فلا يعاقب في الآخرة لذلك الذنب، فإن الله أكرم من أن يجمع بين عقوبة الدنيا والآخرة على المؤمن - كما في بعض الأحاديث -.

المطلب الثامن ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (تكذيب الرسل)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٨٧ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَفَقَيْنَا﴾ أي أتبعنا ، وأرسلنا بعضهم خلف بعض ﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ وكانوا مأمورين بالعمل بالتوراة والعمل على شريعة موسى ﷺ ، ثم بعد ذلك نسخنا شريعة موسى ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الإنجيل كما في قوله تعالى: (وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ)^(١) ، أو المعاجز كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ روح طاهرة ، أي جبرائيل عليه السلام حيث قوي عيسى به ، من قبل ولادته حين تمثل لأمه ، إلى حين رفعه إلى السماء ، لكنكم أيها اليهود لم تخضعوا لأمر الله بل اتبعتم أهواءكم ﴿أ﴾ الهمزة للتوبيخ والاستنكار ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

البشرية - في مراحل تطورها - إلى كثرة من يكون حلقة وصل بين السماء والأرض، وهم الأنبياء والرسل، ولبناء أمة مرضية مفضلة على العالمين كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ولتكون مثلاً يضرب بها في اللاحقين - في إيجابياتها وسلبياتها - ولعل ما مرّ به بنو إسرائيل من مراحل مختلفة في حياتهم هي أمور تمرّ بها جميع الأمم الأخرى في مراحلها المختلفة، فأرسل الله مختلف الرسل في كل تلك المراحل ليقوموا الأعمال ويرشدوا إلى الصواب، فيكونون قدوة لكل من يمرّ بتلك المراحل، وليعتبر الناس بما جرى على بني إسرائيل، ويشاهدوا نقاط القوة فيتبعونها حينما يمرون بنفس تلك الظروف، ويشاهدون نقاط الضعف وما آلوا إليه من مشاكل فيجتنبوها.

ولأن المثل يكون أسهل وأقرب للفهم والقبول إذا كان في أمة واحدة، فلذا خص الله بني إسرائيل بذلك فأرسل لهم الرسل تترى، ومن ثم جعلهم عبرة ومثلاً.

ولما وصل التطور إلى مرحلة احتاج انتقالها إلى مرحلة أسمى من المرحلة السابقة، أرسل الله عيسى عليه السلام بشريعة تناسب مرحلة التطور، كبرزخ بين تلك المرحلة وبين المرحلة النهائية التي بدأت ببعثة رسول الله محمد ﷺ.

الثاني: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

ذكر اسم عيسى في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً وكذلك ورد في أماكن مختلفة بلقبه المسيح، أكثرها أتبع بنسبه إلى أمه (مريم عليها السلام)، ولعل ذلك لنفي كونه ابناً لله كما زعمت النصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنُصْكَرَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ^(١) وكذلك لنفي بهتان اليهود عن مريم عليها السلام **﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾^(٢).**

الثالث: ﴿الْيَتَنَّتْ﴾.

البيانات الدلائل الواضحة التي لا مجال لإنكارها إلا بالتكبر عن الحق، وهي معاجز عيسى عليه السلام، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وإخبارهم بما يأكلون في بيوتهم، وكل ذلك بإذن الله تعالى، ولذا قال تعالى: **﴿وَأَتَيْنَا﴾** أي أعطيناه من لدنا.

والبيانات تشمل الإنجيل أيضاً لأن فيه الدلائل الواضحة على صدق عيسى عليه السلام كما قال تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾^(٣).**

الرابع: ﴿وَأَيَّدَتْهُ بُرُوجُ الْفُؤَادِ﴾.

أي قويناه بجبرائيل عليه السلام.

وفي مجمع البيان: وإذا قيل لِمَ خَصَّ عيسى عليه السلام من الأنبياء بأنه مؤيد بجبرائيل، وكل نبي مؤيد به؟

فالقول فيه: إنه إنما خُصَّ بذلك، لثبوت اختصاصه به من صغره إلى كبره، فكان يسير معه حيث سار، ولما هَمَّ اليهود بقتله لم يفارقه حتى صعد به إلى السماء، وكان تمثل لمريم عند حملها به وبشرها به ونفخ فيها^(٤).

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٣.

(٤) مجمع البيان ج ١، ص ٣٩٢.

وروح القدس بمعنى الروح الطاهرة عن الآثام، من باب إضافة الموصوف إلى الصفة كما يقال حاتم الجود.

وهو جبرائيل عليه السلام لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(١) وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾^(٢).

ولعل ذلك من علل عداوة اليهود لجبرائيل عليه السلام حيث أيد الله تعالى عيسى عليه السلام به، وأنزل القرآن على رسول الله محمد ﷺ به.

الخامس: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

أي: وفريقاً قتلتم، ونسب القتل إليهم لأن هؤلاء رضوا بما فعله أسلافهم فكأن القتل مستمر فيهم، أو لأن القتل من طبعهم فإن تهيات لهم الظروف لقتل أي رسول لفعلوا ذلك، كما روي أن امرأة منهم أهدت رسول الله ﷺ طعاماً مسموماً لتقتله^(٣)، ولعل ذلك سبب المجيء بصيغة المضارع في تقتلون، أو مراعاة للفاصل في الآيات التي انتهت بالنون.

وبما أن ما جرى على بني إسرائيل يجري على أمة محمد ﷺ، لأن الأمم تشترك في نقاط القوة والضعف، وقد روت العامة ذلك أيضاً^(٤)، لذا فإن المستكبرين في هذه الأمة كذبوا فريقاً من آل محمد وقتلوا فريقاً آخر، وفي تفسير العياشي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «ذلك مثل موسى

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٧، ص ٢٣٢.

(٤) البخاري، أحاديث الأنبياء، ما نكر عن بني إسرائيل، رقم الحديث ٣١٩٧ ونصه «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه، قلنا، يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

والرسل من بعده وعيسى صلوات الله عليهم، ضرب مثلاً لأمة محمد ﷺ فقال الله لهم: فإن جاءكم محمد بما لا تهوى أنفسكم بموالاته علي، استكبرتم، ففريقاً من آل محمد كذبتهم، وفريقاً تقتلون، فذلك تفسيرها في الباطن»^(١) أي أن ذلك من التأويل.

السادس: ﴿عُلْفٌ﴾.

جمع أغلف أي على قلوبنا غطاء فلا نفهم ما تقول. وقيل: إن عُلف مخفف (عُلْف) بضمتين جمع غلاف، أي إن قلوبنا أوعية للعلوم فلا نحتاج إلى ما تقول، أو لا نجد أثر لما تقول في علومنا فكأنه أكاذيب.

وعلى الأول يكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ إِذْ آتَيْنَا وَقُرْ﴾^(٢).

وعلى الثاني يكون من عجبهم بما عندهم، وتكبرهم عن قبول الحق إذا جاء من غيرهم.

السابع: ﴿بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

اللعن هو الطرد والإبعاد، ولَعَنَ الله هو طردهم وإبعادهم عن رحمته وخيره.

وقد ورد اللعن في أربعين موضعاً من القرآن الكريم، فلزم القول بأن اللعن ثقافة قرآنية، فإن ما ورد في آية واحدة هو ثقافة قرآنية، فما بالك بما ورد في أربعين موضعاً.

بل اللعن سنة الله تعالى التي لا يبدلها سبحانه وتعالى، ففي القرآن

(١) عنه البرهان ج ١، ص ٤٦٦ وقريب منه ما في الكافي.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥.

الكريم: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١).

فلعن هؤلاء وقتلهم سنة إلهية غير قابلة للتبديل نفيًا مؤبدًا.

وإن دعاة إلغاء اللعن من برنامج المسلمين، إنما هم يدعون إلى إلغاء هذه الآيات الكريمة من القرآن، ظناً منهم أن اللعن أمر قبيح مخالف للعقل والمنطق، فهؤلاء يؤمنون ببعض الكتاب لكنهم ينكرون بعضه!! عصمنا الله من الزلل ومن الانهزامية والتأثر بالتهريج والأراجيف التي يشرها أعداء الإسلام وأعداء أهل البيت عليه السلام.

وللعن فوائد كثيرة، منها: إيجاد حصانة فكرية ونفسية ضد الملعون، وإيجاد شعور باطني بلزوم الابتعاد عنه وعدم التأثر به، فأعداء الله تعالى قد يكون لهم بريق أو إعلام مضلل وتهريج مما يتأثر به الإنسان، فلعنهم يوجب تركيز البراءة منهم وعدم التأثر ببريقهم الزائف، إضافة إلى أن الله تعالى يحفظ المؤمنين بلعنهم أعداءه من التأثر بهم.

وهنا باختصار نشير إلى الملعونين في القرآن، وإلى الأعمال الموجبة للعن في القرآن، وإلى اللاعنين في القرآن الكريم.

القسم الأول

الملعونون في القرآن:

وهم طوائف، فمنهم من لعنوا بأسمائهم، ومنهم من لعنوا بقبائلهم وأقوامهم، ومنهم من لعنوا بأفعالهم.

(١) سورة الأحزاب الآيتان: ٦١ - ٦٢.

* فمن لُعِنوا بأسمائهم:

- ١ - إبليس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَّعْنَهُ اللَّهُ﴾^(٢).
- ٢ - فرعون، قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَأَتَّبَعْتُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾^(٤)، ويدخل في الآيتين قوم فرعون وجنوده.

* ومن الذين لُعِنوا بأقوامهم وقبائلهم:

- ١ - عاد، قال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾^(٥).
 - ٢ - بنو أمية، قال سبحانه: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾^(٦).
 - ٣ - أصحاب السبت، قال تعالى: ﴿كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾^(٧).
 - ٤ - اليهود، قال سبحانه: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾^(٨)، وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾^(٩).
- لأن أصحاب السبت كانوا طائفة من اليهود، ولأن اليهود هم قوم من بني إسرائيل، لذا أدخلناهم في هذا الصنف.
- ٥ - قوم فرعون وجنوده، وقد مرّ ذكرهم عند ذكر لعن فرعون.

(١) سورة ص، الآية: ٧٨.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١١٧، ١١٨.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٩.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤٢.

(٥) سورة هود، الآية: ٦٠.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٧) سورة النساء، الآية: ٤٧.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

(٩) سورة النساء، الآية: ٥٢.

* ومن الذين لُعِنوا بأفعالهم:

- ١ - الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾.
- ٢ - المشركون، قال تعالى: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾^(٢).
- ٣ - المنافقون، لُعِنوا في الآية السابقة أيضاً، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).
- ٤ - القاتل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾^(٤).

القسم الثاني الأعمال الموجبة لللعن

إضافة إلى ما مرّ من الكفر والشرك والنفاق والقتل، فقد ذكر القرآن الكريم بعض الأعمال التي يستحق فاعلها اللعن ومنها:

- ١ - الإيمان بالجبّات والطاغوت، واعتبار الكفار أهدي من المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبَتِ وَالْطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾^(٥).

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٥) سورة النساء، الآيتان: ٥١ - ٥٢.

٢ - القول الباطل في الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(١).

٣ - سوء الظن بالله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾^(٢).

٤ - إيذاء الله ورسوله، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٣).

٥ - كتمان البينات والهدى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(٤).

٦ - مخالفة أحكام الله تعالى، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٥).

٧ - قذف المحصنات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٦).

٨ - الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٧).

٩ - نقض الميثاق، ذكر في الآية التالية، وغيرها.

١٠ - الفساد في الأرض ذكر في الآية التالية، وغيرها.

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٦.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

(٦) سورة النور، الآية: ٢٣.

(٧) سورة هود، الآية: ١٨.

١٢ - قطع الأرحام قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١).

١٣ - الإرجاف وإخافة المؤمنين، قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ إلى أن قال: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾^(٢).

١٤ - الكذب، قال سبحانه: ﴿فَتَجْعَلُ اللَّهُ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ﴾^(٣).

القسم الثالث اللاعنون في القرآن

فالله تعالى هو الذي يطردهم من رحمته إلى العذاب والخزي وأما غيره فإنهم يدعون الله ليطرد هؤلاء من رحمته.

فاللعن من الله هو الطرد، واللعن من الناس هو الدعاء عليهم.

وأما اللاعنون: فمنهم: الأنبياء كقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٤).

ومنهم: الملائكة قال تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةً اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٥).

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠ - ٦١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨٧.

ومنهم: الناس أجمعون، كما في الآية السابقة.

ومنهم: طرفا المباهلة، قال تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١) فرسول الله ﷺ وأهل البيت ﷺ شُرِّعَ لهم لعن الكاذبين وهم النصاري، كما شُرِّعَ للنصاري لعن الكاذبين الذين هم أنفسهم، ولذا خافوا ولم يباهلوا ورضوا بالجزية.

ومنهم: طرف اللعان في رمي الرجل زوجته: ﴿وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

هذا كله في اللعن بلفظه الوارد في القرآن، وقد ورد في القرآن معنى اللعن بألفاظ أخرى كالرجيم، وغضب الله، والعذاب، ونحوها، لأن اللعن الطرد من رحمة الله تعالى وهذه مصاديق للطرد منها، والعياذ بالله.

كما يلزم تحري الدقة والالتزام باللوازم الشرعية، فلا لعن إلا لأعداء الله وأعداء أوليائه ومن لعنهم الله تعالى ورسوله وأهل بيته ﷺ.

وكذلك ينبغي مراعاة سائر أحكام الشرع من: التقية، والمداراة، ونحوهما، وحسب الضوابط الشرعية، التي يكون تشخيصها - حكماً وموضوعاً - لدى أهل الاختصاص في الشرع، وهم الفقهاء العدول.

الثامن: ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾.

أي لم يكن لعنهم اعتباراً لأن الله عادل حكيم، بل كان بسببهم، فإنهم كفروا فاستوجبوا اللعن، وفي هذه الآية ردّ على المجبرة الذين يزعمون أن الإنسان مجبور في أفعاله - مؤمناً كان أو كافراً -، لأن هؤلاء

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٢) سورة النور، الآية: ٧.

اليهود حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ فَإِنْ قولهم هو نفس قول هؤلاء المجبرة: من أن على القلوب ما يمنع الإيمان ويحول بينها وبين الإيمان، فكذبهم الله تعالى في ذلك بأن لعنهم وذمهم، ولو كان اليهود صادقين لما استحقوا اللعن، ولكان الله تعالى قد كلفهم ما لا يطيقونه^(١)، فقلوبهم كقلوب غيرهم خلقت على الفطرة لها قابلية الإيمان وقبول الحق، كما روي عن رسول الله ﷺ «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيَنْصَرَانِهِ وَيَمَجَّسَانِهِ»^(٢).

(١) مجمع البيان ج ١، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ - بتصرف -

(٢) التبيان في تفسير القرآن: ج ٨، ص ٢٣٧.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

٨٩ - بعد أن ذكر الله تعالى مثالين من تكذيبهم الرسل ، أتبعه بمثال ثالث وهو تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ فقال : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿كِتَابٌ﴾ هو القرآن ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي من الله ، والقرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب السماوية كالطورا ، لأنها أخبرت بأمر مستقبلي وهو بعثة محمد ﷺ بنزول القرآن عليه تحقق هذا الإخبار ، ولأن القرآن يصدق الطورا غير المحرفة لأن كليهما من عند الله .

﴿وَ﴾ هؤلاء اليهود ﴿كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ البعثة على علم ببعثة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه ، ولذا كانوا ينتظرون الرسول وكتابه ، وكانوا ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يطلبون الفتح والغلبة بواسطة الرسول والقرآن ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أعدائهم من مشركي العرب ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ بصفاته ومزاياه ، وعلموا انطباق تلك الأوصاف على رسول الله

محمد ﷺ، وعلى القرآن ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ وهذا أوجب طردهم من رحمة الله ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

٩٠ - ﴿يُسْكَأ﴾ أي بئس الشيء الذي ﴿أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي باعوا أنفسهم وحصلوا مقابله على العذاب الدائم، وتمت عملية الاشتراء والبيع عبر ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ أي كفرهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ ﴿بَغْيًا﴾ أي كفرهم لأجل الحسد وطلب ما ليس لهم، حيث كانوا يتوقعون أن يكون النبي منهم لا من نسل اسماعيل عليه السلام، وسبب بغيتهم وحسدتهم هو ﴿أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ﴾ الكتاب ﴿مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ لا على من يشاؤون، لأن الله يتصرف بحكمته لا بأهواء الناس، ﴿فَبَاءُوا﴾ أي رجعوا من هذه المعاملة ﴿بِفَضْبٍ﴾ من الله عليهم ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ إضافة إلى غضبه السابق عليهم بكثرة معاصيتهم ومخالفتهم أوامر الله والأنبياء ﷺ، ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي مذل، وخلاصة معاملتهم كان بيع أنفسهم بكفرهم، وشراء غضب الله وعذابه، وسبب هذا العمل هو الحسد.



بحوث:

الأول: ﴿مُصَدِّقٌ﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية دليلين يوجبان الإقرار بصحة القرآن ونبوة رسول الله محمد ﷺ، بحيث يلزمهم بالإيمان بهما، وتتم الحجة عليهم:

١ - إن القرآن تصديق للتوراة، فإذا صحت التوراة صح القرآن أيضاً -
لما سيأتي -، فما داموا قبلوا التوراة وأقروا بصحتها فيلزمهم الإقرار
بالقرآن والإيمان بمحمد ﷺ للتلازم بينهما .

٢ - إنهم كانوا يعلمون ببعثة الرسول ﷺ ونزول الكتاب عليه من
قبل، وكانوا يجهرون بذلك أمام المشركين، ولم يكن هذا مجرد تمنيات،
بل قائم على أسس صحيحة من إخبار الأنبياء السابقين وكتبهم، فلما بُعث
فإنه كان الرسول ﷺ علمهم السابق يكفيهم في الإيمان به .

الثاني: ﴿لَمَّا مَعَهُمْ﴾.

وتصديق القرآن لما معهم - من كتب كالتوراة - لجهات عدة، منها :

١ - لأن تلك الكتب منزلة من الله تعالى، فكل واحد منها يصدق
الآخر ولا اختلاف بينها، عكس كتب البشر، حتى أن الكتاب الواحد
لمؤلف واحد قد يكون فيه اختلاف، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ
اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

ولذا كان التصديق بجميع الأنبياء والكتب السماوية لازماً، إذ هو
تصديق بالله تعالى، وتكذيب أحدهم وأحدها تكذيب له سبحانه، قال
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾^(٢)، وقال
سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾^(٣)، وقال عز من قائل:

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾^(٢).

فقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو كالنتيجة لقوله: ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي نتيجة كونه من عند الله هو تصديقه لما معهم.

٢ - النبوة إذا لم تتحقق يتبين كذب قائلها وكذب الكتاب الذي جاءت فيه ، والكتب السماوية السابقة كالتوراة ، أخبرت ببعثة رسول الله محمد ﷺ ، فلما بعث رسول الله ﷺ ونزل القرآن تبين صدق التوراة والكتب السماوية التي بشرت بهما .

٣ - إن هذا التصديق هو دليل حقانية الرسول محمد ﷺ وصدقه ، وذلك لأن طالبي الدنيا والرئاسة إذا عارضهم أحد أو مجموعة وشكّلوا خطراً ، فإنهم يستعملون جميع الأساليب غير المشروعة لقمع أولئك المعارضين ، ومن جملتها التنقيص منهم والنيل من مقدساتهم وتكذيبها .

ولما كان اليهود من أشد أعداء الرسول ﷺ وكانوا يحاربونه من مختلف الجهات - عسكرياً واقتصادياً ودينياً وغيرها - ، وكان الرسول ﷺ يدافع عن نفسه والدين برّد كيدهم وإفشال مؤامراتهم ، فمقتضى الحال في طالبي الرئاسة كان يقتضي إنكار مقدساتهم ، لكننا نجد القرآن الكريم مليء بتبجيل مقدسات اليهود - من الأنبياء والكتب - ، بل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

حتى تنزيه أنبيائهم من بعض النقائص التي توهموها فيهم، فكان هذا دليلاً على أن محمداً ﷺ رسول من الله وليس طالب رئاسة.

الثالث: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الاستفتاح هو طلب الفتح، وطلبهم للفتح قد يكون عبر:

١ - الانتظار والصبر على الأذى الذي كانوا يتحملونه من الكفار، إلى أن يُبعث الرسول فينقذهم من ظلمهم.

٢ - توعدهم أهل الأصنام بأن رسولاً سيُبعث فيكسر أصنامهم، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام: «كان قوم بين محمد وعيسى صلوات الله عليهما، كانوا يتوعدون أهل الأصنام بالنبى ﷺ ويقولون ليخرجن نبى، وليكسرن أصنامكم، وليفعلن بكم ما يفعلن، فلما خرج رسول الله ﷺ كفروا به»^(١).

٣ - دعاء الله بحق الرسول ليهيئ لهم أسباب النصر، فكانوا يسألون الله الفتح والظفر بحق النبى المبعوث.

فإن الله تعالى تفضل على بعض عباده المؤمنين، بأن جعل لهم حقوقاً عليه - وذلك من أعظم حقوقه عليهم -.

كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

كما أن التوسل بالرسول ﷺ مما اتفقت على جوازه كلمة

(١) البرهان ج ١، ص ٤٧٥ عن الكافي الشريف.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٣.

المسلمين، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾^(١). ودلت عليه الأحاديث الصحيحة.

وأما شأن النزول، ففي الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «كانت اليهود تجد في كتبها أن مُهاجر محمد ﷺ ما بين غير واحد^(٢)، فخرجوا يطلبون الموضع . . . فمرّ بهم أعرابي من قيس فتكاثروا منه وقال لهم أمرٌ بكم ما بين غير واحد؟ فقالوا له: إذا مررت بهما فأذنا بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة قال لهم ذاك غير وهذا أحد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا قد أصبنا بغيتنا . . . ، فلما كثروا [أي الأوس والخزرج] كانوا يتناولون أموال اليهود، وكانت اليهود تقول لهم: أما لو قد بعث محمد لنُخرجنكم من ديارنا وأموالنا. فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنت به الأنصار وكفرت به اليهود^(٣).

وتأويل الآية بني أمية حيث كفروا بعلي عليه السلام كما عن الإمام الباقر عليه السلام على ما رواه العياشي^(٤).

الرابع: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

دلت الآية على أن لعنهم ليس لأجل نسبهم أو أصلهم، بل إنها لأجل أفعالهم، فاللعنة تبعتهم لكفرهم.

فالأرجح جعل اللام في «الكافرين» للجنس، أي اللعنة تشمل كل الكافرين، فشمولها لليهود لكونهم مصداقاً للكافرين، حيث لم يكن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٢) هما جبلان في أطراف المدينة المنورة.

(٣) البرهان ج ١، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ عن الكافي الشريف ومثله.

(٤) عن تفسير العياشي، البرهان ج ١، ص ٤٧٥.

محركهم الحق بل العصبية، فلذا كفروا برسول الله ﷺ لما تبين لهم أنه ليس من بني إسرائيل، بل من ولد اسماعيل عليه السلام.

الخامس: ﴿يَتَّخِذُونَ أَنْفُسَهُمْ سُلُكًا﴾.

حاصل الآية هو تشبيه كفرهم بمعاملة بيع خاسرة:

البائع فيه: هؤلاء اليهود.

المشتري: أنفسهم.

الثمرة: قليل من الدنيا.

وسيلة البيع: الكفر بما أنزل الله.

سبب المعاملة: الحسد وطلب ما ليس لهم.

النتيجة: خسارة الدنيا والآخرة، بغضب الله عليهم وعذابهم المهيمن.

ووجه التشبيه ما ذكره الوالد رضوان الله عليه في (كتاب تقريب القرآن إلى الأذهان):

(فكأنَّ الكفر والإسلام سلعتان، فمن اختار أحدهما باع نفسه بذلك الشيء، إذ يصرف نفسه في سبيل ذلك، فإذا باع نفسه مقابل الإسلام كان نعم ما اشترى به نفسه، وإذا باع نفسه مقابل الكفر كان بثمن ما اشترى به نفسه، واشترى هنا بمعنى البيع)^(١).

وقد وردت آيات عدة في القرآن فيها هذا التشبيه:

فحول المؤمنين قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١، ص ١٥٤.

وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةُ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^(٢).

كما ورد هذا التشبيه بلفظ البيع، قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾^(٣).

السادس: ﴿بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ﴾.

الظاهر (أنزل) و(نزل) و(نزل به) بمعنى واحد، لأن (نزل) لازم، وطرق تعديته: إما بحرف الجر أو باب الإفعال أو باب التفعيل.

وفي قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُوا بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ﴾ حيث استعمل كلا البابين - الإفعال والتفعيل -، دلالة على عدم الفرق في المعنى اللغوي بينهما.

نعم نزول القرآن دفعة على قلب الرسول مرة، وبالتدريج مرة أخرى دلت عليه الروايات من غير تغيير في المعنى اللغوي.

ويمكن أن يكون المعنى أن يكفروا بالقرآن بغياً لأجل أن يبعث الله محمداً ﷺ فيكون معنى ﴿أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ﴾ أي أن يختار الله للنبوّة من يشاء.

السابع: ﴿أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

دلت الآية على أن النبوة فضل من الله سبحانه وتعالى، فليس لأحد حق على الله تعالى، إلا بما يتفضل الله عليه، بأن يشرع له حقاً - تكويناً أم

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١١.

تشريعاً -، أو يتفضل الله على أحد بأن يجعل له حقاً عليه كما مرّ في البحث الثالث .

والسؤال: لماذا فضل الله البعض ولم يفضل البعض الآخر؟ وقد يتساءل البعض: أليس ذلك من الظلم؟ فلو كان الله يجعل الكفار والعصاة معصومين لكانوا في مصاف الأنبياء والأوصياء؟

والجواب على ذلك من وجوه:

١ - إن الله تفضل على جميع المخلوقات بأن خلقها، وغمر الإنسان بنعمه الظاهرة والباطنة كل ذلك تفضل منه، وما دام الأمر تفضلاً فلا مانع عقلاً من التفاوت في درجات التفضل، كمن يساعد الفقراء بمقادير متفاوتة من غير حق لهم عليه، فلا يحق لمن أخذ الأقل أن يعترض .

٢ - إن نظام الكون خلق على التفاضل في كل شيء، وهذا من الحكمة في الخلق والجمال فيه، ولولا ذلك لزم خلق جميع الموجودات على نمط واحد وشكل واحد، مما كان يؤدي إلى اختلال النظام .

فالجمادات بعضها أرفع من بعض، والنبات أفضل من الجماد، والنباتات فيها تفاضل، والحيوان أفضل منها، وبين الحيوانات تفاضل، والإنسان أفضل منها، والناس بعضهم أرفع من بعض، وأعضاء الإنسان بعضها أشرف من بعض وهكذا، فلو ألغي نظام التفاضل لانتفت الحكمة من خلق هذا العالم .

أما ما يقال: من أن الماهيات لها سعة خاصة فالله يفيض الوجود على كل ماهية حسب سعتها وقابليتها، ففيه تأمل من جهات متعددة، لأن الماهية قبل إفاضة الوجود عليها معدومة والعدم لا شيء ولا يحكم عليه

بشيء وليس له سعة أو قابلية ولا أي شيء آخر، وأما ما يقال من أن
العدم الخاص له حظ من الوجود، فكلام متناقض متهافت لأن الوجود
والعدم نقيضان لا يمكن أن يجتمعا.

والتفاضل قد يكون تكوينياً أو تشريعياً أو في الثواب، والآيات الدالة
على التفاضل في هذا العالم كثيرة منها:

١ - التفاضل في النباتات، قال سبحانه: ﴿وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأُكُلِ﴾^(١).

٢ - التفاضل في الجنس، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ
بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢).

٣ - التفاضل في المنصب الإلهي، قال عز من قائل: ﴿تِلْكَ أَلْسُلُ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣).

٤ - التفاضل في القابليات، قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِّيَسْخَرُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾^(٤) أي يُسَخَّر بعضهم للأعمال للبعض
الآخر.

٥ - التفاضل بين المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ
مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٥) أي بني آدم فضلوا على كثير من المخلوقات.

٦ - التفاضل بين الأمم، قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

٧ - التفاضل في الرزق، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾^(١).

٨ - التفاضل في الثواب، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

ولذا يغلط من ينكر مقامات الأنبياء والأئمة عليهم السلام استناداً إلى فهمه القاصر من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾^(٢) فإن هذه الآية ليست لإثبات التساوي في الفضيلة والمقامات الإلهية، بل لإثبات التشابه في التركيب الجسدي قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤).

كل ذلك للدلالة على أنه من هذا الجنس البشري، لأن الله أرسل الرسل ليقتدى بهم وليكونوا أسوة، ولا يمكن الاقتداء بهم إلا إذا كانوا من جنس المرسل إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾^(٥).

الثامن: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ما يشاؤه الله تعالى ليس اعتباطاً لأن الله تعالى حكيم، والحكمة وضع الشيء في مواضعها قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

(١) سورة النحل، الآية: ٧١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الانعام، الآية: ٩.

التاسع: ﴿يَغْضَبُ عَلَى غَضَبٍ﴾.

المراد هو تضاعف الغضب عليهم، فمن مصاديقه الغضب عليهم لما عبدوا العجل وخالفوا موسى عليه السلام، ولما كذبوا بعباسي عليه السلام، ولما كذبوا رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله، وكذلك مسخهم، وكذا وقتلهم بسيوف المسلمين.

ولعل المراد به الغضب عليهم في هذه الدنيا وأما الآخرة فالعذاب المهين لهم، فيكون ﴿يَغْضَبُ عَلَى غَضَبٍ﴾ إشارة إلى الذل والمسكنة ونحوها مما أصيبوا به هنا، و﴿وَلَا كُفْرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ إشارة إلى عذابهم الآخروي.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١).

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٢.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِمْ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾

٩١ - وأما حجتهم على عدم اتباع الرسول ﷺ فهو دليل باطل وهم يكذبون فيه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على محمد ﷺ ﴿قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ فالمهم عندهم ما كان يرتبط بهم، لا بما أنزل الله ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي ما أنزل من بعد التوراة كالإنجيل والقرآن ﴿وَ﴾ الحال أن ما بعد التوراة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة، لكنهم كاذبون في ادعائهم بإيمانهم بالتوراة، لأنهم يخالفونها.

وهنا ثلاثة أدلة على كذبهم، فأولاً: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ

قَبْلُ ﴿ نَزُولَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة المحرمة للقتل، فما بالك بقتل أنبياء الله تعالى.

٩٢ - والدليل الثاني على كذبهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآيات الواضحات ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي عبدتموه ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ذهاب موسى للطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم، وكان عملكم عن تعمد وقصد، فلا عذر لكم، فإذا خالفتم موسى والتوراة في أهم الأمور وهي عبادة الله إلى عبادة العجل فهل أنتم مؤمنون بها؟

٩٣ - والدليل الثالث على كذبهم: هو مخالفتهم للميثاق وعصيانهم ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ العهد الشديد ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ أي الجبل أو قطعة منهم، فعاهدتم وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بشدة وذلك بالعمل المستمر بما في الميثاق، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أوامر الله تعالى سماع انقياد وطاعة، ﴿قَالُوا﴾ بالسنتهم أو بلسان حالهم ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك، ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي امتلأت قلوبهم وتداخل فيها ﴿الْعِجْلَ﴾ أي حب العجل وعبادته، وكان سبب ذلك ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾ الكامن في نفوسهم.

فكل ذلك دليل على كذبهم بأنهم يؤمنون بالتوراة، بل هم لا يؤمنون إلا بمصالحهم ﴿قُلْ يَسْمَا يَا مُرْكُم بِمَ إِيمَنَكُمْ﴾ المزعوم بالتوراة، حيث زعمتم أنها تأمركم بالكفر بمحمد ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بها، لكن الأمر ليس كذلك بل أنتم لا تؤمنون حتى بالتوراة.



بحوث:

الأول: ﴿يَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

يدل على أن إيمانهم بالتوراة لم يكن إيماناً حقيقياً، بل لأنه كان مرتبطاً بهم وأنزل عليهم، ولولا ذلك لما كانوا يؤمنون به، ولأن هدفهم كان ذلك فإن المحور عندهم كان أنفسهم، فلذا كلما تعارضت التوراة مع مصالحهم وأهوائهم خالفوها وجعلوها وراء ظهرهم.

وهذا من العصبية البغيضة، التي تسوق الإنسان إلى خلاف الحق والحقيقة إرضاءً لغروره وهوى نفسه.

وقد ابتلى بهذا الداء بعض الأعراب، حيث لم يكن إيمانهم برسول الله إلا لأنه من العرب، لا لأنه مبعوث من قبل الله تعالى، قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾^(١).

الثاني: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾.

القرآن الكريم هو الحق المطلق. وحتى لا يتوهم أن كون القرآن حقاً معناه أن التوراة غير المحرفة باطل، جاء بقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾، فكون القرآن حقاً لا ينافي كون التوراة الأصلية حقاً أيضاً، لأن القرآن يصدّق التوراة، فكون القرآن الحق يلازم أيضاً كون التوراة حقاً، لأن الحق يصدق الحق، ولا يمكن أن يصدّق الحق باطلاً.

مضافاً إلى بيان أن من مصلحتهم أيضاً القبول بالقرآن والإيمان

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٨ - ٢٠١.

بمحمد ﷺ، لأن القرآن يصدّق كتابهم ولا يكذبه ويصدق بمقدساتهم من الأنبياء والكتب.

ولكنهم قوم جاهلون كاذبون، فلا الحق يتبعوه ولا مصالحهم الصحيحة يفهمون، وإنما يتوهمون مصالح خسرتهم الدنيا والآخرة.

الثالث: ﴿تَقُولُونَ أَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

نسب فعل أسلافهم إليهم - كما مرّ - لرضاهم بفعلهم، ولأن طبعهم نفس طبع أسلافهم، ولمحاولتهم قتل رسول الله محمد ﷺ وقد دسّوا له السُّم.

وهذا دليل على كفرهم بالتوراة، لأن التوراة تحرم القتل صراحة في الوصايا العشر، وقتل الأنبياء أشد من قتل غيرهم، لأن في قتلهم مخالفة لأحكام الله، إضافة إلى أن النبي مبعوث من قبل الله فقتله تكذيب لله ومعاندة له وهتك لحرماته تعالى.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لعله إشارة إلى أن مخالفتهم للتوراة أمر مرتبط بطبعهم، مع أن أنبياء الله المقتولين كانوا منهم - أي من بني إسرائيل - ومع ذلك قتلوهم، فمخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ليس بدعاً في أسلوبهم، بل هو استمرار لأسلوبهم الطاغوي المصلحي.

الرابع: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾.

قد يتوهم متوهم أن هذا تكرار لما سبق في الآية الواحدة والخمسين، وكذلك ما سيأتي في سورة النساء والأعراف وطه ولكن بالتأمل في القرآن نجد أنه لا يوجد تكرار إطلاقاً، وما توهم فيه التكرار إنما هو لأجل التشابه، وهو غير التكرار.

مثلاً في الدار توجد أبواب مختلفة وقد تكون كلها بلون واحد وكيفية واحدة، ومع ذلك لا يقال إن الباب الثانية تكرر للأولى بل يقال إنها تشبيه الأولى في الشكل وتخالفها في المهمة، فالأولى حرز للغرفة الأولى، والثانية حرز لغرفة ثانية مثلاً، وكذلك اللبّات المستعملة في البناء بعضها يشبه بعضاً ولكن تختلف في المهمة، فكل واحدة مكملة للأخرى من غير أن تكون تكراراً لها.

والدليل الواحد قد يكون دليلاً لعدة أمور، فإذا استدل به على أمر ثم استدل به على أمر آخر فإنه لا يكون من التكرار في شيء، فقصة العجل التي مرت في الآية الواحدة والخمسين كانت في سياق أسباب انحرافهم وكفرانهم بالنعم، وهنا لإثبات كذبهم في مدعاهم.

وإن قلنا بوجود التكرار فذلك لوجوه: قال الوالد رحمه الله:

ولا يخفى أن تكرار هذه القصص:

١ - للتركيز في الأذهان.

٢ - ولأن العرب كانوا يعرفون بعضها إجمالاً لأن هؤلاء سكنوا في جزيرة العرب وحواليها.

٣ - ولأن أهل الكتاب كانوا يصدقون بها.

٤ - وقد جاءت القصة في كل مرة بمزايا لم تذكر في مرة أخرى.

٥ - ولأن التكرار أدعى للتحدي إذ يظهر عجز العرب عن الإتيان بمثلها أكثر فأكثر، إلى غير ذلك^(١).

(١) تبين القرآن ص ٤١٢.

الخامس: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

الإشراب دخول الشيء واختلاطه بحيث يصعب فصله، كما يتداخل الصبغ في الثوب، وكما يتداخل الماء مع الخشب ونحوه.

و«أشرب في قلوبهم» كناية عن اختلاط حب العجل في قلوبهم ونفوذته إلى أعماقهم بحيث يصعب انفكاكهم عنه.

ولعل سبب ذلك أن عقولهم كانت قاصرة عن «عرفة الله سبحانه وتعالى بسبب سوء اختيارهم كما قال سبحانه: ﴿يَكْفُرِهِمْ﴾»، فكانوا لا يعتقدون بإله غير قابل للرؤية، كعبدة الأصنام وكالمجسمة من منتحلي الإسلام، فإنهم لقصور عقولهم وفكرهم لا يمكنهم أن يتصوروا كمالاً فوق الماديات وفوق صورة الإنسان، فتوهموا أن صورة الله كصورة آدم ﷺ لزعمهم أن لا كمال فوق صورة الإنسان كما ورد أن (النملة لو تصورت ربها تصورت له قرنين كقرنيها)^(١).

فهؤلاء - من بني إسرائيل - كانت تتوق نفوسهم إلى إله يناسب عقولهم القاصرة، فلذا لما عبروا البحر ورأوا قوماً يعبدون أصناماً ﴿قَالُوا يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٢) فلما زجرهم موسى ﷺ انتظروا فقده فلذا عبدوا العجل بعد غياب موسى ﷺ، وحتى حينما أحرق موسى ﷺ العجل ونسفه في اليم نسفاً، كان بعضهم يلقي بنفسه في الماء وما به إليه من حاجة، فيتعرض بذلك لرماد العجل فيشربه حباً في العجل وعبادته^(٣).

(١) تبیین القرآن ص ٤١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٧.

(٣) كما روى هذا المعنى العياشي عن الإمام الباقر ﷺ عنه البرهان ج ١، ص ٤٨٣.

وهذه الصفة برزت في حجبهم للماديات وقلة اعتقادهم بالغيبات،
وسبب ذلك هو كفرهم وعدم إيمانهم بالغيب وبصدق الأنبياء، رغم ما
شاهدوه من الآيات الواضحات، ورغم النعم الكثيرة التي أنعمها الله
عليهم.

ويمكن أن يكون إشراب قلوبهم بالعجل وكفرهم، بسبب أن البشرية
في تلك المرحلة كانت تمر بفترة الطفولة، فكان الكل يعبد الأصنام إلا
القليل، وكانت المعارف الإلهية صعبة القبول لتلك العقول البدائية، وكان
حال بني إسرائيل أفضل من غيرهم - رغم مشاكلهم - فلذا فضلهم الله على
العالمين، أي الناس المعاصرين لهم، فتأمل.

ولعل هذه النظرة المادية للأمور هي التي أوجبت حجبهم الكثير للمال
واكتنازه إلى يومنا هذا، فكأنّ المال تحول إلى إله لهم في كل الأمور.

السادس: ﴿يَسْأَلُكُمْ بِمَا تَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يعني إن كان إيمانكم بالتوراة يأمركم بهذه المخالفات، فبئس الإيمان
هذا، لأنه ليس إيماناً حقيقياً، بل هو مجرد لقلقة لسان مع المخالفة
العملية.

وفي ذلك بيان كذبهم بأنهم يؤمنون بالتوراة، بل هم يؤمنون
بمصالحهم وما تمليه عليهم أهواءهم.

ويمكن أن يراد التهكم بهم، كما في ﴿أَمَلُّوْا نَفْسَكُمْ تَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتْرُكُوا مَا
يَعْبُدُونَ آبَاؤُنَا﴾^(١).

(١) سورة هود، الآية: ٨٧.

المطلب التاسع ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (العصبية والعنصرية)

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

٩٤ - ومن أسباب انحرافهم: زعمهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الجنة لهم، فردّهم الله ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي الجنة ونعيمها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي بحكمه وإذنه تعالى ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فلا يدخلها منهم أحد، ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ حتى تصلوا إلى مرادكم من النعيم وترتاحوا من مشاكل الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعائكم بأنكم أولياء الله وأن الجنة لكم خاصة^(١).

﴿و﴾ لكنهم كاذبون في ادعائهم فـ ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ﴾ الموت ﴿أَبَدًا﴾ ما عاشوا، وعدم التمني ﴿بِ﴾ سبب ﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ أي مخالفتهم لأحكام الله وأنبيائه، قدموا ذلك العمل إلى الآخرة فيكرهون لقاءه أبداً،

(١) كما نقله عنهم القرآن ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ (البقرة: ١١١)، وقال عنهم ﴿فَمَنْ أَتَمَنَّى أَنَّ يَتَمَنَّوَهُ﴾ (المائدة: ١٨).

لكن دل القرآن الكريم على أن أسلافهم من معاصري الرسول ﷺ كانوا يعتقدون بالآخرة، وأنها خاصة بهم لأنهم شعب الله المختار - حسب زعمهم -، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّاعَةُ إِلَّا أَنْبَاءُ مَقْدُونَةٍ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾^(٢). وسيأتي بعض الكلام في الآية ١١٠.

الثاني: ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾.

هذا النوع من التفكير العنصري هو من أهم أسباب انحراف اليهود وعدم قبولهم للحق، فأن يتصور الإنسان بأن كونه من مجموعة خاصة هي كل السبب في فلاحه ونجاحه، ذلك ما يحدوه إلى ترك العمل والمخالفة، ونتيجة لذلك يَظُن ويُضِل، بل الملاك العمل، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «الناس سواء كأسنان المشط»^(٤).

وقال: «... لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى»^(٥).

وكذلك وقع في هذا المطب بعض المسلمين حيث زعموا عدالة جميع الصحابة مع قطع النظر عن أعمالهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) البحار: ج ٧٥، ص ٣٥١، ح ١٠٨، باب ٢٣. وفي الفقيه: ح ٥٧٩٨ هكذا: (الناس كأسنان المشط سواء).

(٥) معادن الجواهر، للكرجكي: ص ٧، ومستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ٨٩، ح ١٣٥٩٨.

ومع تصريح رسول الله ﷺ بوجود منافقين في أصحابه وأن ثمانية منهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط^(١).
 وأن أكثرهم في النار فلا يخلص منهم إلا القليل مثل همل النعم^(٢)،
 ومع أنه جعل ميزاناً لمعرفة المنافقين فقال ﷺ لعلي عليه السلام: «ولا يبغضك إلا منافق»^(٣).

وقبل ذلك الآيات القرآنية الواردة في ذم المنافقين، قال تعالى:
 ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
 الْإِثْقاقِ﴾^(٤)، ونزلت في الوليد قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِإٍ فَبَيِّنُوا﴾^(٥)،
 وعن ثعلبة قال سبحانه: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾^(٦).

(١) رواه مسلم، صفات المنافقين وأحكامهم، باب، الحديث رقم ٤٩٨٣، ونصه «قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط».

(٢) رواه البخاري، الرقاق، في الحوض، الحديث رقم ٦٠٩٩، ونصه «عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: بينا أنا قائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم، قلت أين؟ قال إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتنوا بعدك على أديبارهم القهقري، هم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال هلم، قلت أين؟ قال إلى النار والله، قلت ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتنوا بعدك على أديبارهم القهقري فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم».

وفي الحديث رقم ٦٠٩٧ «عن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلطون عن الحوض، فاقول يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتنوا على أديبارهم القهقري».

(٣) رواه مسلم، الإيمان، الدليل على أن حب الأنصار وعلي...، الحديث رقم ١١٣ ونص الحديث «قال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق» وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة ج ٤ ص ٢٩٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٥) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

ومع أن القرآن الكريم يدلنا على أن حال الصحابة كحال غيرهم من الناس، وكحال أصحاب الأنبياء السالفين كموسى عليه السلام، فقسم منهم آمنوا وعملوا الصالحات ولم يغيروا ولم يبدلوا، وقسم آخر نافقوا من الأول، وقسم ثالث انقلبوا على أعقابهم وغيروا وبدلوا.

كما أن العامة في صحاحهم رووا ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة أنفسهم^(١).

الثالث: ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ﴾ فيها تفسيران:

١ - ورد في تفسيرها أن المراد بها المباهلة نظير المباهلة مع نصارى نجران، فعن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب «فإن كنتم - يا معشر اليهود - كما تزعمون، فتمنوا الموت للكاذبين منكم ومن مخالفكم، إن كنتم صادقين: بأنكم أنتم المحقون المجاب دعاؤكم على مخالفكم، فقولوا اللهم أمت الكاذب منا ومن مخالفينا ليستريح منه الصادقون»^(٢).

ومما يدل على هذا المعنى (أي المباهلة) ما روي عن النبي ﷺ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار»^(٣)، وكذلك قوله ﷺ: «لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه فمات مكانه»^(٤).

٢ - والتفسير الآخر هو أن يكون التمني بمعناه الحقيقي أي الرغبة قلباً في الشيء ورجاء الوصول إليه.

(١) مَرَّ تخريج بعض الأحاديث من صحاحهم.

(٢) البرهان ج ١، ص ٤٨٥.

(٣) مجمع البيان ج ١، ص ٤١٣.

(٤) البرهان ج ١، ص ٤٨٥.

فيكون ذلك إخباراً عن الغيب وعن أمر مستقبلي، حيث إن اليهود بعد هذه الآية وإلى الآن لم يتمن أحد منهم الموت، وذلك آية من آيات صدق الرسول ﷺ، كذا قيل^(١).

ويمكن أن لا يكون ذلك إخبار غيبي، بل أمر ظاهر يعرفه كل من عاشر اليهود وعرف طباعهم وشدة حبهم للدنيا، فيكون الاحتجاج عليهم بما لا مجال لهم لإنكاره.

الثالث: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لأن من يدري أنه من أولياء الله ومصيره إلى رضوانه والجنة، فإنه لا يهاب الموت.

وقيل: إن في التوراة (إن أولياء الله يتمنون الموت ولا يرهبون)^(٢).

كما روي أن علياً عليه السلام كان يطوف بين الصَّفَّين بصفين في غلاله، فقال له ابنه الحسن عليه السلام: ما هذا بزيِّ المحاربين! فقال: «يا بُنَيَّ لا يبالي أبوك على الموت سقط أم عليه سقط الموت»^(٣).

ويروى: أن حبيب بن مظاهر ضحك يوم الطف، فقيل له في ذلك، فقال: وأي موضع أحق بالسرور من هذا الموضع؟ والله ما هو إلا أن يقبل علينا هؤلاء القوم بسيوفهم فنعاق الحور العين^(٤).

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ حيث إنهم تمنوا الاستشهاد في غزوة بدر حيث لم يقتلوا هنالك.

(١) الكشف ج ١، ص ١٦٨ قال (من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، وكان كما أخبر به).

(٢) الجوهر الثمين ج ١، ص ١٢٥.

(٣) جوامع الجامع ج ١، ص ١٣٠.

(٤) المصدر السابق.

فلا بأس بأن يتمنى الإنسان المؤمن الموت، إذا كان سببه الشوق إلى لقاء الله تعالى.

وفي مجمع البيان: (وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به، ولكن ليقُل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، فإنه نهى عن تمني الموت لأنه يدل على الجزع، والمأمور به الصبر وتفويض الأمر إليه تعالى، ولأننا لا نأمن من وقوع التقصير فيما أمرنا به ونرجو في البقاء التلافي)^(١).

الرابع: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾.

فإن كان معنى التمني: المباهلة، فالمعنى واضح، فإنهم لم يباهلوا أبداً لعلمهم بمصيرهم.

وإن كان المعنى هو التمني القلبي:

١ - فلأن من يتمنى شيئاً قلباً فإنه يظهر ذلك على لسانه وعمله، لأن من يحب شيئاً لا بد وأن يطلبه أو يبينه على لسانه، أو يظهر على وجهه أو أعماله كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ما أضمر أحد شيئاً إلا وظهر على صفحات وجهه وفتات لسانه»^(٢).

٢ - ولأنهم لو تمنوه بقلوبهم لأظهروه بلسانهم، حرصاً منهم على تكذيب الرسول ﷺ في إخباره بأنهم ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾، وحيث لم يظهره على لسانهم تبين أنهم لم يتمنوه في قلوبهم وهذا دليل شدة حُبهم للحياة وكرههم للموت، بحيث إنهم لا يصرحون - حتى كذباً - بحُبهم للموت، ولعلمهم بأنه لا أحد يصدّقهم في كذبة حُبهم الموت، لما ظهر ويظهر من شدة تمسكهم بالحياة وحُبهم لها.

(١) مجمع البيان ج ١، ص ٤١٢.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٠٣، رقم الحكمة ٣٦.

الخامس: ﴿أَحْرَصَ النَّاسُ عَلَى حَيَوتِهِمْ﴾.

الحرص هو شدة طلب الشيء، وحسنه أو قبحه يكون باعتبار المتعلق، فإن كان متعلقه محبوباً كان هذا الحرص لا بأس به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

وإن كان متعلقه مبغوضاً كان الحرص مذموماً، كما في هذه الآية، ولذا جعل (حياة) نكرة تحقيراً لها، فهم يطلبون أمراً حقيراً، فلذا كان حرصهم مذموماً، وإن كان تنكير حياة للدلالة على حياة خاصة - وهي الحياة الطويلة - فكذلك هذا الحرص مذموم، لأنه من طول الأمل المذموم حيث يعتقد أو يودّ البقاء مدة متمادية، فيهيئ لنفسه لوازم هذه المدة ثم لا يلتفت إلى الآخرة حتى يأتيه الموت بغتة.

السادس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

فيه توبيخ عظيم لهم، حيث صاروا أسوأ حالاً من المشركين، فإن المشرك حيث لا يعتقد بالآخرة ويزعم أن الموت هو نهاية كل شيء كما نقل عنهم تعالى ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٢)، فهذا حريص جداً على الحياة، وهؤلاء اليهود أكثر حرصاً من المشركين، وما ذلك إلا لعلمهم بما سيؤول إليه مصيرهم من النار والعذاب مضافاً إلى إشراب قلوبهم بالدنيا وما يتعلق بها.

و﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عام يشمل جميع المشركين، كمشركي مكة، والمشركين من اليهود الذين زعموا أن عزيزاً ابن الله، والمشركين من

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

المجوس حيث زعموا أن للكون إلهين، وما ورد من تفسيرهم بالمجوس فإنما هو من باب ذكر المصداق لا الحصر.

السابع: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾

ذكر (الألف) للمبالغة في الكثرة، فيشمل ما يتمنوه من الخلود وعدم الموت أبداً.

و(الألف) آخر كلمة تدل على عدد، ولو أرادوا الدلالة على عدد أكثر لدلوا عليه بالتركيب كما يقال (عشرة آلاف) و(مائة ألف) و(ألف ألف).

ولعل قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾^(١)، ولم يقل (تسعمائة وخمسين) ليتبين طول المدة بشكل أوضح.

وقبل العصر الحاضر حيث كثرت الأشياء وظهر (المليون) فإن أكثر الناس كانوا يستعملون (ألف) حينما يريدون المبالغة في الشيء أو للدلالة على كثرته. وكان المجوس يتفاءل بعضهم لبعض بقولهم: (عش ألف نوروز وألف مهرجان) ونوروز أول الربيع، ومهرجان أول الخريف. وهذا ما هو متداول إلى يومنا هذا حيث يقال: ألف عام مثل هذه الأعوام.

الثامن: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ﴾

أي عالم بالمبصرات، فإن الرؤية - التي هي انعكاس الضوء من الشيء على العين ومن ثم إدراكه عياناً بالبصر - هي من لوازم الأجسام، والله تعالى منزّه عن الجسم، وعن دخول ضوء فيه، وقد ذكرنا بعض التفصيل في شرح أصول الكافي فراجع.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

المطلب العاشر

ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل
(عداوة أولياء الله)

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

٩٧ - ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾، فغير
منصف ولا تابع للحق، لأن جبرئيل عبد مأمور لله تعالى ﴿فَأِنَّهُ﴾ أي
جبرئيل ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي عليك بحيث تعيه وتحفظه
﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره تعالى، ولا ذنب لجبرئيل في ذلك فإنه ينفذ أمر الله،
ثم إن ما جاء به جبرئيل لا يستدعي عداوته حيث كان ﴿مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السماوية السابقة ومنها التوراة، فإذا جاء بما
يصدق توراتهم كان عليهم تصديقه لا عداوته، ثم إن ما جاء به
جبرئيل ﴿هُدًى﴾ هداية من الضلال ﴿وَبُشْرَى﴾ أي يبشرهم بمستقبل
زاهر في الدنيا والآخرة، والعاقل لا يعادي من جاء بالهداية والبشارة،

وسبب عداوتهم له من وجوه:

١ - إنهم لما أعتيتهم الحجة، ونقض رسول الله ﷺ حججهم، اضطروا إلى هذا الكلام حتى يحفظوا أتباعهم من عوام اليهود، وليكون لهم العذر أمام الآخرين، حيث إن الحالات النفسية والعداوات الشخصية تؤثر في عامة الناس، فقد تعمي بصائرهم عن قبول الحق، وهذا وتر حساس يلعب به من أعتيته الحجة أو أراد تهيج الناس على جهة معينة، فإنه ببيان العداوات يجيشهم فيما يريد، أو لا أقل يمنعهم من اتباع الحق.

وقد يؤيد هذا: ما روي أن جماعة من يهود فدك لما قدم النبي ﷺ المدينة سألوه عن أشياء فلما أجابهم الرسول ﷺ بما لم يتمكنوا من دفعه، قال ابن صوريا: (خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك، واتبعتك، أي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: فقال جبرئيل، قال: ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنت بك)^(١).

ولذا نشاهد فرعون لما أراد أن يهيج الناس على موسى ﷺ حاول استغلال هذه النقطة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فلما شعر فرعون بأنه مغلوب ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أراد جر موسى إلى بيان أنهم في النار، حتى يقول فرعون للناس انظروا إنه يقول إن آباءكم في النار، لكن موسى ﷺ لم يعطه

(١) مجمع البيان عن ابن عباس ج ١، ص ٤٢٠، وقريب منه ما في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ البرهان ج ١، ص ٤٩٥.

المجال ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ فقطع على فرعون ما أَرَادَهُ ثم كمل موسى ﷺ احتجاجه^(١).

٢ - لأنهم تصوروا أن جبرئيل - من نفسه - منع من قتل بخت نصر لما كان غلاماً مسكيناً، وقد فعل بخت نصر باليهود ما فعل من تخريب وأسر وقتل إلى غير ذلك، مع أن جبرئيل لم يفعل ذلك إلا امتثالاً لأمر الله تعالى وتطبيقاً لحكمه.

فقد روي: (قل يا محمد من كان عدواً لجبرئيل من اليهود، لدفعه عن بخت نصر أن يقتله دانيال من غير ذنب كان جناه بخت نصر، حتى بلغ كتاب الله في اليهود أجله، وحلّ بهم ما جرى في سابق علمه)^(٢).

وقال ابن سوريا من أحبار فذك: (ذاك عدونا، ولو كان غيره لأننا بك، وقد عادانا مراراً، أشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله، فلقيه ببابل غلام مسكين، فدفع عنه جبرئيل، وقال إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أي حق تقتلونهم)^(٣).

٣ - ولعله لأنه كان ينزل بما يخالف أهواءهم اليهود، كما في تمثله لمريم ﷺ ونفخه فيها ليولد عيسى ﷺ، وكذلك تنفيذه أمر الله تعالى بإنزال العذاب عليهم، وأهم سبب لعداوتهم أنهم كانوا يطمعون أن تكون النبوة فيهم فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ اشتدت عداوتهم لجبرئيل ﷺ لأنه الذي نزل بالوحي عليه بأمر الله.

(١) سورة طه الآيات: ٤٩ - ٥٦.

(٢) البرهان ج ١، ص ٤٩٠ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري ﷺ عن الإمام الحسن المجتبى ﷺ.

(٣) الكشف ج ١، ص ١٦٩.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾.

ذكر الله تعالى في هذه الآية، أربعة أوجه لبطلان عداوتهم لجبرئيل:

١ - إن جبرئيل لم يعمل شيئاً من تلقاء نفسه، بل كان بأمر الله تعالى، فلو كانوا حقاً مؤمنين لوالوا جبرئيل، حيث إن المؤمن يوالي من يمثل أوامر الله تعالى ولا يعاديه.

لكنهم لم يكونوا منصفين ولا للحق متبعين، فلذا عادوا جبرئيل جزافاً من غير ذنب ارتكبه.

٢ - إن ما جاء به جبرئيل يصدق كتابهم، فكان الحري بهم موالاته لا معاداته.

٣ - إن ما جاء به جبرئيل كتاب هداية، يجب أن يشكروه عليه، لأنّ في العمل به خروج من الظلمات إلى النور، وحياة خالية عن الضنك.

٤ - إن ما جاء به جبرئيل فيه بشرى للمؤمنين بالنعيم الأبدي والمستقبل الزاهر، فإن كانوا مؤمنين حقاً لزم عليهم محبته لا عداوته.

ولكن هؤلاء اليهود لم يكونوا يريدون هذه الأمور، بل كانوا يريدون ما تمليه عليهم أهواءهم، كما أنهم ما كانوا يريدون التصديق بالتوراة الحقيقية بل بما حرفوه منها، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾^(١)، كذلك ما كانوا يريدون الهداية والبشارة للمؤمنين حسداً من عند أنفسهم، بل كانوا يريدون الآخرة خالصة لهم والدين خاصاً بهم.

والضمير في ﴿نَزَّلَهُ﴾ يرجع إلى القرآن، وهو غير مذكور في الآيات

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.

السابقة، ولكن صح رجوع الضمير إلى غير المذكور لدلالة سياق الكلام عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ﴾^(١) رجع الضمير إلى الميت وهو غير مذكور فيما سبق، لدلالة الكلام عن الإرث عليه، مضافاً إلى أن في إضماره مع عدم ذكره تفخيماً لشأنه، فالقرآن لجلالة شأنه ورفعة قدره يدل على نفسه من غير حاجة إلى ذكره.

الثالث: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

ولم يقل (على قلبي) مع أنه حكاية لكلام رسول الله ﷺ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وذلك لأن في الحكاية يجوز الالتزام باللفظ، ويجوز الالتزام بالمعنى، فيجوز عبارة (قال زيد: إنه مؤمن) و(قال زيد: إني مؤمن)، وفي الخطاب قد يحسن الإلفات من الغائب إلى المخاطب والعكس لجهات بلاغية، وهنا لعله للإشارة إلى أن الله هو الذي أنزله على قلب رسوله، لا أن ذلك صرف ادعاء من الرسول، فكأنه تغير الكلام من كونه مقول الرسول إلى كونه مقول الله تعالى.

والمراد بالتنزيل على قلبه: هو التنزيل عليه، وباعتبار أن القلب - بمعناه المجازي - محل للفهم والحفظ، لذا عبرت الآيات بنزوله على قلبه كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ^(٢).

ولعل في ذلك بيان لمقام رسول الله ﷺ، فهو ليس مجرد مبلغ، بل

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤.

هو المحل القابل - بإرادة الله - للقرآن الكريم فهماً وحفظاً ومن ثم بياناً وتفسيراً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١).

والقلب قد يستعمل مجازاً بمعنى العقل والفهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٢) أي عقل يتفكر به.

الرابع: قوله تعالى: ﴿يَا إِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي بأمر الله تعالى أو بتيسيره وتسهيله. وهنا يراد به الإذن التشريعي والتكويني معاً.

وقد ورد الإذن في القرآن الكريم بالمعنيين أو بأحدهما.

١ - الإذن التشريعي: بمعنى تجويز ذلك العمل، كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣).

٢ - الإذن التكويني: بمعنى تقدير قوانين في نظام العالم، بحيث من سار في تلك القوانين وصل إلى النتيجة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ اتَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا إِذْنِ اللَّهِ﴾^(٤) حيث إن القانون التكويني أن من لم يراع الأساليب الحربية فإنه يصاب بالقتل والجرح ونحوهما، وأن الله تعالى خلق جسم الإنسان بكيفية يؤثر فيها الحديد والآلات الحربية.

٣ - الإذن التشريعي والتكويني معاً كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ أُذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ﴾^(٥)، حيث رفع الله تعالى أهل البيت ﷺ تكويناً وكذلك تشريعاً

(١) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٦.

(٥) سورة النور، الآية: ٣٦.

بجعل الخلافة والولاية فيهم، وكما في قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١) حيث إن الفئة القليلة - التي تعمل بالقوانين والنظم الحربية ويعينها الله غيبياً - هي الغالبة، كما في غزوة بدر حيث انتصر المسلمون وكان المشركون ثلاثة أضعافهم، لأن المسلمين أخذوا بالوسائل التكوينية ونصرهم الله غيبياً بالملائكة.

الخامس: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ....

الآية وإن كانت عامة فتشمل كل أعداء الله وملائكته ورسله، لكن المقصود بها هنا هؤلاء اليهود، وفي الآية دلالة على أن هؤلاء ليسوا فقط أعداء لجبرائيل بل هم أعداء الله، حيث يخالفونه ويعاندونه ويأتون بما يبغضه، وكذلك هم أعداء رسل الله وملائكته، لأن رسل الله يبينون سبيل الرشاد، وهؤلاء أهواؤهم ومصالحهم تُسبب عداوتهم للحق ولمن جاء به وهم رسل الله تعالى، ولذا كانوا يقتلون أنبياء الله تعالى رغم كون أولئك الأنبياء من قومهم، وكذلك يعادون ملائكة الله المنفذة لأوامر الله تعالى التي تتعارض مع مصالحهم.

وإنما خص جبريل وميكال بالذكر مع أنهم من الملائكة، لأفضليتهما على سائر الملائكة، ولأن حديث اليهود مع رسول الله ﷺ دار حول هذين الملكين، حيث زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم، فبين الله تعالى بأنه لا فرق في العداوة، لأن من عادى جبرائيل فقد عادى ميكائيل أيضاً، لأن كليهما ينفذان أمر الله تعالى.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

لم يقل (فإنه) حتى لا يتوهم رجوع الضمير إلى جبرائيل .

وعداوة الله لهم بمعنى أنه يفعل بهم فعل المعادي من الإهانة والعذاب، فيجازيهم بأفعالهم معاقباً لهم، إذ لا يعقل فيه تعالى العداوة بمعناها المتعارف بين البشر، إذ هي نتيجة انفعالات نفسية تجاه شخص أو شيء وطلب الإضرار به، ولأن الله ليس محلاً للحوادث فلا بدّ من حمل عداوته لهم على معنى نتيجة العداوة .

ولعل قوله : (للكافرين) ولم يقل (لهم) لوجوه :

١ - للدلالة على أن عداوته لليهود بسبب كفرهم، وليست عداوة لأشخاصهم .

٢ - لإبقاء باب التوبة مفتوحاً أمامهم، فلا يكون توهم أن الله إذا عاداهم فلا مجال لإيمانهم!، فالآية دلت أن العداوة للكافرين، فإذا آمنوا فقد تغير الموضوع فتنتفي العداوة .

قيل : إن الله لا يمكن أن يعادي من يعلم بإيمانه مستقبلاً، فلا يغضب على كافر أو فاسق يعلم بأنه سيتوب، ولا يرضى عن مؤمن يعلم بأنه سيرتد .

لكننا قد بيّنا أن غضبه ورضاه وداوته ولايته بمعنى أثر ونتيجة هذه الأمور - لأنه ليس محلاً للحوادث - فالكافر الذي سيؤمن والفاسق الذي سيتوب فإن الله تعالى حين كفره وفسقه يغضب عليه - بمعنى ترتب أثر الغضب -، وحينما يؤمن أو يتوب فإنه تعالى يرضى عنه بمعنى ترتيب أثر الرضا، وهكذا في العداوة والولاية، فتأمل .

٣ - للدلالة على أن عداوة الملائكة والرسل سبب للكفر، كما أن عداوة الله سبب له، لأن عداء أحدهم يرجع في الحقيقة إلى تكذيب الله

تعالى وعدائه، فمن يعلم بأن جبرئيل ملك وكذلك من يعلم بأن هذا الشخص رسول من قبل الله تعالى ثم يعاديه فإنه تكذيب لله تعالى.

ولذا وجب عدم التفريق بين أحد من الرسل، وكذلك وجب عدم التفريق بين الله ورسله، ومن صفات الكافرين أنهم يريدون التفريق بين الرسل أو بين الله ورسله.

قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

السابع: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهِآ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

الفسق هو الخروج عن الطاعة، فهنا معناها ترك أمر الله تعالى، فهؤلاء خرجوا عن طريق الهدى والرشاد وعن الحق بكفرهم بآيات الله تعالى.

ويمكن أن يكون المراد خروجهم عن دين موسى عليه السلام، لأن من دينه التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان مكتوباً عندهم في التوراة، وكانوا يعلمون بذلك، لذا كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما بعث الله محمداً كان عليهم الإيمان به، فكفرهم به مخالفة للتوراة ولموسى عليه السلام وبذلك خرجوا عن دين موسى عليه السلام بفعلتهم هذه.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٢) سورة النساء، الآيات: ١٥٠ - ١٥٢.

المطلب الحادي عشر
ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل
(ترك أوامر الله واتباع الشياطين)

﴿أَوْكَلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠٠ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

١٠٠ - ﴿أ﴾ كفروا بالله، ﴿و﴾ خالفوا أوامره فـ ﴿أَوْكَلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا﴾ يجب الوفاء به، كعهودهم مع رسول الله ﷺ بأن لا يعينوا عليه أحداً، وكالعهود التي أخذها الأنبياء منهم بالتصديق بمحمد ﷺ ﴿نَبَذَهُ﴾ أي طرحه ونقضه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، والفريق الآخر كعبد الله بن سلام وفى بالعهد فآمن لكن هؤلاء أقلية ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ من الفريق الأول، لذا الأكثر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالعهود، فلذا أنكروا رسالة محمد ﷺ ونقضوا عهودهم معه فأعانوا قريشاً عليه يوم الخندق.

١٠١ - ﴿و﴾ لأنهم لم يريدوا الوفاء بالعهود، وصل بهم الأمر إلى تركهم التوراة فـ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وتنطبق عليه



281

٢ - لأن النظرة المادية نفذت إلى عقولهم وأشربت بها قلوبهم ، فإنهم لا يعتقدون بالآخرة أو لا يعتقدون بأنهم يعذبون فيها إلا أياماً معدودة ، فلذا لا رادع لهم من نقض العهد وارتكاب سائر المحرمات ، ولذا عقبه تعالى بقوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

كما أن هذه الطريقة من التفكير سببت قصر نظرهم وعدم رؤيتهم لعواقب الأمور ، ولو قرأنا تاريخهم وحللنا تصرفاتهم ، لرأيناها لا تعدو تفكيرهم بالمصلحة الآنية وغفلتهم عن المصالح الاستراتيجية ، ولذا هم أذلاء أينما كانوا والناس تتنفر منهم ، وإذا هم استقوا بحبل من الناس لاجتماع مصالح بعض الناس مع مصالحهم فإنه سرعان ما ينفك هذا العقد ويتخلى عنهم الناس ، فمن ذلك تأسيسهم لدويلتهم اللقيطة في أرض فلسطين وهذا من أكبر أخطائهم ، لأنه لا ضمان لاستمرار مصلحة الغرب معهم إلى ما لا نهاية ، كما لا يقين باستمرار ضعف المسلمين إلى الأبد ، وأي وقت انتهت مصلحة الغرب معهم ، أو استعاد المسلمون قوتهم ، فإنهم ودولتهم سيتحولون إلى خبر كان .

ولو كانوا يعقلون أو يفكرون بنظرة طويلة الأمد لشكلوا دولتهم في مكان آخر .

ولعل قوله : ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ لأن الناقضين ابتداءً هم مجموعة كالأخبار والملا من القوم ، ثم يتبعهم الباقون من عامة الناس .

الثاني: قوله تعالى : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

في الآية وجوه ، منها :

١ - لما قال تعالى : ﴿بَنَدَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ ، وحتى لا يُتوهم أن الفريق

الآخر - غير الناقض - أكثر أو متساوي عدداً معه، قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فضمير (هم) يرجع إلى المعاهدين، أي المعاهدون أكثرهم لا يؤمنون، ففيه دلالة على أن بعضهم الأقل يؤمن وهذا البعض لا ينقض العهد، وهم من أسلموا كعبد الله بن سلام

٢ - إنه إخبار مستقبلي، بأن الفريق الناقض للعهد لا يؤمن أكثرهم في المستقبل - أيضاً - فضمير (هم) يرجع إلى فريق، أي هذا الفريق الناقض للعهد سيبقى أكثرهم على الكفر، وهذا المعنى مروي عن الإمام الباقر عليه السلام ^(١).

فتكون الآية من المعاجز، حيث أخبرت عن أمر مستقبلي وقد تحقق هذا الإخبار وثبت صدقه عياناً.

٣ - بيان لنوع كفرهم، ففريق منهم كفره بنقضه للعهد، والأكثر كفره بالبحود وعدم الإيمان.

٤ - بيان لكون منشأ نقضهم للعهد هو عدم الإيمان فلأن الأكثر كانوا غير مؤمنين لذا كانوا ينقضون العهود، وأما البعض القليل من ناقضي العهد فإن نقضهم كان بسبب الجهل.

الثالث: قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

صفة للرسول ﷺ أي الرسول يصدق ما في التوراة، وتصديقه لها لأجل أن التوراة بشرت به وذكرت أوصافه، فلما انطبقت تلك الأوصاف بأجمعها على رسول الله محمد ﷺ ثبت صدق ما في التوراة، قال

(١) البرهان ج ١، ص ٤٩٦ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(١).

أما ما مرّ في تصديق التوراة في الآية التاسعة والثمانين، والآية الواحدة والتسعين فإن التصديق كان صفة للقرآن الكريم، فهناك ذكر أن القرآن يصدق التوراة وهنا يذكر أن الرسول ﷺ يصدق التوراة.

وقد مرّ بعض الكلام في احتمالات التصديق فراجع.

الرابع: قوله تعالى: ﴿بَدَأَ فِرْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

يراد به أحبارهم العلماء، لأن هذه الآية ذكرت كالتمهيد للآية اللاحقة، وهي اتباعهم لما تتلوه الشياطين وذلك صفة لأحبارهم، والحاصل أن هؤلاء بدل أن يتبعوا الرسول الذي بشرت به التوراة، نبذوا التوراة وراء ظهورهم واتبعوا الشياطين وعملوا السحر ونحوه مما سيأتي.

الخامس: قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

الظاهر أن المراد من كتاب الله التوراة، أي بدل أن يعملوا بالتوراة ويؤمنوا بمحمد ﷺ حيث بشرت به التوراة ويتبعوه، بدل ذلك اتبعوا الشياطين الذين أغوتهم.

ويمكن أن يكون المراد من ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ القرآن، فالمعنى أنهم بدل اتباع القرآن الذي فيه هدايتهم ونفعهم دنياً وآخرة، بدل ذلك اتبعوا الشياطين، وذلك مما يضرهم في الدنيا، ويسبب بأن لا يكون لهم في الآخرة خلاق ونصيب.

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧.

السادس: قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

ترك كتاب الله بترك أوامره ومخالفة نواهيه، كالذي يرمي ما لا يحتاج إليه وراء ظهره لاستغناؤه عنه، أو ليدل على أنه مستغنى عنه ولا يلتفت إليه.

وفي المجمع عن سفيان بن عيينة (أدرجوه [- أي التوراة -] في الحرير والديباج وحلّوه بالذهب والفضة، ولم يحلّوا حلاله ولم يحرموا حرامه^(١)). فالمعنى أنهم في الظاهر احترموا كتاب الله - أي التوراة - ولكنهم عملاً رموه وراء ظهورهم لما تركوا العمل به.

وهذا فعل الكثير من المسلمين في الحال الحاضرة، حيث يحترمون القرآن في الظاهر، فيطبعونه أفخر الطباعات ويذهبونه ويخطونه في اللوحات الثمينة وبالفنون التشكيلية ونحوها، وكل ذلك حق ولازم، لكن شرط أن يكون مقدمة للعمل، ومع الأسف فإن العمل بالقرآن قليل وهذا ما قاله الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٢)، ونتيجة ذلك صعوبة العيش في الدنيا والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(٣) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٣﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾^(٤).

(١) مجمع البيان: ج ١، ص ٤٢٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

(٣) سورة طه، الآيات: ١٢٤ - ١٢٦.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

١٠٢ - ﴿و﴾ هؤلاء اليهود بدل أن يتبعوا كتاب الله ويؤمنوا برسوله ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا﴾ أي ما قرأته - كذباً وافتراءً - ﴿الشَّيَاطِينِ﴾ كفار الجن الذين كانوا ﴿عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ فإن هؤلاء الشياطين كانوا مسخرين لسليمان عليه السلام، فلما مات كتبوا السحر وألقوه تحت كرسيه، ثم أشاعوا أن عظمة سليمان وملكه كان بسبب استعماله للسحر الموجود في هذه الكتب، ترغيباً للناس في السحر، فانخدع البعض لكن المؤمنين لم ينخدعوا، لأن ذلك كان افتراءً على سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ باستعمال السحر، بل كان عبداً نبياً آتاه

الله الملك ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وكان كفرهم بأنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ بشكل عام، ﴿و﴾ كذلك الشياطين يعلمون - بشكل خاص - ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ اللذين أنزلهما الله تعالى لإبطال السحر، قيل: حتى يتبين فرقه عن المعجزة فلا يختلط الأمر في أذهان الناس، لكي يعرفوا الأنبياء ولا يخلطوهم بالسحرة فتم الحجة، وقد نزل الملكان ﴿بِبَابِلَ﴾ في العراق حيث كانت مركزاً للحضارة العالمية ذلك الوقت وشاع فيها السحر ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ اسم للملكين.

﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إبطال السحر، الذي يسبقه تعريفهم بالسحر، كما في قول الطبيب هذا سُمّ وذاك دواؤه ﴿حَقٌّ يَقُولَ﴾ الملكان ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار وامتحان، كما يقال لطلاب الطب: إن دراستكم للعلاج لا للإضرار، فأنتم تُختَبَرُونَ بعلمكم هل كسبتموه لتنفعوا الناس أم لأغراض أخرى، فكان الملكان ينصحان كل أحد جاء ليتعلم منهما ويقولان له: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعمال السحر، ولكن الأشقياء خالفوا النصيح ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ الناس بشكل عام أو هؤلاء اليهود ﴿مِنْهُمْ﴾ من الملكين ﴿مَا﴾ أي سحراً ﴿يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي ما يوجب العداوة والبغضاء بين الزوجين تكون نتيجته انفصالهما.

﴿و﴾ لكن السحرة ليسوا بخارجين عن قدرة الله، ومن التجأ إلى الله واستعاذ به لا يؤثر فيه السحر ف﴿مَا هُمْ﴾ أي ليس السحرة ﴿بِضَّآئِينَ بِهِ﴾ بسحرهم ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعلمه وإذنه التكويني، حيث إنه تعالى جعل هذا الأثر لسحر لأنه مسبب الأسباب ثم لم يمنع بالجبر من تأثير عملهم حتى يكمل الامتحان في دار الدنيا فهؤلاء العصاة ليسوا

بخارجين عن قدرة الله كما أن المسحورين تحت قدرته فعليهم الاستعاذة به.

﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ هؤلاء اليهود الكافرون بالكتاب ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في آخرتهم ودنياهم ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ ولذا فالسحرة من أشقى الناس (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ﴿و﴾ هؤلاء معاندون جداً فيتبعون السحر مع أنهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ إما بعقولهم، وإما بما بلغهم من موسى ﷺ وقصته مع سحرة فرعون ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي اشترى السحر بدلاً عن دينه ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي نصيب، وهم مع علمهم بذلك اتبعوا السحر ﴿و﴾ لكنهم ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي باعوا أنفسهم بعذاب الله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي يعملون بعلمهم، لأن الذي لا يعمل بعلمه هو والجاهل سواء.

١٠٣ - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي أهل الكتاب بدل ذلك ﴿ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ بترك المعاصي ومنها نبذ الكتاب واتباع الشياطين ﴿لَمْثُوبَةٌ﴾ جزاءهم بالشواب ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ من كفرهم وسحرهم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿مَا تَنْلُوا الشَّيْطَانُ﴾.

التلاوة بمعنى القراءة، وجذرها لغة من (تلا) بمعنى «جاء بعده»، فلأن القراءة تكون بعد وجود القارئ، أو لأنها تخلفه، فلذا سميت

تلاوة، ومعنى كذبهم يستفاد من سياق الآية، أو من تضمين التلاوة معنى التقول، قال في المغني: ويحتمل أن «تتلو» مُضمَّن معنى تتقول، فيكون بمنزلة ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(١)، فيكون المعنى حينئذٍ واتبعوا ما تكذبه الشياطين على ملك سليمان بأنه نتيجة السحر، في حين أن الصحيح أن ملكه كان بإرادة ربانية.

والشياطين مضافاً إلى قراءتهم السحر في ذلك الزمان فإنهم خلفوه لمن يأتي بعد.

والشياطين هم فسقة الجن، وكبيرهم إبليس.

والأغلب في القرآن، استعمال لفظة «الشيطان» في قبال بني آدم، حيث إن الشيطنة فيها معنى التخبيث ومحاولة الإضلال، واستعمال لفظة «إبليس» في قبال الله تعالى، لما فيها من معنى الإبلas أي اليأس والقنوط.

وقد سخر الله الشياطين لسليمان، فكان يستعملهم في الأعمال الشاقة وبعضهم كانوا محبوسين حتى لا يفسدوا ويُفسدوا قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوكَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾^(٣) ﴿٤٧﴾ ﴿وَالْآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٤) وقال عز من قائل: ﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٥) ﴿١٧﴾ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٦).

(١) مغني اللبيب، لابن هشام، ج ١، ص ١٩١ والآية في سورة الحاقة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة ص، الآيتان: ٣٧ - ٣٨.

(٤) سورة سبأ، الآيتان: ١٢ - ١٣.

فلما مات سليمان خرجوا من العذاب المهين، وفُتِّت قيودهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(١).

وبانطلاقهم مرة ثانية بدأوا بشيطنتهم وتخبيثهم ومحاولة إضلال الناس، بدأوه بنشر السحر.

الثاني: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾.

أي على عهد ملك سليمان، فإن كان (تتلو على) يتضمن معنى «تتقول» كما مرَّ عن ابن هشام، فيكون المعنى ما تكذبه الشياطين على عهد سليمان، أي ما نسبوه إليه كذباً وافتراءً، بأن ملكه كان نتيجة السحر، وإن كان (تتلو) بمعنى «القراءة» فيكون المراد القراءة بعد وفاة سليمان ﷺ مباشرة، لأن الشياطين قبل وفاته كانوا محفوظين أي ممنوعين من الإفساد، وكذلك كان قسم منهم مقرنين في الأصفاد، ومن كان يخرج عن طاعة سليمان يذاق من عذاب السعير كما مرَّ في الآيات السابقة، ولكن لما توفي سليمان وعلموا بوفاة بعد حين، رُفِعَ المنع عنهم - ابتلاءً للناس -.

فمن أول إضلال فعلوه، ما في الحديث الشريف عن الإمام الباقر ﷺ «فلما هلك سليمان، وضع إبليس السحر وكتبه في كتاب، ثم طواه، وكتب على ظهره: هذا ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، ومن أراد كذا وكذا فليفعل كذا وكذا، ثم دفنه تحت السرير، ثم استثاره لهم فقرأه، فقال الكافرون: ما كان سليمان يغلبنا إلا بهذا، وقال المؤمنون بل هو عبد الله ونيه»^(٢).

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

(٢) البرهان ج ١، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ عن تفسير القمي وعن تفسير العياشي.

وكان من فعل الشياطين أنهم يسترقون السمع من الملاء الأعلى حينما يصعدون إلى السماء - قبل منعهم لما ولد رسول الله ﷺ - ثم يضيفون إليها أكاذيب من عندهم ويعلموها الكهنة وهؤلاء كانوا ينشرونها بين الناس، قال تعالى في سورة الجن: إنهم قالوا بعد منعهم عن استراق السمع: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ لِّلْسَمَعِ لَّمَّا سَمِعْنَا أَنَّهُ يَحْدُثُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ﴾^(٢).

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

دلت الآية على كفر الشياطين بسبب السحر، وأن سليمان عليه السلام لم يكفر لأنه لم يستعمل السحر.

وفي نهج البلاغة: (والساحر كالكافر، والكافر في النار)^(٣).

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من تعلّم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً فقد كفر، وكان آخر عهده بربه»^(٤).

والكفر هنا يراد به: الكفر العملي، أي عمله عمل الكفار، لأنه - كما مر - فإن الكفر قد يكون في الاعتقاد كمنكر التوحيد أو النبوة أو المعاد، وقد يكون كفراً عملياً من دون أن يخرج عن الملة، وفي التقريب: (لا يخفى أن الكفر على نوعين: كفر في العقيدة، وكفر في العمل، فالكفر في العقيدة هو إنكار أصول الدين، والكفر في العمل هو ترك واجب أو فعل

(١) سورة الجن، الآية: ٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١ - ٢٢٣.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٧٩.

(٤) وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٨ الباب ٢٥ من أبواب ما يكتسب به الحديث ٧.

[محرم]، ولذا شاع استعمال الكفر في ترك الأوامر وفعل النواهي، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١) في قصة الحج، وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٢) في باب الشكر، وقول النبي ﷺ: «كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة» وعدّ منها النمام ونحوه^(٣).

الرابع: قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

نذكر ما يتعلق بالسحر في عدة بحوث:

«١»

في معنى السحر

اختلف أهل اللغة اختلافاً شديداً في تعريف السحر، وعرفه الفقهاء بتعاريف مختلفة^(٤).

وأحسن تلك التعاريف وأقربها إلى ما يتبادر من كلمة السحر عند أهل اللسان، هو ما في التقريب (والسحر أمور غير طبيعية، تأتي بعلاج خفي، ومنه التصرف في العين وفي النفس وفي العقل، فيوجب عداوة بين الناس ومرضاً وما أشبه)^(٥).

وما قال العلامة في القواعد والتحرير: (إنه كلام يتكلم به أو يكتبه أو رقية، أو يعمل شيئاً، يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة)^(٦).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٨.

(٣) تقريب القرآن ج ١، ص ١٦١.

(٤) راجع المكاسب المحرمة للشيخ الأعظم رحمة الله عليه ج ١، ص ٢٥٨ - ٢٦٥.

(٥) تقريب القرآن ج ١، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٦) مكاسب الشيخ الأعظم، المكاسب المحرمة ج ١، ص ٢٥٩ عن القواعد ج ١ ص ١٢١

والتحرير ج ١، ص ١٦١.

وليس من السحر ما إذا كان السبب واضحاً، أو لم يكن تصرفاً في البدن أو العقل أو القلب، أو كان بطريقة مباشرة.

كأن يسقيه دواءً، أو يضربه على رأسه أو إيجاد الحب والبغض عبر الكذب والنميمة ونحوها، فكل ذلك ليس من السحر.

«٢»

سبب انتشار السحر

إن الجهل أهم سبب لانتشار السحر والتجاء الناس إليه، ولذا ينتشر في المجتمعات البدائية والمتخلفة، ويقل في المجتمعات المتحضرة.

فإن من الجهل: أن يتصور الإنسان أن للساحر قوى خارقة غيبية يمكن بواسطتها حل المشاكل.

وإن من الجهل: أن يرى الإنسان حل مشاكله بيد إنسان آخر هو أكثر مشاكل وشقاوة منه.

وإن من الجهل: أن يترك الإنسان الأسباب الطبيعية التي جعلها الله تعالى لحل المشاكل والأزمات، ويلتجئ إلى الخرافات والأمور غير الطبيعية التي لا تنفع، وهو يرى عدم نفعها لكنه يبقى مصراً عليها.

«٣»

تأثير السحر

لا شك في تأثير السحر على الناس، ولكنه قد يكون مضرراً عليهم وقد يكون مجرد تمويه وتأثير على أبصارهم فحسب.

١ - فمن التمويه على العين، ما أشار إليه تعالى حيث قال: ﴿فَلَمَّا

أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيَنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ^(١)، حيث إنه لخفة الحركات وخفاء السبب فإن العين لا يمكنها أن تجاري ما يقع في الخارج، فيتخيل الإنسان شيئاً ليس له واقع على أنه حقيقة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَتَىٰ تَسْعَىٰ﴾^(٢)، حيث إنهم وضعوا فيها الزئبق، فلما ارتفعت درجة الحرارة بارتفاع الشمس تحرك الزئبق - لأنه ينسبط في الحرارة وينقبض في البرودة - وبأثر تحركه تحركت الجبال والعصي، ولخفاء السبب خُيِّلَ إلى فرعون أنها تتحرك، في حين أن المتحرك كان في الحقيقة الزئبق لا الحبال والعصي.

٢ - ومن الضرر على البدن أو العقل ما أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْتَفَلَسْ فِي الْعُقَدِ﴾^(٣)، وهن الساحرات اللاتي ينفخن عند السحر في العُقَد التي يعقدونها في الخيط، ولو كان السحر مجرد تخيل لم يكن معنى للشر هنا، وكذلك قوله تعالى هنا: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَلْمَرِّ وَرَزَقِهِ وَمَا لَهُمْ بِبُخَارَيْنِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حيث أثبت تعالى أن هؤلاء يفرقون بين المرء وزوجه بإلقاء الحب والبغض ثم إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أثبت أن هنالك ضرراً لكن لا يكون إلا بعد أن يأذن الله تعالى، فإذا ليس هو مجرد تخيل.

وفي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام حيث سأله الزنديق عن مسائل كثيرة منها ما ذكره بقوله: أخبرني عن السحر أصله؟ وكيف يقدر الساحر على ما يُوصف من عجائبه وما يفعل؟

(١) سورة الاعراف، الآية: ١١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الفلق، الآية: ٤.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن السحر من وجوه شتى، منها بمنزلة الطب، كما صنع الأطباء لكل داء دواء، فكذلك علم السحر، احتالوا لكل صحة آفة، ولكل عافية عاهة، ولكل معنى حيلة، ونوع آخر منه: خطفة وسرعة ومخارق وخفة، ونوع منه: ما يأخذه أولياء الشياطين منهم».

قال: فمن أين علم الشياطين السحر؟

قال: «من حيث علم الأطباء الطب، بعضه بتجربة، وبعضه بعلاج»^(١).

وفي الحديث السابق إن الزنديق قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة كلب أو حمار أو غير ذلك؟

قال [الصادق عليه السلام] «هو أعجز من ذلك وأضعف من أن يغير خلق الله، إن من أبطل ما ركبه الله تعالى وصوّره غيره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لو قدر الساحر على ما ذكرت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه والفقر عن ساحته»^(٢).

«٤»

علة تأثير السحر

وفي التقريب «إنما شاء الله أن يختبر عباده، كما أنه حين يخلق العنب ويعطي القدرة للبشر فيعصروه خمراً، لا يخرج الأمر من يده سبحانه، بل إنما ذلك للابتلاء والامتحان»^(٣).

(١) الاحتجاج ج ٢، ص ٨١ نقله عنه الشيخ الأعظم في المكاسب المحرمة ج ١، ص ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تقريب القرآن ج ١، ص ١٦٣.

وفي التقريب أيضاً: (فإن شيئاً لا يؤثر في شيء إطلاقاً إلا بإذن الله، ومعنى إذنه أنه يُخلّي بين المؤثر والمتأثر، ولو لم يُخلّ كان عالم الجبر وبطل الامتحان والاختيار)^(١).

«٥»

علة تحريم السحر

لتحريم السحر أسباب، ولعل منها:

١ - إن الساحر يوهم الناس بأن له قدرات خارقة من نفسه، وذلك يؤدي إلى الشرك بالله، حيث يزعم الإنسان أن هنالك مؤثراً من غير إذن الله تعالى.

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «لأن السحر والشرك مقرونان»^(٢)، وفي (عيون أخبار الرضا) عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «فلا تكفر باستعمال السحر وطلب الإضرار به، ودعاء الناس إلى أن يعتقدوا أنك به تحيي وتميت وتفعل ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فإن ذلك كفر»^(٣).

٢ - الجهل والخرافة، وقد ذكرنا أن الجهل هو أهم أسباب انتشار السحر وإقبال الناس إليه، وبما أن الإسلام دين العلم ويكافح الجهل، فإنه يحرم ما ينتج الجهل أو ينتجه الجهل.

٣ - إضرار الناس، فإن السحر يكثر ضرره لا ينفع، ويكون ضرره على

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٦، ط آل البيت الباب ٢٥ من أبواب ما يكتسب به الحديث ٢.

(٣) وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٧.

دين الناس وعلى دنياهم، وما كان شأنه كذلك كان حري مكافحته ولذا حرمه الشرع المقدس، وفي العيون عن الإمام العسكري عليه السلام «ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، لأنهم إذا تعلموا ذلك السحر ليسحروا به ويضروا به، فقد تعلموا ما يضرهم في دينهم ولا ينفعهم فيه».

ومن ذلك محاولة اختلاق أعداء لمن يراجعهم، وخاصة من أقربائه، وممن يكتشفون أنه يسيء الظن بهم، وذلك بغية إبقائه على جهله، بتحريك القوى الغضبية في داخله، ولذا تكثر العداوات بعد مراجعة السحرة، ومن هنا كانت النميمة من أهم وسائل السحرة، ولكثرة ممارستهم لها عُدت النميمة - مجازاً - من السحر فعن الصادق عليه السلام : «وإن من أكبر السحر النميمة يفرق بها بين المتحابين، ويجلب العداوة على المتصافين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور، ويكشف بها المستور، والنمّام شر من وطئ الأرض بقدمه»^(١) وليس المراد أن النميمة سحر بالمعنى الحقيقي، بل لما كانت من أهم وسائل السحرة لذا عُدت من السحر مجازاً.

٤ - أكل أموال الناس بالباطل حيث يشاهد كثيراً أن السحرة يستغلون مشاكل الناس وجهلهم، فيبتزونهم أموالهم، وقد يأخذون أموالاً طائلة حتى يحلّوا المشكلة، وهم يسوّفون ويأخذون مالاً بعد مال، فإن انحلت المشكلة لأسباب أخرى عزى الساحر الحلّ إلى نفسه، وإن بقيت تحجج بمختلف الحجج واختلق أسباباً أخرى قد توجب عداوات أخرى وهكذا وهلم جرا.

(١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٨١ كما نقله الشيخ الأعظم في المكاسب المحرمة ج ١، ص ٢٦٥.

عقوبة الساحر

قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَ﴾^(١) وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾^(٢).

وللأضرار الكبيرة التي تلحق المجتمع من السحر وقد ذكرنا بعضها، فإن الشرع قد جعل عقوبة شديدة ردعاً عن ارتكاب السحر.

فساحر المسلمين عقوبته القتل، إلا أن يتوب.

أما الساحر الكافر الذي لا يكون محل رجوع المسلمين، فإنه لا يقتل، وإن ترتب على عمله ضرر لزم تأديبه بالتعزير.

قال الوالد رحمه الله في موسوعة الفقه: «الساحر الذي مهنته السحر، حدّه القتل إن كان مسلماً، والتأديب إن كان كافراً، بلا إشكال ولا خلاف في الأول، لما رواه الكليني عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ساحر المسلمين يقتل، وساحر الكفار لا يقتل، قيل: يا رسول الله ولم لا يقتل ساحر الكفار؟ قال: لأن الكفر أعظم من السحر، ولأن السحر والشرك مقرونان^(٣) ورواه الصدوق أيضاً^(٤).

والظاهر أن المراد بالعلة، أن السحر حيث جاز في مذهب الكفار -

(١) سورة طه، الآية: ٦٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٧.

(٣) وسائل الشيعة ج: ٢٨، ص ٣٦٥. عن الكافي.

(٤) المصدر عن من لا يحضره الفقيه.

لأنهما مقرونان - وحيث إن الكفار لا يقتلون بكفرهم للذمة أو نحوها، فلا قتل للساحر»^(١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «من يعلم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً فقد كفر، وكان آخر عهده بربه، وحده أن يقتل، إلا أن يتوب»^(٢).

وفي الفقه «ولو أضرّ الساحر المسحور، ضمن، سواء كان ضرراً في النفس أو في المال، ولو لم يكن لضرره تقدير كما لو عقد الرجل عن حليته، كان تقديره بيد الحاكم»^(٣).

«٧»

روت العامة في بعض كتبهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سُحِرَ، حتى أنه كان يخيل إليه أنه فعل في حين أنه لم يكن قد فعل^(٤) وهذه المرويات تتعارض مع القرآن الكريم، ومن يعتقد بها فهو ظالم بنصه، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾^(٥)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾^(٦)، بل هذا زعم الكفار حول بعض الأنبياء السابقين، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾^(٧).

(١) موسوعة الفقه ج ٨٧ ص ٤٠٧

(٢) وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٨.

(٣) الفقه ج ٨٧، ص ٤٠٩.

(٤) عن عائشة قالت: (سحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من بني زريق يقال له لبید الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما فعله) رواه البخاري، الطب، السحر، الحديث رقم ٥٣٢١.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٦) سورة الفرقان، الآية: ٨.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٠١.

والعجب أن يتركوا هذه الآيات المحكمات، ويتمسكوا بموضوعات، صوناً لأصحاب تلك الكتب أو رواتها، ولكنهم لا يفكرون في تنزيه رسول الله ﷺ من هذه الأباطيل، بل لما بنوا لأنفسهم باطلاً، وهو صحة بعض تلك الكتب من الجلد إلى الجلد، صدّقوا كل ما فيها حتى لو تعارض مع القرآن الكريم أو كان فيه تنقيص من رسول الله ﷺ والعياذ بالله.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ ونذكر ما يتعلق بهذين الملكين في عدة مسائل:

«الأولى»

قليل في سبب إرسالهما: إن السحر لما شاع بين تلك الأقوام، وظن الناس أن الساحر يمكنه أن يأتي بكل ما أراد من خوارق العادات ونحوها، تعسر على الناس التمييز بين السحر والمعجزة. فلذا أنزل الله الملكين هاروت وماروت لكي يُعلِّما الناس إبطال السحر، حتى يعلم الناس أن كل سحر يمكن إبطاله، وأن ما أتت به الأنبياء من المعاجز لا يمكن نقضه، ولا الإتيان بمثله، فيتيقنوا صدقهم وأن ما جاؤوا به ليس من العلوم البشرية بل هي موهبة ربانية^(١).

ويدل على ذلك محاولة المشركين ربط المعاجز بالسحر، حيث كانوا يشيعون بأنها سحر، ولكن محاولاتهم كانت فاشلة، للتمييز الذي حصل بين السحر والمعجزة، مما عرفه عامة الناس فمن محاولاتهم ما أشار إليه تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنَّ^(٢)﴾.

(١) مواهب الرحمن ص ٤٨٩ - ٤٩٠ - بتصرف -

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

ولما شاع السحر، كثر اتهام الأنبياء بذلك، فقال الكافرون عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا﴾^(١)، وعن عيسى عليه السلام: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، وعن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِيرٌ﴾^(٣)، وعن القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(٤).

ولكن محاولة ربطهم معاجز الأنبياء بالسحر بابت بالفشل.

وذلك لأن البشرية عرفت إبطال السحر، وكذلك حقيقة السحر، فلما كانوا يشاهدون المعاجز كانوا يعرفون بأنها ليست بسحر، نعم المعاندون كانوا يقولون بذلك لما كانت الحجة تنقصهم، لكنه لم يكن له ذاك التأثير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٥)، حيث إن اللمس أنفى للشك من الرؤية، ولا يحتمل فيه السحر، ولكنهم معاندون لا يريدون قبول الحق بأية صورة.

ولتمييز السحر عن المعجزة، عرف سحرة فرعون أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس بسحر، فأمنوا مع أنهم كانوا أعرف الناس بالسحر، حتى عبّر عنهم بالسحّار العليم، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَزِجُّهُ وَآخَاهُ وَارْسِلِ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ.

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٣٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

(٣) سورة القمر، الآية: ٢.

(٤) سورة المدثر، الآيتان: ٢٤ - ٢٥.

(٥) سورة الانعام، الآية: ٨.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان: ١١١ - ١١٢.

«الثانية»

تعليم الملكين السحر

أما أنهما لماذا علما السحر، فلأنَّ من يريد تعليم إبطال شيء، يبيِّن ذلك الشيء أولاً، ثم يبيِّن علاجه ثانياً، كما في قول الطبيب هذا سُم، وهذا دواؤه، وإذا أحدهم جاء وتعلَّم من الطبيب ثم قتل الناس بالسم، فالذنب ليس ذنب الطبيب.

ولذا نشاهد حينما يستعمل أحدهم ما تعلمه في الجامعات، بشكل سيئ، فإنه لا تُلام الجامعة، بل يُلام هو ويعاقب لسوء فعلته.

وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كان بعد نوح عليه السلام قد كثرت السحرة المموهون، فبعث الله عزَّ وجلَّ ملكين إلى نبي ذلك الزمان: بذكر ما يسحر به السحرة، وذكر ما يبطل به سحرهم ويرد به كيدهم، فتلقاها النبي عن الملكين وأداه إلى عباد الله بأمر الله عزَّ وجلَّ، وأمرهم أن يقفوا به على السحر وأن يبطلوه، ونهاهم أن يسحروا به الناس، وهذا كما يدل على السُّم ما هو، وعلى ما يدفع به غائلة السم، ثم يقال لمتعلِّم ذلك: هذا السم، فمن رأيتَه سُمَّ فادفع غائلته بكذا، وإياك أن تقتل بالسم أحداً، ثم قال ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وهو أن ذلك النبي أمر الملكين أن يظهرا للناس بصورة بشرين، ويعلماهم ما علمهما الله تعالى من ذلك ويعظاهم، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ ذلك السحر وإبطاله ﴿حَقَّ يَقُولًا﴾ للمتعلِّم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ وامتحان للعباد ليطيعوا الله فيما يتعلمون من هذا ويبطلوا به كيد السحرة، ولا يسحروهم، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعمال هذا السحر وطلب الإضرار» الحديث^(١).

(١) عيون أخبار الرضا ج ١، ص ٢٦٦، وعنه مختصراً وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٧ الباب ٢٥ من أبواب ما يكتسب به.

وفي العيون أيضاً عن الإمام الرضا عليه السلام: «وأما هاروت وماروت فكانا ملكين علما الناس السحر ليحترزوا به سحر السحرة ويبطلوا كيدهم»^(١).

ويشبه هذا ما يكتبه العلماء في رد الشبهات، حيث يذكرون الشبهة أولاً ثم يكتبون الجواب عنها، ولعل من في قلبه مرض يأخذ الشبهة ويترك الجواب ثم ينشرها بين الناس، كما نقله الوالد رحمه الله عن شخص قال رأيت في لبنان كتاباً ذكر فيه إشكالات على الإسلام بحيث يصعب على العوام الإجابة عليها، ولدى التحقيق تبين أنه أخذها عن الكتب التي ألفها العلامة البلاغي للدفاع عن الإسلام، حيث أخذ هذا الشخص الشبهات ولم يذكر الأجوبة، تحريفاً للحقائق وتدليساً على العوام.

«الثالثة»

وردت روايات موضوعة على أن الملكين سجدا لصنم وشربا الخمر وفعلا غير ذلك من الموبقات وأنهما أرادا فعل الفاحشة بامرأة تسمى الزهرة فطمسها الله كوكباً، وروى السيوطي من الدر المنثور فيما يقرب من هذا المعنى أكثر من عشرين رواية موضوعة، صرحوا بصحة بعضها على مبانيهم^(٢).

وروي أنه قيل للإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إِن عندنا قوماً يزعمون أن هاروت وماروت ملكان اختارتهما الملائكة لما كثر عصيان بني آدم، وأنزلهما الله تعالى مع ثالث لهما إلى الدنيا وأنهما افتتنا بالزهرة، وأرادا

(١) العيون ج ١، ص ٢٧١ وعنه وسائل الشيعة ج ١٧ ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) نقله عنه الميزان ج ١، ص ٢٣٩.

الزنى بها، وشربا الخمر، وقتلا النفس المحترمة، وأن الله يعذبهما ببابل، وأن السحرة منهما يتعلمون السحر، وأن الله تعالى مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الذي هو الزهرة».

فقال الإمام عليه السلام: «معاذ الله من ذلك، إن الملائكة معصومون من الخطأ محفوظون من الكفر والقبايح، بالطف الله تعالى»^(١).

وعن الإمام الرضا عليه السلام «وما كان الله ليمسح أعداءه أنواراً مضيئة، ثم يبقيهما ما بقيت السماوات والأرض، وإن المسوخ لم تبقى أكثر من ثلاثة أيام حتى تموت»^(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ۖ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿٣﴾ وهي النجوم والكواكب، وما كان الله تعالى ليقسم بأعدائه.

ولكثرة الموضوعات والأكاذيب ولتمييز الغث من السمين فقد جعل الله تعالى ميزاناً يفرق بين الحق والباطل وهو كتاب الله تعالى أولاً وأهل البيت عليه السلام ثانياً كما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين حيث قال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٤).

ولأنه كثر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أئمة أهل البيت عليه السلام فإن

(١) البرهان ج ١، ص ٥٠١ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٢) البرهان ج ١، ص ٥٠٣ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام.

(٣) سورة التكوين، الآيتان: ١٥ - ١٦.

(٤) وسائل الشيعة ج ٢٧ ص ٢٤ ومن مصادر الحديث: الكافي، والخصال، والإرشاد، وسنن الترمذي، ومسنند أحمد، ومسنند أبي يعلى، ومستدرک الحاكم، والمعجم الكبير للطبراني وغيرها.

ما نسب إليهم من قول يجب عرضه على القرآن الكريم فما وافق الكتاب أخذ به، وما خالفه يترك، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢)، وقال عز من قائل: ﴿وَيَمُنَّ اللَّهُ بِالْبَطِلِ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾^(٣)، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»^(٤). وعن رسول الله ﷺ أنه خطب بمنى فقال: «أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»^(٥). وعن الباقر عليه السلام أنه قال: «انظروا أمرنا وما جاءكم عنا، فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به، وإن لم تجدوه موافقاً فردوه، وإن اشتبه عليكم الأمر فقفوا عنده، وردّوه إلينا، حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا»^(٦).

بعد ذلك كله:

فإن القرآن الكريم دلّ على عصمة الملائكة وإطاعتهم الله تعالى وعدم مخالفته أبداً، ووجوب الإيمان بهم، وكفر من كفر بهم:

١ - فحول عصمتهم قال تعالى: ﴿...بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^(٧)، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

(٤) وسائل الشيعة ج ٢٧، ص ١١٠ عن الكافي والمحاسن وأمالى الصدوق.

(٥) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١١١، عن الكافي والمحاسن.

(٦) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٢٠ عن أمالي الطوسي.

(٧) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكَفِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

٢ - كما أن الإيمان بالملائكة واجب وعداوتهم كفر، ولو كان فيهم
عصاة لما وجب الإيمان بهم، ولا كفر من يعاديهم، قال تعالى:
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾^(٢). وقال سبحانه: ﴿مَنْ
كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَرُسُلِهِ وَحِزْبًا لِمِ كَدَلِ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣).

٣ - كما أن الآيات تدل على أن الملائكة يطيعون الله دائماً وهم في
خشية منه وخوف. فإضافة إلى الآيات الدالة على إطاعتهم الله تعالى
بأجمعهم في أمره بالسجود لآدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾^(٤) وقال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٥).

٤ - في الآخرة مكانهم حول العرش، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ
حَاقِبِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾^(٦).

وأما إبليس فإنه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن قال تعالى:
﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٧).

(١) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٥.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

«الرابعة»:

قال في مجمع البيان: (وفي هذه الآية دلالة على أن الأفعال تختلف باختلاف المقاصد، ولذلك كان تعلم السحر لإزالة الشبهة والتحرز منه واجتنابه إيماناً، ولتصديقه واستعماله كفرًا^(١)).

أقول: وليس في الآية دلالة على أن إبطال السحر كان بسحر مثله. والأقرب أن إبطال السحر الجائز إنما هو بغير السحر من الأعمال الجائزة، كالحلّ بالقرآن والذكر والتعويد ونحوها، قال تعالى: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٤) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ^(٥) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ^(٦) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ^(٧).

وفي الحديث «دخل عيسى بن شفقي على أبي عبد الله عليه السلام وكان ساحراً يأتيه الناس ويأخذ على ذلك الأجر، فقال له: جعلت فداك أنا رجل كانت صناعتي السحر وكنت آخذ عليه الأجر، وكان معاشي، وقد حججت منه، ومن الله عليّ بلقائك، وقد تبت إلى الله عزّ وجلّ، فهل لي في شيء من ذلك مخرج؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: حلّ ولا تعقد»^(٥).

(١) مجمع البيان ج ١، ص ٤٤٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨١.

(٣) سورة طه، الآية: ٦٩.

(٤) سورة الفلق، الآيات: ١ - ٤.

(٥) وسائل الشيعة ج ١٧، ص ١٤٦، أبواب ما يكتسب به الباب ٢٥ عن الكافي، والتهذيب، ومن

لا يحضره الفقيه وغيرها.

قال صاحب الوسائل : خصه بعض علمائنا بالحل بغير السحر كالقرآن والذكر والتعويد ونحوها ، وهو حسن ، إذ لا تصرّح بجواز الحل بالسحر^(١) .

السادس: قوله تعالى: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

أي يتعلمون سحراً يوجب العداوة والبغضاء بين الزوجين مما يؤول إلى الفراق بينهما ، فإن الملكين كانا يقولان: كذا مفرق ، وكذا مبطل للسحر المفرق ، لكن هؤلاء كانوا يعملون بالسحر لا بمبطل السحر .

والتفريق بين الزوجين عن طريقين :

١ - بسبب تأثير السحر الذي عملوه فإنه يوجب البغض .

٢ - بسبب النميمة بين الزوجين حيث يراجعون السحرة ، والساحر - لكي يبتزّ أو لأجل الأهواء الشيطانية - يتكلم بكلام من النميمة يسبب البغضاء بينهما مما يؤدي إلى الفراق .

ولذا عدّت النميمة في بعض الروايات من السحر - مجازاً - كما مرّ .

ولعل ذكر التفريق بالخصوص - مع أن أفعال السحرة وأضرارهم متعددة - ، بسبب أن أهم أعمالهم هو هذا ، وأكثر مراجعة الناس لهم بسبب ما يعانونه من مشاكل اجتماعية وخاصة في الحياة الزوجية .

والشرع المقدس حلّ المشاكل من الجذر وبين وظائف كل من الزوجين وما ينبغي أن يفعل كل منهما ، بحيث لو عمل بها الناس تخلصوا

(١) المصدر، والمسألة محل خلاف بين الفقهاء، وتفصيله في كتاب المكاسب المحرمة للشيخ الأعظم الأنصاري ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٣ .

من جميع المشاكل، لكن الكثير من الناس يُعرض عن الشرع ويلتجئ إلى السحرة وذلك يزيده رهقاً، ويستفاد من الآية أن التفريق بين الزوجين من أشد المحرمات، وعلى الناس الصلح بينهما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١).

السابع: قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الإذن هنا بمعنى الإذن التكويني، أي إن الله تعالى يُخلي بين المؤثر والمتأثر، فإنه تعالى شاءت قدرته أولاً بجعل هذا التأثير، وثم لم يمنع بالجبر عن التأثير.

ولو شاء أن يمنعهم لمنعهم بالجبر والقهر، لكن لو فعل ذلك كان عالم الجبر، وبطل الامتحان والاختبار - كما مرّ -.

وبهذا يجاب عن إشكال أنه كيف لم يمنع من الظلم والمساوىء التي يرتكبها البشر، ولم يمنع من إضلال الشيطان وأعدائه؟ فإنه سبحانه لو منع من الظلم والشر بالمنع التكويني بحيث يعجز الناس عن ارتكابهما، فإنه لم يبق مجال للاختبار والامتحان قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٢)، وإن شاء الله سندكر تفصيل ذلك في مظانه.

وهذا المقطع لإفادة أن الناس تحت إرادة الله وقبضته سواء أطاعوا أم عصوا، حتى لا يزعم العاصي أنه خرج عن سلطة الله تعالى.

كما فيه إشارة إلى أن من التجأ إلى الله تعالى واستعاذ به من شرِّ

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الانبياء، الآية: ٣٥.

السحرة، فإن الله سيبطل سحرهم كما قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهُ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(٢) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ^(٣) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ^(٤) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ^(٥).

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَنفَعُ لَكُمْ مَا يُضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

الضرر وعدم النفع، أخروي ودينوي أيضاً.

أما في الآخرة فواضح، كما ذكره تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾. وأما في الدنيا، فإننا نشاهد أن السحرة - عادة - هم من أتس الناس وأفقرهم.

وفي الآية دلالة على مبعوضة ما يضر ولا ينفع، وقال تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾^(٦). وكذلك ما ضره أكثر من نفعه قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٧).

والضمير في ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ يرجع إلى اليهود التاركين للكتاب والمتبعين لما تتلو الشياطين، فهؤلاء بدل أن يتبعوا الكتاب الذي فيه نفعهم الدينوي والأخروي، اتبعوا السحر الذي يضرهم ولا ينفعهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويمكن رجوع الضمير إلى الناس الذين تعلموا من الملكين أولاً وإلى هؤلاء اليهود المتبعين لهم ثانياً.

التاسع: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾.

(١) سورة يونس، الآية: ٨١.

(٢) سورة الفلق، الآيات: ١ - ٤.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

أي هؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا سحر الشياطين وما تعلموه من الملكين، هؤلاء يعلمون أن من باع الإيمان واشترى بدله السحر، فإنه لا نصيب له في الآخرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مما يدل على عدم علمهم، مع أنه تعالى قال قبله بقليل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ ففيه وجوه منها:

١ - أن العالم غير العامل بعلمه كالجاهل، فمعنى ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لو كانوا يعملون بعلمهم.

٢ - متعلق العلم والجهل أمران مختلفان:

أما متعلق العلم: فهو عدم نصيب في الآخرة.

وأما متعلق الجهل: فهو أنها بثست المعاملة، حيث إن هؤلاء مع علمهم بأنهم لا نصيب لهم في الآخرة كانوا يزعمون أن ربح الدنيا والتمتع بها خير من ثواب الآخرة وأحسن من عذابها، فهؤلاء كانوا يجهلون أنها بثست المعاملة، لأن الدنيا قليل لا يبقى والآخرة كثير لا يفنى.

ولذا أكد الله تعالى عدم علمهم في الآية التالية حيث قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ففي هذه الآية بين الله تعالى جهلهم بأن المثوبة خير، وفي الآية السابقة بين سبحانه جهلهم بأن معاملتهم شر.

المطلب الثاني عشر ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل (الردائل الأخلاقية)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ إِلَهٍ ۖ﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا
الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۖ

أولاً:

١٠٤ - ومن سيئاتهم شتمهم لرسول الله ﷺ حيث استغلوا
اشتراك استعمال كلمة «راعنا» بين الشتم على لغتهم بمعنى «اسمع لا
سمعت»، وبين معنى النظر والانتظار في لغة العرب فقال تعالى:
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ للرسول ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ من
المراعاة والانتظار، وذلك لأن اليهود يستغلون كلامكم لشم
الرسول ﷺ، ﴿و﴾ لكن ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ بعين رحمة أو انتظرنا،
﴿وَاسْمَعُوا﴾ سماع طاعة، ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ الشاتمين للرسول ﷺ وكذلك

المخالفين لهذا الأمر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الدنيا حيث كتب عليهم الجلاء والأسر والقتل ونحوها، وفي الآخرة خالدون في النار.

ثانياً:

١٠٥ - ومن سيئاتهم: عدم تحملهم لرؤية فضل الله على غيرهم حسداً ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود حيث كانوا يكذبون بأنهم يحبون الخير للمؤمنين، وهذه الرذيلة ليست خاصة بهم بل يشاركون فيها غيرهم، لذا قال تعالى: ﴿وَلَا الشِّرْكِينَ﴾، هؤلاء لا يحبون ﴿أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي نوع من أنواع الخير - مادياً كان أم معنوياً كالوحي - ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ﴿و﴾ لكن ﴿اللَّهُ﴾ لا يعمل حسب أهوائهم، بل ﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ﴾ كالنبوة ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ حسب المصلحة، ولذلك أنزل عليهم التوراة من قبل مع وجود أقوام كثيرة تعاصرهم، وأنزل القرآن على محمد ﷺ الآن، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فليست النبوة خاصة باليهود أو بني إسرائيل بل الله يختار حسب المصلحة كما قال سبحانه: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقال سبحانه: (الله أعلم حيث يجعل رسالته).



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

هذا الخطاب يراد به المسلمون فقط، وقد ورد في القرآن في ثمانية

وثمانين مورداً، والحكم فيها وإن كان عاماً للجميع - لاشتراك الكل في التكليف -، لكن الخطاب حُصِّصَ بالمؤمنين تشريعاً لهم أو لأنهم المنتفعون بهذه الآيات المباركات حيث يحاولون تطبيق ما جاء فيها من أمر أو نهى، أما غير المؤمنين فلا يهمهم تنفيذ أوامر الله تعالى.

وقيل كل آية فيها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مدنية، وذلك لأن جميع موارد استعمالها، جاءت لبيان حكم شرعي من أمر أو نهى، والموارد القليلة التي جاءت للإخبار فإنما يراد به الأمر أو النهي أيضاً، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَبِّكَ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْرٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١) وهذا خبر يراد به النهي عن الارتداد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾^(٢)، يراد من هذا الخبر النهي عن إطاعتهم.

وأما الخطابات التي صدرت بـ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ - وتبلغ عشرين مورداً - فهي عادة دعوة إلى أصول الدين كالدعوة إلى عبادة الله، كقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٣)، وبطلان عبادة غيره كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾^(٤)، والدعوة إلى اتباع الرسول ﷺ كقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٥)، والتخويف من يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٤) سورة الحج، الآية: ٧٣.

(٥) سورة الاعراف، الآية: ١٥٨.

أَلْبَحَثِ فَإِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ^(١)، والتذكير بنعم الله عليهم كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، وهذه الآيات المصدرة بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يُبَيِّنُ فيها وجه الاستدلال على أصول الدين أيضاً، فهي دعوة إلى الإيمان، وبعد الإيمان ينتفع الإنسان بالأحكام الشرعية.

وأما الخطابات التي صدرت بـ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ - وتبلغ خمسة عشر مورداً - فهي:

إما لتسليية الرسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ﴾^(٣)، وكقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤). وكقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا﴾^(٥).

وإما في قضية خاصة بالنبي ﷺ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٦)، وكقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِرِزْقِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَفَعَلَيْنَا أُمْتِعْكُمْ وَأُسْرِخْكُمْ سَرَلًا جَمِيلًا﴾^(٧).

وإما في أمور التبليغ كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٦) سورة التحريم، الآية: ١.

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.

مِنْ رَبِّكَ^(١)، وكقوله تعالى: ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٢)، وكقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾^(٣).

وإما في طريقة التعامل مع الكفار والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَنْتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(٤)، وكقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٥).

وإما فيما يتعلق بشؤون النساء كما في ست من الآيات، ولعله لبيان أهمية أحكامهن ولزوم مراعاتهن وعدم الاستخفاف بتلك الأحكام، كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِذَّتِهِنَّ﴾^(٦)، وكقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِتَ أَجْرُهُنَّ﴾^(٧) وكقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ﴾^(٨).

الثاني: قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام «وكانت هذه اللفظة ﴿رَاعِنَا﴾ من ألفاظ المسلمين يخاطبون به رسول الله ﷺ، يقولون: «راعنا»، أي اراع أحوالنا، واسمع منا كما نسمع منك، وكان في لغة اليهود معناها «اسمع لا سمعت»، فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها رسول الله ﷺ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٥) سورة التحريم، الآية: ٩.

(٦) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٨) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

يقولون راعنا ويخاطبون بها، فقالوا كنا نشتم محمداً إلى الآن سرّاً، فتعالوا الآن نشتمه جهراً^(١).

ذمهم الله تعالى على فعلتهم في هذه الآية، وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآتَمَعْتَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ^(٢)﴾، فكان غرضهم من استعمال هذه الكلمة هو التواء ألسنتهم بالسب والطعن في الرسول والدين من دون أن يكون عليهم مأخذ في الظاهر.

ويستفاد من الآية أنه يلزم سدّ جميع الثغرات على أعداء الدين، فالأمور المباحة التي ليست من أحكام الدين، إن كانت ذريعة للطعن في الدين، يلزم الانتقال منها إلى البديل الصحيح، لسدّ الذرائع وعدم تعريض الدين للطعن والاستهزاء، نعم لو كان استهزاؤهم وطعنهم في واجب أو مستحب أو ما هو من الدين مطلقاً، فلا ينبغي الاهتمام باستهزائهم وسخريتهم لأن الله تعالى قد كفى رسوله والمؤمنين شرهم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^(٣)﴾.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعُوا^(٤)﴾.

لعل سبب قولهم ﴿أَنْظُرْنَا﴾ كان عدم سماعهم لكلام الرسول ﷺ لانشغال قلبهم بالتفكير في أمور أخرى، أو لتكلم بعضهم مع البعض الآخر، فلذا أرشدهم الله تعالى بأنه يجب عليهم سماع كلام الرسول سماع فهم وطاعة، فإن من يريد تنفيذ أمر تتوق نفسه إلى سماعها ينشغل قلبه بشيء ولا يشغل سمعه لسماع شيء آخر، فيفهمه ويعيه بسرعة.

(١) البرهان ج ١، ص ٥٠٦ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٥.

ويجوز أن يكون المراد: أن لا تكونوا كاليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا، فسماعهم لكلام الرسول ﷺ لم يكن سماع طاعة بل إما للاستهزاء أو لغرض الجدل بالباطل ونحوهما من الأغراض الباطلة.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يستفاد من الآية أن الاستهزاء بالرسول ﷺ وسبه من موجبات الكفر والخروج عن الدين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَأَيُّكُمْ وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١).

وذلك لأن الاستهزاء والسب يكشف عن عدم تصديقه ﷺ، ولا يعقل أن يستهزئ به من يصدق برسالته ويتيقن بها.

وفي الفقه للوالد رضوان الله عليه:

(إن الأنظمة الإسلامية الصحيحة عقيدة وشريعة الموجبة لرفاه البشرية، متوقفة على شخصية الرسول ﷺ واحترامه عند الناس، فإهانته معناها تحطيم أساس رفاه البشر، وهي أسوأ من قتل إنسان، إذ قتله تحطيم لسعادة الفرد، بينما إهانة الرسول ﷺ شروع في تحطيم سعادة كل البشر) (٢).

وفي الفقه أيضاً:

(لا إشكال في حرمة الاستهزاء بالله والرسول وآيات الله سبحانه،

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥ - ٦٦.

(٢) الفقه ج ٨٧، ص ٣٨٦.

والأئمة الطاهرين، والمعاد، وسائر أصول الدين، كما يحرم الاستهزاء بالأحكام الشرعية، وبعض ذلك على حد الكفر، وبعضه من المحرمات القطعية^(١).

الخامس: قوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾

هذا كالدليل لما قبله، فإنهم كانوا يشتمون الرسول ﷺ، بسبب حسدهم لما رأوا فضل الله على غيرهم.

والظاهر يكشف عن الباطن كثيراً، وهذا من نعم الله تعالى على الناس أن جعل لهم طريقاً إلى معرفة باطن الأشخاص، حيث إن كثيراً من الأمور الهامة تتوقف على هذه، ولولا هذه العلائم لما أمكن - غالباً - الوصول إليه، وشتمهم للرسول ﷺ علامة على حسدهم وبغيهم، وذلك مما يسقط اعتبار كلامهم ويفضحهم كيما لا يتأثر بهم أحد وتتم الحجة على الجميع، والحمد لله رب العالمين.

السادس: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

الرحمة عامة لكل أنواعها، وأهم مصاديقها: النبوة، وهذا رد للكفار من أهل الكتاب، حيث كانوا يريدون النبوة لهم لا للعرب، ورد للمشركين حيث ما كانوا يطبقون نبوة محمد ﷺ للجاهلية والعصبية القبلية التي كانت تتحكم بهم.

ومشيئة اختصاص النبوة ليس عبثاً وإنما لحكمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢) وذلك لأن الرسالة تحتاج إلى موضع قابل لائق، ولما

(١) الفقه، ج ٩٣، ص ٣٩٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

لم يكونوا الموضع اللائق بسوء أفعالهم، وكان محمداً ﷺ المحل القابل لها جعل الله الرسالة فيه دون غيره.

وقد مرّ أن الله تعالى جعل الدنيا دار التفاضل في الأشياء والأشخاص لكمال حكمته، فراجع.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) أَهْمُ يَفْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّهُمْ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعَنَا بَعْضَهُمْ فَوقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١﴾.

حيث زعموا أن الرسالة لا تليق إلا بمن له مال وجاه، فردّهم الله تعالى بأنه ليس لهم وضع النبوة حيث شاؤوا، بل الأمر لله، وهو لم يوكل لهم تدبير ما هو أقل من النبوة وهو أمور الرزق، فكيف يفوض أمر الرسالة إلى تقديراتهم، والرسالة من أعظم الأمور؟

وروي أنهم (لأجل ذلك - أي عدم وُدّهم نزول الخير عليكم - يمنعون أهل دينهم من أن يحاجوك، مخافة أن تبهرهم حجّتك، وتفحمهم معجزتك فيؤمن بك عوامهم، أو يضطربون على رؤسائهم، فلذلك يصدون من يريد لقاءك - يا محمد - ليعرف أمرك: بأنه لطيف خلاق ساحر اللسان، لا تراه ولا يراك خير لك، وأسلم لدينك ودنياك، فهم بمثل هذا يصدون العوام عنك) (٢).

وهذا بمعنى قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَوْا شِبَاهَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٣).

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١ - ٣٢.

(٢) البرهان ج ١، ص ٥٠٨ عن التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام.

(٣) سورة نوح، الآية: ٧.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿

١٠٦ - لأن اليهود والمشركين ما كانوا يحبون تنزيل الخير على المسلمين، فلذا كانوا يتحججون بمختلف الاستدلالات لإبطال نبوة رسول الله محمد ﷺ، ومن شبهاتهم: أنه كيف تنسخ التوراة؟ فإنها إن كانت صالحة لم يجر نسخها، وإن لم تكن صالحة كيف أمر الله موسى ﷺ باتباعها؟ وكذلك كيف تتغير الأحكام التي يجيء بها محمد ﷺ؟ فالجواب: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ النسخ: التبديل ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ علامة من علائم الله، سواء أكانت الكتب السابقة أم الأحكام الشرعية أم في التكوينيات، ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ النسيان بمعنى تركها حتى ينساها الناس كما حدث بالنسبة إلى بعض الكتب السماوية السابقة حيث لم تُذكر حتى نُسيت، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ لأجل مصلحة اقتضت ذلك، كما في اختلاف شرائط الزمان والمكان، كما في القبلية حيث كانت بيت المقدس فنُسخ الحكم بجعل الكعبة قبلية حتى لا يكون لليهود حجة على المسلمين، أو لتسهيل الأمر على المكلفين

كقوله تعالى: (الآن خفف الله عنكم)، وكونها خيراً منها إما في الثواب، وإما في المصلحة أو لجهات أخرى.

وعدم النسخ إما لعدم القدرة أو لعدم وجود المثل أو الأصلح، وقد ثبت وجود المثل والأصلح، كما أن الله قادر ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجز عن النسخ.

١٠٧ - ودليل قدرة الله على النسخ أنه قادر على التكوينيات فكيف يعجز عن التشريعات؟ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيتصرف كما يشاء في التكوين وفي التشريع، فهو الذي يعلم بالمصالح الواقعية من مختلف الجهات ويلطف بكم حينما يُبينها لكم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ﴾ أي غير ﴿اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أموركم ويرشدكم إلى مصالحكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم بالحجة البالغة على أعدائكم المجادلين في دينكم.



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ﴾.

ونذكر حول النسخ جهات، منها:

الجهة الأولى

النسخ هو التبديل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

(١) سورة النحل، الآية: ١٠١.

ولذا قيل في معناه - لغة - : إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه ، كقولهم : نسخت الشمس الظل ، أي أذهبتَه وحلَّت محلَّه ، كما في قوله تعالى : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ﴾^(١) أي يبطل الله مؤامرات الشيطان .

والنسخ في التشريع : هو إظهار انتهاء أمد الحكم وانقضاء أجله ، كما نسخت آية ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ بآية ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(٢) . حيث إن الحكم بوجوب الصدقة كان محدوداً بوقت معين ، ولكن لمصلحة لم يُبين أنه محدود ، ثم لما انتهى وقت الحكم لتحقيق المصلحة المرجوة منه ، تمَّ بيان انتهاء أمد الحكم .

والنسخ في التكوينيات : هو إذهاب آية تكوينية والإتيان بآية أخرى مكانها ، كما في موت نبيِّ ونصب نبيِّ آخر أو وصي مكانه .

الجهة الثانية

لعل حكمة النسخ هو :

- ١ - الامتحان ، كما في أمر إبراهيم عليه السلام بذبح اسماعيل عليه السلام .
- ٢ - أو التدرج في الأحكام تسهيلاً من الله على العباد ، كأن يجعل المنسوخ مقدمة للناسخ .
- ٣ - أو للتمهيد لقبوله ، فيما لو كان الحكم المنسوخ أصعب ، كما

(١) سورة الحج ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة المجادلة ، الآيتان : ١٢ - ١٣ .

روي في إيجاب صوم ثلاثة أشهر ثم نسخه شهرين ، أو إيجاب خمسين صلاة كل يوم ثم نسخها بسبع عشرة ركعة^(١) .

أو لجهات أخرى .

الجهة الثالثة

لا نسخ في العقائد ، فإنها حقائق غير قابلة للتبديل كالتوحيد - مثلاً - ، كما أنه لا نسخ في الأحكام العقلية القطعية - لأن العقل حجة الله الباطنة - كما لا نسخ في أصول بعض الأحكام كأصل العبادة ، وإنما النسخ في بعض الأحكام .

ولذا لا تعدد في الأديان ، بل هو دين واحد قال تعالى : ﴿إِنَّ الْدِينَ﴾^(٢) عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ^(٣) ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا﴾^(٣) .

ولذا لا يصح القول بأن الأديان الإلهية متعددة ، بل الصحيح هو وحدة الأديان وتعدد الشرائع .

الجهة الرابعة

علة بقاء الآيات المنسوخة في القرآن بعد تبديل حكمها ، هو اشتمالها على فوائد ومصالح جمّة ، وقد يكون الغرض هو إيصال فكرة معينة ، فعلم الناس بالنسخ كفيل بعلمهم بتلك الفكرة .

(١) وسائل الشيعة ج ٤ ص ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٢٣ .

كما في آيات النجوى، حيث إن الغرض لعله :

١ - بيان أن الناس يبادرون في الأمور التي فيها وجاهة لهم، لكن حينما يصل الأمر إلى البذل فإنهم يحجمون!

والتناجي مع الرسول ﷺ وهو النبي والحاكم كان يتخذه البعض ذريعة لبيان أهميتهم، فلذا حاولوا كسب الوجاهة عبر ذلك، فأراد الله بيان عدم صدقهم.

٢ - مضافاً إلى إعطاء قاعدة عامة وهي كشف الصادق من غيره، بواسطة تكليف ليس بصالحهم ظاهراً.

٣ - مضافاً إلى بيان فضيلة للإمام علي عليه السلام حيث إنه الوحيد الذي عمل بالآية المنسوخة قبل نسخها، فتصدق وناجى الرسول ﷺ^(١).

٤ - مضافاً إلى الجهات البلاغية، وفهم الآيات الناسخة، إذ لعل فهمها يتوقف على فهم الآية المنسوخة. ولغير ذلك من جهات.

الجهة الخامسة

لا يمكن نسخ آيات القرآن الكريم، إلا بآيات أخرى من القرآن، وذلك لقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ ومن المعلوم أن السنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله، بل القرآن خير منها.

(١) مجمع البيان ج ٩، ص ٦١٩.

وقال ابن عمر: وكان لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه ثلاث، لو كانت لي واحدة منهن لكانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى. وقال أمير المؤمنين صلوات الرحمن عليه: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي... الحديث.

وقال الطبرسي رحمه الله: (إن القرآن يجوز أن ينسخ بالسنة المقطوع عليها ومعنى ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي أصلح لنا منها في ديننا وأنفع لنا بأن نستحق به مزيد الثواب) الخ^(١).

ومرجع كلامه إلى أن الحكم الناسخ في السنة خير من الحكم المنسوخ في القرآن وذلك لأن مرجع السنة إلى أمر الله تعالى ووحيه. ولكن الضمير في قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ راجع إلى الآية لا إلى حكم الآية فقط، فيكون المعنى حينئذ أن الحديث خير من الآية، وذلك لا يصح البتة، فتأمل.

الجهة السادسة

كون الآية الناسخة خير من الآية المنسوخة أو مثلها، هو اشتغال الناسخ على مصلحة المنسوخ أو الزيادة عليه.

وإنما نسخ مع المماثلة لفقد المنسوخ تلك المصلحة، كما في طبع الأوراق النقدية الجديدة مع تماثلها في القيمة للأوراق النقدية القديمة لاهتراء الأوراق أو لتغيير صورة أو نحوها.

وكذلك كونها خيراً منها، كما في الدراسات العالية فإنها خير من الدراسات الابتدائية، وذلك لتبدل الزمان ولا رتقاء مستوى الدارس، فحين درس الابتدائية كان فيها المصلحة، والآن المصلحة في الدراسات العليا التي هي خير من الابتدائية.

ومن أمثله في القرآن الكريم: القبله، حيث كانت بيت المقدس، ثم نسخ ذلك وتحولت القبله إلى الكعبة وذلك لانتهاه مصلحة التوجه إلى

(١) مجمع البيان، ج ١، ص ٤٥٨.

بيت المقدس، وهي ما أشارت إليه الآية الشريفة ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَةً﴾^(١)، وكذلك ﴿لِتَقْلَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾^(٢)، ومن المصلحة التي اقتضت جعل القبلة التوجه إلى الكعبة ما قاله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٣).

الجهة السابعة

كما يوجد النسخ في التشريع، كذلك يوجد النسخ في التكوينات ولكن بمعناه اللغوي، فمنه:

١ - موت إمام وقيام إمام آخر مقامه من النسخ^(٤)، ويمكن أن يكون منه وفاة نبي وقيام نبي أو وصي آخر مقامه، لأن السنة الإلهية تقتضي الموت بعد أمد معلوم، وعدم الخلود لأي إنسان - طال بقاؤه أم قصر -، وأن يخلف الناس أناس آخرون، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَايِنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٥). وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٦).

٢ - ومنه البداء، وهو إظهار أمر لا يتحقق لعدم تحقق شرطه، فيذكر الأمر ويخفى شرطه - لمصلحة -، قال الله تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّطُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) البرهان ج ١، ص ٥١٢ عن تفسير العياشي.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.

(٦) سورة الملك، الآية: ٢.

(٧) سورة الرعد: الآية: ٣٩.

وعن الباقر عليه السلام «الناسخ ما حوّل، وما ينسأها مثل الغيب الذي لم يكن بعد، كقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، قال: فيفعل ما يشاء ويحوّل ما يشاء، مثل قوم يونس إذ بدا له فرحمهم، ومثل قوله: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، قال أدركهم برحمته»^(١).

٣ - ومنه التخصيص - أي خروج الآية الثانية عن موضوع الآية الأولى، نظير الاستثناء المنقطع - كقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ونسخ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٢٦﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾^(٢)).

ويحتمل التخصيص - أي خروج الآية الثانية عن حكم الآية الأولى مع الدخول في موضوعها - ففي آلاء الرحمن^(٣) مع أنه لو كان القضاء الحتم تحت اختياره تعالى من كل جهة - حدوثاً وبقاءً -، يصح التخصيص بالنسبة إليه أيضاً وإنما أظهره بصورة التعميم والحتم لمصالح في ذلك» انتهى.

الجهة الثامنة

دلت الآية على أن القرآن محدث، وهو غير الله تعالى - كما في مجمع البيان^(٤).

(١) البرهان ج ١، ص ٥١١، وسورة الذاريات، الآية: ٥٤.

(٢) تفسير النعماني، الميزان ج ١، ص ٢٥٥، آلاء الرحمن ج ١، ص ٥٢٥ والآيتان: سورة مريم، الآية: ٧١، وسورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٣) ج ١، ص ٥٢٦.

(٤) مجمع البيان ج ١، ص ٤٥٨.

أولاً: لأن الله قديم، ولا يعقل نسخ القديم، لأن القديم ضروري الوجود، وما كان ضروري الوجود استحال العدم عليه.

ثانياً: الله تعالى لا مثل له قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، والآية المنسوخة لها مثل، بل قد يكون ذلك المثل خيراً منها.

ثالثاً: أثبتت الآية قدرة الله على الناسخ والمنسوخ، والقدرة تتعلق بالفعل، ولا يكون الفعل إلا محدثاً، وذات الله ليست فعلاً ولا محدثة.

وفي النسخ بحوث أخرى لم نذكرها حتى لا نخرج عن موضوع الكتاب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿مَنْ آيَةٌ...﴾

«الآية» في اللغة العلامة، والكتب السماوية علائم تدل على الله تعالى.

والآية غير مختصة بالقرآن بل تشمل الكتب السماوية السابقة أيضاً قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾^(٢).

والمعاجز من آيات الله تعالى، ولذا تم التعبير في القرآن الكريم عن المعجزات بالآيات، بل لم ترد كلمة «المعجزة» بهذا المعنى في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾^(٣)، سمي كلام الله تعالى بالآيات لأنه معجزة لا يمكن الإتيان بمثله.

وشأن نزول هذه الآية هو إشكال اليهود على القرآن بأنه كيف ينسخ

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٣) سورة الاعراف، الآية: ٧٣.

التوراة؟ والجواب هو أن نسخ التوراة ممكن، فالآية في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ شملت التوراة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾.

من النسيان، والمعنى تركها وعدم ذكرها حتى تُنسى، فترفع رسمها وكتابتها وتبلى عن القلوب حفظها.

وهذا مختص بالكتب السماوية السابقة، فبعضها تركت حتى لم تبق كتابتها ولم يبق حافظ لها.

وقيل بنسخ التلاوة في بعض آيات القرآن، بمعنى أن الله أنزل آيات في القرآن ثم رفعها من المصحف فحذفت منه!!

واستدلوا ببعض المرويات التي زعموا أنها من نسخ التلاوة كما روى أن «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»^(١).

وهذا القول غير صحيح بل هو قول بتحريف القرآن!!

أولاً: لأن بعض الآيات التي زعموا نسخ تلاوتها مذكورة في الكتب فهي غير منسّية، مع أن شرط نسخ التلاوة هو الإنشاء كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فعدم نسيانها وذكرها في الكتب دليل على أنها ليست من الآيات المنسوخة بل هي زعم تحريف في القرآن الكريم.

ثانياً: لقوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ^(٢)، دلت الآية على أن الرسول ﷺ لا ينسى ما أقرأه الله تعالى، قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ دال

(١) رواه ابن ماجه في سننه، الحدود، الرجم، الحديث رقم ٢٥٤٣، وقريب منه في البخاري ومسلم وغيرها.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٦ - ٧.

على نسيان الجميع لها، وأما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ليس بمعنى وقوع النسيان فعلاً، لأن ذلك غير مختص بالرسول ﷺ فكل إنسان لا ينسى ما قرأه إلا إذا شاء الله، بل المعنى أن عدم نسيانه لا يخرج عن قدرة الله تعالى، فالله تعالى أقرأه فلا ينسى ولكن مع بقاءه تحت قدرة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُوءُوا فِى الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾^(١)، أي إن الله قادر على إخراجهم من الجنة، وهذا للتنبيه على قدرته تعالى، مع أنه سبحانه لا يخرج أهل الجنة منها أصلاً، وكذلك الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لمنع الغلو فيه ﷺ وبيان أن المقامات التي أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ لا تسبب عدم حاجته إلى الله، بل هو محتاج إلى الله تعالى دائماً.

والحاصل أن قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ خاص بالكتب السماوية السابقة ولا يجري في القرآن.

بلى لما رأى بعض العامة الروايات الدالة على تحريف القرآن في صحاحهم، ولم يمكنهم ردّها كما لم يتمكنوا من القول بتحريف القرآن، اضطروا إلى ابتداء اصطلاح نسخ التلاوة للخروج عن هذه العويصة.

مع أن بعض مروياتهم تأبى عن الحمل على نسخ التلاوة مثل ما روه عن عائشة أنها قالت (كان ما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن)^(٢).

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.

(٢) رواه مسلم، الرضاع، التحريم بخمس رضعات، الحديث رقم ٢٦٣٤. ج ٤ ص ١٦٧.

أو حديثها الآخر في أكل الداجن آيات الرضاعة التي ضاعت بسبب ذلك الأكل لانشغالهم بموت رسول الله ﷺ^(١).

ومن المعلوم أن لا نسخ بعد وفاة الرسول ﷺ فلا محمل لهذه المرويات إلا التحريف!!

مع بداهة بطلان التحريف وأن القرآن الذي بأيدينا هو كما نزل على رسول الله ﷺ، وسنتعرض لبحث نفي التحريف عن القرآن لاحقاً إن شاء الله تعالى.

مضافاً إلى اشتراط الإتيان بالمثل لقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ وبعض مروياتهم تدل على عدم التعويض، مثل ما روي عن زر بن حبیش أن أياً قال له: كم تقرأون الأحزاب؟ قال: بضعا وسبعين آية، قال قد قرأتها ونحن مع رسول الله ﷺ أطول من سورة البقرة^(٢).

الرابع: قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

كون الآية الناسخة خيراً من المنسوخة إما لأنها أسهل، فهي خير لكم في التسهيل، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾^(٣)، وإما لأنها خير منها في المصلحة، لانتهاه مصلحة المنسوخ، وانحصار المصلحة في الناسخ، وإما خير منها في الثواب، وإما الناسخ في الوقت الثاني خير من المنسوخ في الوقت الأول، فالقرآن في زمن رسول الله ﷺ وإلى الأبد، خير من التوراة في زمن موسى عليه السلام، أو لجهات أخرى.

(١) رواه ابن ماجه، النكاح، رضاع الكبير، الحديث رقم ١٩٣٤. وابن حزم في المحلى ج ١١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) مجمع البيان ج ١، ص ٤٥٧ رواه عن أبي علي في كتاب الحجة.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

وأما كونها مثلها، فهو المثلية في السهولة، أو الثواب كالصلاة باتجاه الكعبة مثل الصلاة باتجاه بيت المقدس، أو غير ذلك.

الخامس: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾....

استفهام تقرير وتثبيت، أي قد علمت، وهذا النوع من الاستفهام أوقع وأقوى من مجرد الإخبار.

والفاعل في «تعلم» النبي ﷺ خطاباً تشريفاً، أو ليتعلم منه سائر الناس كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١).

وهذا تعليل لقدرته تعالى على النسخ، فالذي بيده التكوين لا يعجز عن التشريع وضعاً ورفعاً بالنسخ أو بغيره، فإن النسخ إما لعدم وجود المثل أو الأفضل، وإما لعدم القدرة، وقد ثبت وجود المثل والخير، كما أن الله قادر على كل شيء.

وقيل: إن الإتيان بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ للدلالة على قدرته تعالى حدوثاً وبقاءً، فهو قادر على الإيجاد فقال تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقادر على التصرف فقال تعالى: ﴿أَنْتَ اللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

والأولى ما ذكرناه من إثبات قدرته على النسخ تشريعاً، ثم الاستدلال على قدرته التشريعية بقدرته التكوينية.

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾... الآية.

«الولي» من يقوم بالأمر الذي يتولاه.

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

والمعنى أن الله يلي أمركم وينصركم، ولذا شرّع النسخ، فإن الوليَّ يراعي مصلحة المُولَّى عليه، وينصره، وفي الجوهر الثمين (والفرق بينهما أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً)^(١) بمعنى أنه ليس بولي، لكن الله تعالى هو الولي وهو النصير فلا المخلوقات خارجة عن ولايته، ولا هو ضعيف، والحاصل أن تشريع النسخ كان بسبب ولايته ونصرته.

(١) الجوهر الثمين ج ١ ص ١٣٤.

التعليق على الإرادة - مع أن القبيح هو الفعل - لأجل أنها سبب الفعل، لأن نفسية الإنسان وطريقة تفكيره هما المحركان الأساسيان لحركة الناس.

وإذا قبحت الإرادة، فإن الفعل المراد يكون قبيحاً بطريق أولى، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾^(٢).
الثاني: قوله تعالى: ﴿أَنْ تَسْأَلُوا﴾.

السؤال إذا كان للاستفهام ولمعرفة الحق فهو مطلوب مأمور به، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣). وقد أجاب القرآن عن مجموعة من أسئلتهم للتعليم وصدرها بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^(٤).

وأما إذا كان السؤال للتعنت، أو كان فيه الضرر، كان مذموماً، مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ سَأَلَكُمْ﴾^(٥). فقد كانوا يكثرون السؤال عما يوجب حزنهم، مثل مكان أجدادهم الكفرة، فكان الجواب بأنهم في النار، وكان ذلك يوجب غمهم وحزنهم.
الثالث: قوله تعالى: ﴿رَسُوكُمْ﴾.

لعل إضافة الرسول إليهم - مع عدم اعترافهم برسالته - لأجل:

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

١ - أن لا يتوهم أحد أنه أرسل إلى العرب خاصة، فلا يلزم اليهود الإيمان به! كبعض الأنبياء الذين أرسلوا إلى جمع من الناس قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١).

٢ - وكى لا يتوهم أحد بأن الرسول ﷺ خاص بمن آمن به كما يقال: عيسى نبيّ النصارى ومحمد ﷺ نبي المسلمين! بل هو رسول الجميع حتى لمن أنكره قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢).

الرابع: قوله تعالى: ﴿كَمَا سِئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾^(٣).

التعنت والاستكبار حالة جارية في بعض النفوس، فتشابعت إلى حد كبير معاناة الأنبياء ﷺ، ولذا أكثر القرآن من ذكر قصص الأمم السالفة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾^(٤).

ومع أنا غير مسؤولين عن أفعالهم وأعمالهم كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَانُوا يَمْبُلُونَ﴾^(٥)، ولكن علينا الاعتبار بهم.

نعم البعض حينما يريد إخفاء حقائق التاريخ، وخاصة ما جرى بعد رسول الله ﷺ لكي لا يفتح الناس عقولهم وقلوبهم لمعرفة شأن أهل

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤١.

البيت ﷺ وأعدائهم، أو لأجل التهرب من الأسئلة المحرجة التي لا يجد جواباً لها، فإنه يستدل بهذه الآية، مع أن معناها لو كان ما يزعم - من لزوم إخفاء حقائق التاريخ - لكان القرآن متناقضاً!! حيث ذكر قصص الأمم السابقة، وأكثر من ذكر المنافقين في عهد الرسول ﷺ، بل قبل هذه الآية ذكر جمع من الأنبياء ثم إكمال ذكرهم بتكرار هذه الآية مرتين!!

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ أَلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾.

التبديل هنا هو ترك الثقة بالآيات البينات المنزلة واقتراح غيرها لأجل التعنت فقط، وهؤلاء وإن كانوا قد قصدوا العناد ولكن الآية عامة، فكل من كفر بدلاً من الإيمان فقد ضل - سواء كان قاصداً لذلك أم لم يكن قاصداً - نعم المعاند أسوأ حالاً من الجاهل، والمقصر من القاصر، والمستكبر من المستضعف.

ثالثاً

(من ردائل بني إسرائيل الأخلاقية)

الحسد

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

١٠٩ - ﴿وَدَّ﴾ التمني المتضمن للحب ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لا كلهم، فقد آمن القليل منهم، ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أي أن يرجعوك ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا﴾، وهذا التمني ﴿حَسَدًا﴾ أي لأجل حسدهم منكم، وهذا التمني لم يكن لأجل تدينهم بل ﴿مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي سوء سريرتهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ وأن محمداً ﷺ مبعوث من الله، وليكن موقفكم منهم هو ﴿فَاعْتُوا﴾ بعدم مؤاخذتهم، ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ بعدم عتابهم، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ التكويني بهدایتهم أو إبادتهم، أو أمره التشريعي بتشريع قتالهم

١١٠ - ﴿وَلَمَّا كَانَ مَوْقِفُ أَهْلِ الْكِتَابِ هَذَا، فَ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ لَتَقْوِيهَ أَنْفُسَكُمْ بِرَبْطِهَا بِالْقُوَّةِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِيَةِ، ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ لِلتَّكَافُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ تَقْوِيَةً لِلْفُقَرَاءِ كَيْ لَا تَسْبَبَ الْحَاجَةُ تَأْثَرَهُمَ بِالْكَفَارِ ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ صَلَاتَكُمْ وَزَكَاتَكُمْ يَرْجِعُ نَفْعُهَا إِلَيْكُمْ، فَإِنْ ﴿وَمَا نَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أَبَآ كَانَ هَذَا الْخَيْرُ ﴿بِمُحْدُوهُ﴾ أَيَّ تَجَدُّوا ثَوَابَهُ، أَوْ تَجَدُّوا نَفْسَ الْعَمَلِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَلَا يَضِيعُ عَمَلُكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عَالِمٌ.



الأول: قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ...﴾

«الود» هو إظهار الحب، والمراد هنا هو التمني الذي يظهر على أعمالهم، وذلك بإثارة الشبهات، ليشك المسلمون في دينهم، أو بالمؤامرات التي تنزل ضعاف الإيمان، نظير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ آيَاتُنَا بِالْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا﴾^(١).

الثانى: قوله تعالى: ﴿حَسَدًا﴾.

«الحسد» هو تمنى زوال النعمة عمّن يستحقها - ولو لم يردّها لنفسه - .
ولعل الآية الشريفة تشير إلى أن سبب عدم قبولهم للإسلام ثم

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١١.

مكائدهم على المسلمين ، هو الحسد الكامن في نفوسهم مع علمهم بالحق .

وقد ظهر هذا الحسد في أعمالهم ابتداءً من إثارة الشبهات وانتهاءً إلى إثارة الحروب ، قال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) .

ثم إن منشأ حسدهم هو إرادتهم ، كل خير لهم لا لغيرهم ، وخاصة النبوة كما مرّ في قوله تعالى : ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) .

الثالث: قوله تعالى : ﴿مَنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ .

«من» إما يتعلق بـ«حسداً» أي الحسد ناشئ من أنفسهم ، فيكون تأكيداً ، وإما يتعلق بـ«ودّ» أي ودّهم لرجوعكم كفاراً لم يكن لأجل الحق بل بسبب سوء سرائرهم وفساد باطنهم .

الرابع: قوله تعالى : ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ .

هذا التبيين إما لأجل انطباق الصفات التي كانوا يجدونها في التوراة على محمد ﷺ - وهذا كان يعلمه علمائهم وإن كانوا يخفونه عن العوام - ، وإما لأجل رؤيتهم المعجزات الباهرات من رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٣) .

الخامس: قوله تعالى : ﴿فَاعْفُوا﴾ .

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥ .

(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧ .

«العفو» عدم المؤاخذة، بإسقاط ما يستحقه الغير من العقوبة .

دلت الآية بأن المسلمين كانوا يتمكنون من الانتقام من اليهود، إذ لا معنى لأمر العاجز بالعفو، ولعل سبب العفو هو تحبيب قلوبهم إلى الإسلام، فإنهم حين يشاهدون سماحة المسلمين وعدم رد الإساءة إلا بالإحسان لعلمهم يرجعون إلى رشدهم .

أو لعدم المصلحة في الانتقام في بداية الأمر حتى تشتد شوكة المسلمين فيتمكنون من المؤاخذة بأقل الأضرار .

أو لإتمام الحجة، فإن الانتقام منهم قبل ظهور سوء سريرتهم وانكشاف مؤامراتهم لعله كان يسبب تصور البعض بأن الانتقام منهم لم يكن إلا بسبب معتقداتهم مع أن الإسلام شرع: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) .

أو لإعطائهم فرصة أخرى، فإن الله لا يأخذ المخالفين بأول مخالفة، بل يؤخرهم عنهم يتوبون، لطفاً ورحمة منه، أو لغير ذلك .

السادس: قوله تعالى: ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ .

«الصفح» هو ترك التوبيخ وعدم العتاب، وإزالة أثر عدم الارتياح من صفحة الوجه، وأصله بمعنى ظاهر الجلد، ومنه صفحة الوجه، والمصافحة، والصفحة، وتصفح الكتاب .

والصفح هو فوق العفو، فإن الإنسان كثيراً ما يعفو عمن ظلمه لكنه يهجره أو يظهر على وجهه أثر ما في نفسه من الإعراض وتغير اللون ونحوهما، وقد يعاتب فيظهر على لسانه، وذلك قد يكون مانعاً على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦ .

صفاء النفوس ونسيان الأخطاء، ولكن الصفح مقرب للقلوب قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

وبالطبع فإن العفو والصفح لا يسبب غفران ذنبهم، فإن غفران الذنب بحاجة إلى تنازل صاحب الحق عن حقه الأخروي وتوبة المذنب، فإن مجرد تنازل صاحب الحق عن حقه الدنيوي بعدم المطالبة به، لا يعني تنازله عن حقه الأخروي ولذا ضم الغفران إلى العفو والصفح في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

السابع: قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾.

أمر الله قد يكون تكوينياً، بأن يهدي بعضهم إلى الإيمان أو يبيدهم أو يذلهم، وقد يكون تشريعياً بالإذن في القتال أو الإجماع أو أخذ الجزية منهم.

وفي الآية دلالة إلى أن العفو والصفح ليس بشكل مطلق بل إنما شرع لمصلحة، فإذا تبدلت المصلحة جاز أو وجب أخذهم بذنوبهم.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَائِبَةٍ وَلَكِنَّ يُؤَخِّرُهُمْ﴾...^(٣).

الثامن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لعل الوجه في تكميل الآية ببيان قدرة الله تعالى على كل شيء هو:

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٩.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦١.

١ - إنه تعالى يدعو إلى دينه بما هو أحسن بالحكمة، فتارة يأمر بالعفو والصفح، وأخرى بالمؤاخظة بأشكال مختلفة - من القتل والجلاء والجزية ونحوها - لأنه قادر على كل شيء، ومنه التشريع بالمصلحة.

٢ - أو لأن أمره بالعفو والصفح ليس لأجل العجز بل لأجل المصلحة.

٣ - أو بمعنى أن عليكم الصبر فإن الله قادر على أن يجعلكم أقوياء بحيث تتمكنون من مقابلتهم بالمثل بأقل الخسائر أو لغير ذلك.

التاسع: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾....

لما أمر الله تعالى بالعفو والصفح، أمر المسلمين بالصلاة والزكاة لتجاوز آثار تخريب أهل الكتاب، وللغلبة عليهم.

فأما الصلاة: فإنها توجب توثيق عرى الإيمان وتربط الإنسان بالقوة غير المتناهية، حيث إنها تسبب اطمئنان القلب فلا يتأثر بالشبهات، وتُعين الإنسان على الصبر وتحمل الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وأما الزكاة: فإنها ترفع حاجة الفقراء، كي لا يبقى منفذ يدخل منه أهل الكتاب باستغلال فقرهم ليدعوهم إلى الكفر أو لتحويلهم عناصر تخريب في المجتمع الإسلامي.

وأيضاً فإن الإنسان عليه أن يواصل طريقه ويعمل حسب البرنامج المرسوم له، فعليكم بعد العفو عنهم، الاستمرار في برنامجكم العبادي والاجتماعي فإن في ذلك تقوية للقلب وتجاوز آثار التخريب.

العاشر: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾....

بعد ذكر الصلاة والزكاة، تم التعميم بكل أعمال الخير، وأنها مذكورة عند الله تعالى .

والعلم بذلك يوجب سكون النفس واطمئنانها وعدم تأثرها بالمشككين .

وفي الآية إشارة إلى أن أعمال الخير إنما هي إرسال الإنسان زاداً لنفسه قبل قدومه إلى الآخر ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

كما أن فيها إشارة إلى تجسيد الأعمال حيث قال تعالى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا نفس العمل كما قال تعالى: ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾^(٢).

ومن الواضح أن ذلك من باب المقتضي، أي بشرط بقاء الإنسان على الإيمان والعمل الصالح إلى حين موته، أما إذا كفر فإن عمله يحبط قال تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)، وكذلك بعض الذنوب تبطل الأعمال، قال سبحانه: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمِنِّ وَالْأَذَى﴾^(٤).

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

فصل

مشاركات اليهود والنصارى والمشركون

في أسباب الانحراف

فصل

مشاركات اليهود والنصارى والمشركين في أسباب الانحراف

من هنا - فما بعد - يتم ذكر أمور من أسباب الانحراف، اشترك مع اليهود غيرهم فيها، كالنصارى والمشركين، ولعل التكميل بهذا التعميم للإشارة إلى اشتراك الجميع في أسباب الانحراف، فالأمر ليس منحصرًا في بني إسرائيل وإنما ذكروا كمثال فزعموا أن الحق منحصر فيهم، ثم منعز عبادة الله، ثم انحرافهم في التوحيد، ثم انحرافهم في النبوة.

الأمر الأول

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

١١٠ - ﴿وَقَالُوا﴾ أي اليهود والنصارى، فقالت اليهود: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ أي يهوديًا، وهود جمع هائد بمعنى التائب الراجع إلى الحق، ﴿أَوْ نَصْرَى﴾ أي قالت النصارى لا يدخل الجنة

غيرهم ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع أمانة بمعنى الرغبة، وجمعها - مع أنها أمانة واحدة - تأكيداً، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَاتُوا﴾ أي أحضروا ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ على عدم دخول غيركم الجنة، والأمر تعجيزي لعدم تمكنهم من إثبات البرهان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

١١١ - ثم أبطل الله تعالى قولهم ﴿بَلَى﴾ دخول الجنة له شرطان من توفر ذلك فيه دخلها وإن لم يكن منكم، وهما: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي أخلص ﴿وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ كناية عن انقياده وهذا يرتبط بالمعتقد، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه مستقبلي كالعذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من مكروه فعلي، أو عند الموت، فإن خوف المؤمن وحزنه يعتبر لا شيء مقابل حزن وخوف الكافر.

واشتملت الآية على البرهان للمدعى - وهي عدم انحصار الجنة بهم -، وذلك لأنه بعد ثبوت وجود الجنة يحكم العقل بأن الذي يستحقها هو المؤمن المحسن.



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾....

قد مرّ في توضيح الآية ٩٤ أنّ اليهود والنصارى - حالياً - لا يعتقدون بالآخرة، ويزعمون أن الموت نهاية الإنسان، ولم تذكر الآخرة في الإنجيل المحرف الحالي أصلاً، وقد ذكرت في التوراة المحرّفة مرة

واحدة - على ما قيل - ويهود اليوم يقولون إن المراد منها الذكر الحسن لا الثوب والعقاب!!

فقول يهود ونصارى ذلك اليوم بأنه: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ يحتمل أموراً، منها:

١ - إن بعض مذهبهم التي كانت سائدة في صدر البعثة كان فيها الاعتقاد بالآخرة.

٢ - أو هو تعليق فرضي، أي إن كانت هنالك جنة فهي خاصة بنا .

٣ - أو لعلمهم بصدق الرسول ﷺ كانوا يعلمون بوجود الآخرة، لكنهم لتعنتهم ما كانوا يؤمنون، ولكن كانوا يتمنون أن تكون لهم خالصة دون غيرهم .

الثاني: قوله تعالى: ﴿هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾.

في الآية إيجاز بديع، وإنما ذكرهما معاً لوضوح أن اليهود أعداء للنصارى فلا يريدون الجنة لهم، وكذلك النصارى أعداء اليهود فلا يقولون بأن الجنة لهم .

و«هود» جمع هائد أي التائب الراجع إلى الحق، مشتق من «هاد يهود هوداً»، كقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾^(١)، ولعل هذا الفعل هو اشتقاق من اسمهم حيث إنهم ينسبون إلى «يهودا» أحد أبناء يعقوب عليه السلام .

و«نصارى» جمع نصران مثل سكران وسكارى، ولعله مشتق من كلمة «ناصر» المدينة التي سكنها عيسى عليه السلام لفترة .

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٥٦.

ومن هذه الآية الكريمة، ألحقت النصارى باليهود في الأساليب الباطلة التي اشتركوا فيها مع اليهود.

الثالث: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

أي تلك رغبتهم، وهي رغبة كاذبة لعدم استنادها إلى دليل بل البرهان ضد رغبتهم.

ثم إن الإتيان بالجمع في «أمانيتهم» مع أن الأمنية واحدة، هي انحصار الجنة بهم، يحتمل وجوهاً منها:

١ - إن جمع ما حقه الأفراد يفيد تأكيداً، أي إن هذه الأمنية كانت قوية جداً في نفوسهم أخذت منهم كل مأخذ، فلذا جاءت الأمنية بصيغة الجمع لبيان تأكدها في قلوبهم، قيل: إن الجمع يفيد - بوضعه - الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد وإبانة زيادته على نظرائه، نقلاً مجازياً بديعاً^(١).

٢ - الجمع باعتبار أمنية كل واحد واحد من اليهود والنصارى، فهي مجموعة أمانٍ متعددة بتعدد نفوسهم، وإن كان مؤداها واحداً.

٣ - إن أمنية اليهود تختلف عن أمنية النصارى، فكل منهما يريد الجنة خالصة له، ويجوز جمع المثنى إذا اضيف إلى ضمير التثنية أو الجمع كما في قوله تعالى: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) فجمع اليد مع أنها مثنى.

٤ - أو أن هنالك أمانٍ متعددة، بإضافة أصحاب سائر الملل والنحل الفاسدة إلى اليهود والنصارى، فتأمل.

(١) حاشية الكشف ج ١، ص ١٧٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

الرابع: قوله تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

دلت الآية على لزوم اتباع الدليل والبرهان في أصول الدين، وكل ما لا دليل عليه فهو باطل، لأن الحق الصحيح له البرهان دائماً، وأما أصحاب الملل الفاسدة فكلامهم لا يعدو المغالطة والسفسطة.

وأما في غير أصول الدين، فلا يصح اتباع ما لم يقم عليه دليل - مع احتمال صحته لخفاء الدليل - كما أنه في أحكام الشرع لا يجوز إلا الأخذ عن الرسول ﷺ وأهل بيته ، وكل ما لم يخرج من بيوتهم فهو باطل - حتى وإن طابق الواقع - لأن الأخذ منهم جزء من موضوع الأحكام الشرعية، نظير القطع الموضوعي، ولبحث هذا الأمر مجال آخر.

و«البرهان» هو الدليل الصحيح الذي يقصد قائله الاستدلال به.

الخامس: قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾.

«بلى» تستعمل في جواب الاستفهام، أو في إثبات ما نفى، وهؤلاء نفوا دخول غيرهم الجنة، فكان الجواب هو إثبات دخول غيرهم.

أو أنها جواب سؤال مقدر، وهو «أليس يدخلها أحد» أو «هل يدخلها غيرهم»؟

السادس: قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ كناية عن الخضوع والانقياد، وهذا يرتبط بالاعتقاد، ومعناه الإيمان بالله تعالى، كما أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يرتبط بالعمل الصالح.

والمعنى أن الجنة ليست بالأمانى الباطلة لليهود والنصارى - ولا أمانى غيرهم - تلك الأمانى التي لا برهان عليها، بل البرهان يدل على أن الجنة

ترتبط بالإيمان والعمل الصالح، فمن يريد أجراً من شخص لا يعتد به ولا يعمل في سبيله فإن أمنيته باطلة، أما أن تعرف المنعم عليك وتؤمن به وتطيعه فيما يأمرك من الأعمال الصالحة فإنك تستحق أجراً منه.

ثم إن قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ يراد به أسلم نفسه، وإنما خص الوجه بالذكر لأنها أشرف الجوارح، وإذا أسلمها فقد أسلم نفسه البتة.

والحاصل: أن اليهود والنصارى قبل نسخ شريعتهم وكذلك المسلمون، يستحقون الجنة بالإيمان والعمل الصالح لا بغيرهما، كما مرّت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

السابع: قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾....

الخوف هو من مكروه مستقبلي، والحزن من مكروه فعلي ولذا قالوا: «الخوف من المتوقع والحزن من الواقع».

إن قلت: نشاهد كثيراً خوف المؤمنين وحزنهم؟

والجواب: إن خوف وحزن المؤمن كالعدم إن قيس بخوف وحزن الكافر.

أو يقال إن المراد بالخوف والحزن في الآخرة، فأهل الجنة لا يخافون من المستقبل ولا يحزنون على حاضريهم، ولذا قيل المراد بالخوف هو من العذاب وبالْحزن عند الموت.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٢.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ﴾ .

١١٣ - ﴿و﴾ نتيجة زعمهم انحصار الحق فيهم ، فقد ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعتد به من الدين فكل قولهم باطل ﴿وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ﴿و﴾ الحال أنهم من أهل العلم **﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾** وفيه ما يأمرهم بخلاف ما يقولون، ويعلمون بصحة بعض ما قالته الطائفة الأخرى، **﴿كَذَٰلِكَ﴾** أي مثل هذا القول **﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾** كالمشركين **﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾** حيث أنكروا كل الشرائع - ومنها الإسلام -، وهذا توبيخ لأهل الكتاب حيث صاروا لعنادهم كالجهلة، وإبطال لقول من زعم أن عدم قبول أهل الكتاب للإسلام دليل على عدم صحته، **﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾** جميعاً **﴿يَوْمَ أَقْيَمَتُهُ﴾** حيث لا تبقى شبهة لأحد في حكمه ويضطر الجميع إلى قبوله - حتى المعاند - **﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** من أمر الدين .



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...﴾

الآية مضافاً إلى تأكيدها على أن هؤلاء لأنانيتهم وعنادهم يريدون حصر الحق فيهم، أيضاً جواب شبهة وهي أن الإسلام لو كان حقاً لا اعترف به اليهود والنصارى - وهم أهل كتاب -!!

والجواب هو أن مجرد تلاوة الكتاب لا توجب صحة إنكارهم، وذلك لأن اليهود ينكرون على النصارى وكذلك العكس وكل واحد منهما أهل كتاب، فلو كان إنكارهم معتبراً لبطلا معاً.

إذاً فإن إنكارهم للإسلام لا اعتبار به.

وسب إنكار كل طائفة ما عليه الطائفة الأخرى، هو العناد واللجاج، والمعاند لا اعتبار لكلامه، لأنه ينبذ الحق وراء ظهره - حتى وإن علم به -.

وفي الآية دلالة على لزوم الإنصاف وقبول الحق الذي تقول به الطوائف الأخرى، لا لأنه قولها، بل لأجل أنه حق، وأن لا يدع الإنسان نفسه تنساق وراء الأنانية والكبر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا﴾^(١).

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْتُلُوْنَ الْكِتٰبَ﴾.

المراد نوع الكتاب، ويمكن توضيحه بوجوه:

١ - أي يعلمون أن كلا منهما على شيء من الحق، فالنصارى يعتقدون بموسى عليه السلام ويصدقون بالتوراة، إذاً فاليهود على شيء من الحق،

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

كذلك اليهود يعلمون بهذا التصديق والاعتقاد، إذا فالنصارى على شيء من الحق.

٢ - وكذلك من آمن بكتاب من كتب الله تعالى، عليه أن يؤمن بسائر الكتب، لأن كل واحد منها يصدق الآخريات، فإن المرسل واحد ولذا قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

٣ - هم أهل العلم، وأهل العلم يجب أن لا يتنازح بعضهم بعضاً، بل إن أرادوا الجدل عليهم أن يكون بالتي هي أحسن، ومقارعة الحجة بالحجة، لا بالتهريج والتسقيط والتسفيه ونحوها.

٤ - في الكتاب ما يأمرهم بخلاف ما يقولون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.....

أي كقول اليهود والنصارى بعضهم ضد بعض، قال المشركون حول المسلمين، أو قالوا حول كل أهل الكتاب، بل الآية عامة تشمل حتى الملحدين الذين قالوا مثل ذلك لأهل كل دين.

والحاصل أن الآية دلّت على إبطال زعم بعض المشركين بأن الإسلام لو كان حقاً لا اعترف به أهل الكتاب، وإن عدم اعترافهم لا قيمة له لأن منشأ اللجاج والعناد، ولذلك ينكر بعضهم على بعض، فاليهود ينكرون على النصارى دينهم وكذلك العكس.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

كما أن في الآية توبيخ كلا الطائفتين ، وأنهم بعنادهم صاروا كالجهال من غير فرق ، وهذا شأن العناد واللجاج ، ويخسر بسببه العالم ، ويتحول إلى جاهل .

الرابع: قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ .

أي يحكم بين اليهود والنصارى والجهال بل وغيرهم ، والله سبحانه قد حكم بينهم في الدنيا بإقامة البيئات والحجج ، ولكن لا يقبلها هؤلاء ولهم مجال لإنكارهم - ولو من باب العناد - ، لكن في الآخرة يكون الفصل بحيث لا تبقى شبهة عند أحد ، فالجميع يعرف هناك الحق من الباطل ، ويرى الكل عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار ، فهناك يعلم اليهود أن عيسى عليه السلام حق ، والانجيل غير المحرف حق ، وتعاليم المسيح حق ، كما أن النصارى يعلمون أن بقوله اليهود حق ، والجميع يشاهد أن الإسلام حق وأن من ابتغى غيره خاسر لا محالة .

الأمر الثاني من أسباب الانحراف محاربة العبادة وأماكنها

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

١١٤ - ﴿وَمَنْ﴾ أي شخص ﴿أَظْلَمُ﴾ أكثر ظلماً ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ كالمسجد الحرام وبيت المقدس، من ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ خراباً للبنيان، أو خرابها معنوياً بمنع المصلين عنها لئلا تعمر بطاعة الله، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ﴾ أي لم يشرع لهم ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ﴾ من عقاب الله لا مستهترين مخربين، ولكنهم لم يمثلوا أوامر الله تعالى فلذا يعاقبهم ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي ذلة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

١١٥ - ﴿و﴾ إن منعوا ذكر الله في المساجد فإن ذلك لا يؤثر على عبادة المؤمنين، لأنه ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي كل الجهات



۳۶۰

الثاني: قوله تعالى: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾.

فسرت المساجد بأنها بيت المقدس أو المسجد الحرام، - وإنما جاء بصيغة الجمع لسعة المسجدين ولصحة السجود في أي موضع منهما -، أو معنى المساجد مكة المكرمة أو كل الأرض - لأن التراب محل السجود -.

وكل ذلك من باب التفسير بالمصداق أو بيان لشأن النزول، ومن المعلوم أن شأن النزول لا يخصص العموم ولا يقيد الإطلاق، وكما يقال «خصوصية المورد لا تخصيص الوارد».

الثالث: قوله تعالى: ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾.

إما بدل عن «مساجد» أي ومن أظلم ممن منع ذكر اسم الله في المساجد.

وإما مفعول ثانٍ لـ «منع» بحذف حرف الجر أي منع المساجد من الذكر، فيكون المراد من المساجد روادها.

وإما مفعول لأجله بتقدير «كراهية»، أي منع المساجد كراهية ذكر اسم الله، والأول أقرب.

ومنع ذكر اسمه تعالى قد يكون بتعطيل المسجد، وقد يكون بذكر أسماء الأنداد والأصنام - بل ولعله يشمل ذكر الظالمين -.

ويؤيد ذلك أن المشركين لم يمنعوا ذكر اسم الله بشكل مطلق، بل منعوا التوحيد وإلا فهم كانوا يذكرونه تعالى مقترناً بأصنامهم.

والوجه في ذلك أن الشرك ليس ذكراً لله تعالى أصلاً بل يضاد ذكره، فتأمل.

الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾.

١ - الأظهر أن معنى الآية: هو أن الله تعالى لم يشرع على الناس تخريب المساجد ومنع ذكره فيها، بل شرّع دخول المسجد بالخضوع والخشوع والخوف منه تعالى، فالمعنى أولئك لم يحق لهم إلا الدخول مع الخوف منه تعالى، نظير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾^(٢).

٢ - وقيل: هو أمر تكويني فالذي يمنع ذكر الله في المساجد لعلمه بقبح عمله خائف من عقابه تعالى، أو بمعنى أن نتيجة عملهم هو الخوف من العقوبة، فكل من هدم المساجد أو عطّلها يصاب في الدنيا بخوف، وهو أثر وضعي لهذا الذنب، فإن الذنوب لها أثار: تكليفي كالجلد في الزنى، ووضعي وهو أثار الذنب كقسوة القلب وقطع الرزق وتعجيل الموت ونحوها مما هي مذكورة في الروايات.

٣ - وقيل: هو إخبار مستقبلي، تحقق حين فتح مكة حيث منع المشركون من دخول المسجد الحرام كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٣) فلم يكونوا يدخلونه إلا خائفين من الطرد أو انكشاف الأمر، وكذلك اليهود والنصارى لما منعوا من دخول بيت المقدس بعد الفتح!!

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

أي الأرض كلها، فإن كل مكان هو مشرق لمكان ومغرب لمكان آخر ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾^(١)، وحيث كانت الأرض كلها لله تعالى فلا يتصور المانعون المخربون بأنهم بمنع المساجد وتهديمها يتمكنون من منع ذكر الله تعالى، فإن الأماكن كلها لله تعالى، وذكره يشترع في كل مكان، فالمشركون منعوا الرسول ﷺ والمسلمين من المسجد الحرام، لكن تحولت الهجرة إلى مفصل تاريخي هام في تاريخ الحضارة الإنسانية، وعلت كلمة الله تعالى ودخل الناس في دين الله أفواجا.

كما أن فيه تسلية للمسلمين بأن التوجه إليه لا ينحصر في بعض الأماكن فلتن منعوا منها فإن الأرض كلها تتحول إلى مسجد لهم.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ﴾.

«تَمَّ» يشار بها للبعيد، سواء كان بعيداً مكاناً، أم بعيداً عن العقول والأوهام - حتى وإن كان أقرب من جبل الوريد -، فعن الصادق عليه السلام (من تعاطى تَمَّ فقد هلك)^(٢) أي من تفكر في ذات الله انحرف، بل اللازم التفكير في آثار عظمته لأن الإنسان يتضاءل أمام مخلوقاته العظيمة، فإذا نظر إليها وعلم بأنها مخلوقاته، فإنه سيعلم بأن الله أعظم منها لأنه خالقها^(٣).

السابع: قوله: ﴿وَجَّهَ اللَّهُ﴾.

يستعمل الوجه بمعنى طريق الوصول إلى الشيء باعتبار أن الوجه

(١) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

(٢) أصول الكافي، باب النهي عن الكلام في الكيفية / الحديث العاشر.

(٣) للتفصيل راجع شرحنا على أصول الكافي.

طريق لمعرفة الأشخاص، ولذا فسر بعض هنا بالقبلة، أي أينما توجهتم فهناك القبلة.

وفي مجمع البيان «والوجه: هو مستقبل كل شيء، ووجه الإنسان: مُحيّاه، ويقال وجه الكلام: تشبيهاً بوجه الإنسان لأنه أول ما يبدو منه ويعرف به، ويقال هذا وجه الرأي: أي الذي يبدو منه ويعرف به، والوجه من كل شيء: أول ما يبدو فيظهر بظهوره ما بعده، وقد استعملت العرب لفظة وجه الشيء وهم يريدون نفسه إلا أنهم ذكروه باللفظ الأشرف والأنبه ودلوا عليه به، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي إلا هو ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ربك»^(١).

وفي الآية دلالة على أن الله تعالى ليس في مكان معين، كما زعمت المجسمة بأنه في جهة خاصة من السماء. كما دلت على إحاطة علمه وقدرته بكل الأماكن.

الثامن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَاسِعٌ﴾ بمعنى:

١ - أن ذاته لا تُحدّ بمكان، فإذا أمر بالتوجه إلى مكان معين كالكعبة، فليس ذلك لأنه محدود بها بل الحكمة اقتضت ذلك.

٢ - وبمعنى: أن علمه وقدرته وسعنا كل الأماكن وكل الأشخاص، فالكافر المانع لا يمكنه الفرار من حكومته تعالى، ولا المؤمن الممنوع يخفى عليه

٣ - وبمعنى: أن رحمته شملت عباده المؤمنين، فشرع لهم التوجه إليه من أي مكان وإلى أية جهة فهو يريد التوسعة على عباده واليسر بهم.

(١) مجمع البيان، ج ١، ص ٤٧١، والآيتان سورة القصص: ٨٨. والرحمن: ٢٧.

٤ - وبمعنى: الغني، أي هو لا يحتاج إلى عبادتكم بل المحتاج أنتم.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ أي يعلم بأحوالكم فلا يحصر الأمر بمكان العبادة بل يمكنكم عبادته في كل مكان، كما أنه يعلم بالمصالح ولذا أمر بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فلا معنى لإشكال اليهود على تحويل القبلة، فإن الذي جعل بيت المقدس قبلة لمصلحة هو الذي حولها لمصلحة أخرى.

التاسع: ذكروا مجموعة من الأحكام الشرعية المرتبطة بهذه الآية الشريفة - وإن كانت دلالتها على بعضها هي بالإخبار كما أن بعضها محل خلاف.

منها: يجوز للمتطوع الصلاة على راحلته في السفر ولو خلاف اتجاه الكعبة.

منها: أن المتحير في القبلة يصلي بأي اتجاه، وإن تبين عدم توجهه إلى القبلة فإنه لا يعيد النافلة، أما الفريضة فإن كان في الوقت أعادها.

ومنها: عدم جواز دخول الكفار إلى المساجد بمعنى منعهم منها ووجوب إخراجهم.

الأمر الثالث

الشرك

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَلْبُونٌ﴾ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

١١٦ - ﴿وَقَالُوا﴾ اليهود والنصارى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ جعل لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ فقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وشاركهم في هذا الزعم المشركون حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَنَهُ﴾ هو منزله عن ذلك ﴿بَلْ﴾ هو غير محتاج إلى ذلك إذ ﴿لَهُ﴾ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿كُلُّ لَّهُ قَلْبُونٌ﴾ أي خاضعون.

١١٧ - والولادة من غير أب أو ظهور بعض المعاجز من هؤلاء ليس دليلاً على كونهم أبناء الله، لأن الله ﴿بَدِيعُ﴾ مبدع وخالق من غير مثال ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكما خلقها من غير مثال كذلك خلق هؤلاء، ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ وأراد ﴿أَمْرًا﴾ شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي بمجرد إرادته يوجد الشيء بلا حاجة إلى مقدمات.



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

«الاتخاذ» من الأخذ وضمّن معنى الجعل، ولعل فيه إشارة إلى أن أصل هذا الزعم كان لإرادتهم تشريف هؤلاء فزعموا التبني، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(١) أي لا يليق به، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٢)، ثم تطوّر هذا الزعم عندهم إلى حدّ زعم الولادة الحقيقية، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣). والآيات التي تتحدث عن نفي الولد عنه تعالى تصدت للرد على كلا الزعمين - زعم التبني وزعم الولادة الحقيقية -.

ومنشأ زعمهم لذلك أمور:

١ - كانوا يتصورون أن الولد كمال لهم، وكذلك كثرة الأولاد، قال تعالى: ﴿وَتَكَاثَرُوا فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٤). فزعموا أنّ ما هو كمال لهم فهو كمال لله تعالى!!

٢ - أرادوا تشريفهم، ولم يجدوا - بزعمهم - تشريفاً أفضل من التبني، بادعاء أنهم أبناء الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُمْ﴾^(٥). ثم تطور الأمر إلى ادعاء النسب الحقيقي.

(١) سورة مريم، الآية: ٩٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤.

(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٥١ - ١٥٢.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٨.

٣ - عدم إدراكهم لبعض الحقائق، ومن طبيعة الناس إذا لم يتمكنوا من فهم حقيقة أو تحليلها بطريقة صحيحة، اختلاق تصورات وخيالات باطلة، قال تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرَ عَلَيْهِ﴾^(١) فلما شاهدوا ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وكذلك شاهدوا المعجزات ولم يتمكنوا من إدراك إمكان ذلك بإذن الله تعالى، لذلك ادعوا أنهم آلهة أو أبناء الله.

٤ - من طبيعة الناس الغلو في الصالحين خاصة الماضين منهم، ولعله لذلك أكثر القرآن الكريم من ذكر قصص ترك الأولى الصادر عن الأنبياء، وكذلك التأكيد على أن ما صدر منهم من معجزات كانت بإذن الله، وعلى نفي العلم والقدرة الذاتية عنهم بل هما إعطاء من الله تعالى لهم وأنه قادر على سلبها منهم لو أراد.

الثاني: قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾.

«سبحان» مصدر، وهنا هو مفعول مطلق أي أسبّحه تسبيحاً حذف الفعل وأضيف المصدر إلى ضمير المفعول.

وهو بمعنى التنزيه عما لا يليق، قيل: وُضِمْنَ معنى التعظيم أيضاً، فيكون تنزيهاً مقترناً بالتعظيم.

وهو رد لتصورهم أن اتخاذ الولد كمال له تعالى، بل هو نقص ولذا يُنَزَّه عنه الله تعالى، لأنه لا يشبه مخلوقاته وليس كمثله شيء.

الثالث: قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذا دليل على عدم اتخاذ الولد، لأن الولد بالنسب يستحيل في حقه تعالى، لأنه انفصال جزء من الأب وتحوله إلى ابن، وهو تعالى لا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

جزء له، ولا معنى لانفصال شيء منه، ولا شيء يشابهه ويشاكله، وقد دلت الأدلة العقلية أنه لا سنخية بينه وبين موجود آخر، مع أنه من الواضح وجود السنخية بين الوالد والولد.

وأما الولد بالتبني، فإنه إما لحاجة الوالد، أو لحاجة الولد:

والله تعالى هو الغني المطلق، وفي آية أخرى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

والإنسان يحتاج إلى الولد عاطفياً أو لرغبته في البقاء والأبناء امتداد للآباء، أو لرغبته في بقاء اسمه بعد موته، أو ليستعين بأبنائه، ولغير ذلك، والله تعالى الغني المطلق، والمخلوقات كلها ملكه وتحت تصرفه، فلا يحتاج تعالى إلى الولد من أية جهة من الجهات.

كما أن عيسى عليه السلام وعزيراً والملائكة، يكفيهم فخراً وعزاً أنهم عبيد الله تعالى، فلا يحتاجون إلى أن يتبناهم. نعم يحتاجون إلى أن يكونوا أولياء لله تعالى لذا فإن الله تعالى يتخذهم أولياء لحاجتهم لا لحاجته، كما أنه خلقهم لحاجتهم لا لاحتياجه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(٣) والمعنى إن الله يحبهم كما يحبه الخليل خليله.

الرابع: قوله تعالى: ﴿كُلُّ لَّهُ قٰنُونٌ﴾.

القنوت هو الخضوع، ومن مصاديق الخضوع: الدعاء والإطاعة

(١) سورة يونس، الآية: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

والاعتراف بالعبودية، وحتى المنكر له تعالى خاضع له تكويناً فهو في ملكه وسلطانه وتحت إرادته .

وفي هذا تأكيد على أنه تعالى غني وما سواه محتاج إليه، فهم لا يجانسونه، فلا معنى لاتخاذ الولد - حيث إن الولد يجانس أباه في الذات وفي الصفات - .

الخامس: قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

«بديع» صفة مشبهة تدل على الاستمرار، ومعناها المبدع، والإبداع: هو صنع الشيء من غير سبق مثال، فقد خلق الله تعالى الأشياء بلا مادة سابقة ولا بألة^(١) .

وهذا أيضاً دليل على عدم اتخاذ الولد، فهو تعالى أبداع الأشياء كلها، فكل الأشياء - بما فيها من زعموهم أولاداً - مخلوقات له، ومن الواضح عدم مجانسة المخلوق مع الخالق، فلا يعقل انتساب ولد إليه^(٢) .

السابع: قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ .

«القضاء» له معنيان:

المعنى الأول: الانتهاء والفراغ كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾^(٣) ، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾^(٤) .

(١) قد نكرنا في شرح أصول الكافي الفرق - الاعتباري - بين الخلق والإنشاء والاختراع والإبداع. وأن صنع المخلوقات يكون بقدرة أعطاها الله إياهم، وبمواد مخلوقة وإنما فيه تغيير للصورة، فراجع.

(٢) للتفصيل راجع شرحنا على الكافي.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

المعنى الثاني: الحكم، سواء كان تكوينياً كقوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(١). أم كان تشريعياً كقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢).

وما ذكره من المعاني المختلفة - أنهاها في مجمع البيان إلى عشرة معانٍ^(٣) - فإنما هي مصاديق أو لوازم هذين المعنيين، بل لعل المعنى الأول يرجع إلى المعنى الثاني باعتبار أن الحكم يلازمه الفراغ والانتفاء.

والحكم التكويني هو الإرادة - أي الفعل والخلق - ولذا ورد في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

ثم إن هنا أمرين:

الأمر الأول: الإرادة من الله هي الفعل، وليست الإرادة من صفات الذات لأنها لو كانت كذلك لزم قدم العالم، ووجود كل الأشياء معاً وفي ظرف واحد، لاستحالة تخلف إرادته تعالى عن مراده، بل الإرادة من صفات الفعل بمعنى خلقه للأشياء، وقد ورد ذلك في متواتر الروايات، ومنشأ إرادته هو علمه وقدرته واختياره، لأن ذاته تعالى هي منشأ صفات الفعل وقد ذكرنا تفصيل ذلك في شرحنا على أصول الكافي.

الأمر الثاني: في القضاء والقدر.

أما القدر: فإن الله خلق كل شيء بمقدار، أي لكل شيء قابلية

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) مجمع البيان ج ١، ص ٤٨٨ - ٤٩٠.

(٤) سورة يس، الآية: ٨٢.

وجودية خاصة، إذا انتهت تلك القابلية انتهى ذلك الشيء، قال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١) أي بمقدار وميزان.

وأما القضاء : فإنه إضافة إلى مقدار قابلية كل شيء، فإن هنالك مجموعة من الأحكام التكوينية، وهي تجري بلا تغيير وتحويل فقضاء الله بمعنى حكمه التكويني .

مثلاً من يموت غرقاً فإنه يموت بقضاء الله وقدره، بمعنى أن قدر وقابلية جسم الإنسان لعدم التنفس محدودة بدقائق معدودة، وأن الله تعالى قد حكم تكويناً بموت من لم يتنفس تلك المدة المعلومه، فكان موته غرقاً بقدر وقضاء^(٢).

ولذا روي أن أمير المؤمنين تنحى من جدار يريد أن ينقض، ف قيل له : أتفرّ من قضاء الله؟ قال ﷺ :

«أفرّ من قضاء الله إلى قدره»^(٣). أي أفر من الحكم التكويني وهو الموت أو الجرح لمن سقط عليه الجدار، إلى القدر الذي منحه سبحانه وتعالى لجسمي حيث له قابلية الاستمرار في الحياة .

الثامن: قوله تعالى: ﴿أَمَرَ﴾.

الأمر هنا بمعنى الشيء كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) للتفصيل راجع (خواطري عن القرآن) ج ١، ص ٣٤٢.

(٣) شرح أصول الكافي، للمازندراني: ج ٨، ص ٨، ورواه الصدوق في الاعتقادات.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤٠.

و«الشيء» يساوي «الموجود» فكل موجود هو شيء، ولذا روي «إن الله شيء لا كالأشياء»^(١).

وصح إطلاق «الأمر» و«الشيء» على المعدوم، باعتبار الإيجاد فيما بعد أو باعتبار العلم به قبل خلقه.

التاسع: قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

في الكشف (أي أحدث فيحدث، وهذا مجاز في الكلام وتمثيل ولا قول ثم... وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه، فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيممثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء)^(٢).

فمعنى ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ أي يكونه ويخلقه، وإنما عبر عن التكوين بهذا المثل لأجل أنه أسهل للفهم.

أقول: ويمكن حمله على المعنى الحقيقي، حيث إن الله تعالى خلق الكون بالتدريج وجعل أسباباً، ولعل هذه الكلمة من الأسباب. فإن المخلوق في كل مرحلة يحتاج إلى إفاضة الوجود عليه، فكما أن الله تعالى علّة الإحداث فإنه علّة البقاء، فالوجود في كل مرحلة يحتاج إلى قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾، فالله أراد أن تكون نطفة فكانت، ثم أراد أن تكون علقه فكانت ثم أراد أن تكون مضغة فكانت، وهكذا، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(٣) أي يطلب من الله تعالى كل شيء

(١) أصول الكافي، باب إطلاق القول بأنه شيء، ج ١، ص ١١٧.

(٢) الكشف، ج ١، ص ١٨١.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

- ذوي العقول وغيرهم - لاحتياج الكل إليه، كل يوم الله تعالى في شأن من أحياء وإماتة وإيجاد وإعدام وهكذا.

ثم إن قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ دل على بطلان زعمهم أن الله ولدًا، وذلك من وجوه:

١ - لما رأوا ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وكذلك خلق الملائكة من غير تناسل، فقد زعموا أن الله أبوه وأبوهم!!

فيقول تعالى: إن خلقهم كذلك فكانوا كما أراد، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَلَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١).

٢ - لما رأوا المعجزات منهم، فشهدوا إحياء الموتى وإبراء الأكف والأبرص أو موت عزيز مائة عام ثم حياته، فتصوروا أن ذلك لا يمكن إلا إذا كانوا أبناء الله.

فيردهم الله تعالى بأنه قدير على أن يأذن لبعض عباده الصالحين فعل بعض المعجزات.

٣ - إن من شأنه الخلق بكلمة واحدة أو بالإرادة، فهو مغاير بالذات عن سائر الموجودات، فلا يمكن أن يكونوا أبناء له.

وبعبارة أخرى - كما قيل -: من كان بهذه الصفة من القدرة، كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها.

(١) سورة مريم، الآيتان: ٣٤ - ٣٥.

الأمر الرابع رفضهم للرسالة

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيرِ﴾.

١١٨ - ﴿و﴾ من مشتركات اليهود والنصارى والمشركين هو رفضهم للرسالة، وتحججهم بالحجج الواهية، ومنها: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة في أفعال الله ﴿لَوْلَا﴾ أي هلاً ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ مباشرة بلا إرسال رسول، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ حسب رغبتنا، عناداً، مع أنه قد أتتهم آيات فكذبوها، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كقولهم هذا ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لأنبيائهم كما قالوا لموسى عليه السلام: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تأكيد وبيان لـ «كذلك» ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فتشابه أقوالهم لتشابه قلوبهم في العناد والاستكبار، ولأن الآيات ترسل لأجل إقامة الحجة ففي الآيات السابقة الكفاية ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أوضحنا ﴿الْآيَاتِ﴾ لكنها لا تنفع المعاندين، بل النفع ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، وليسوا معاندين حتى يكون طلبهم تعنتياً.

١١٩ - وقد قمت يا رسول الله بمهمتك إذ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ للمؤمنين برحمة الله، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للمخالفين عقاب الله تعالى، فقد أديت ما عليك ﴿و﴾ لا مسؤولية لك عن كفرهم وعنادهم فـ ﴿وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ فهؤلاء المعاندون اختاروا ما يوصلهم إلى النار وحسابهم على الله.



بحوث:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أما المشركون فهم جهلة، وأما علماء أهل الكتاب فكان عدم علمهم باعتبار عدم عملهم بما في الكتاب، والعالم غير العامل هو والجاهل سواء.

أو بمعنى عدم علمهم بموازين الوحي والرسالة وجهلهم بالحكمة التي اقتضت اختيار بعض الناس لحمل الرسالة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْغِيَرَةُ﴾^(٢).

وقيل: إن المراد من ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ المشركون، بنوع من الالتفات من أهل الكتاب إلى المشركين، ثم عَمَّ الله تعالى الكلام إلى اليهود والنصارى بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. كما أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٨.

لَيْسَتْ النَّصَرَى ﴿...﴾ كَانَ الْخَطَابُ مُتَوَجِّهًا إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ثُمَّ عَمَّمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

أي لماذا لا يكلمنا الله تعالى مباشرة من غير توسطك رسولاً إلينا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾^(١). أو بمعنى أن يكلمنا الله فيشهد مباشرة بأنه رسول من قبله.

وقولهم ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ إما بمعنى أن تكون لنا معاجز كما للأنبياء معاجز. أو بمعنى تأتينا معجزة حسب اقتراحنا.

وإنما لم يستجب الله تعالى لطلبهم لأجل أمور، منها:

١ - إنه تعالى لا يريد سوى إقامة الحجة وإتمامها عليهم، وقد تمت الحجة بالآيات المختلفة التي تكفي لكل باحث عن الحق، وأما المعاند فإنه يمكنه إنكار كل آية يراها بل ينسبها إلى السحر ونحوه، فلا استجابة لطلبهم لغو لا يصدر عن الحكيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الانعام، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة يونس، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(٣) سورة الانعام، الآية: ٢٥.

٢ - إن بعض اقتراحاتهم كانت طلباً للمحال مثل طلب رؤية الله جهرة، ومثل ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا﴾^(١).

٣ - وبعضها لا تناسب شخصية الرسول ﷺ مثل ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْفٍ﴾^(٢).

٤ - وبعضها كانت خلاف التدبير في الكون، وخلاف المصلحة قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَنزَلْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٣).

والحاصل إن المعجزة ليست لعبة للمشركين حتى يطلبوا ما شاؤوا متى شاؤوا، بل لإقامة الحجة عليهم، وقد أقيمت بالبينات السابقة، فلو لم يكونوا معاندين لآمنوا بها، وفيها الكفاية.

الثالث: قوله تعالى: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الطبيعة البشرية واحدة، فلذا كانت الأساليب متقاربة، فالعناد ينشأ من الجهل وفساد الباطن، لذا كانت أقوال المعاندين متشابهة، وقلوبهم مشتركة في العمى والضلال، وكأنَّ قوله: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ كالعلة لتشابه أقوالهم.

كما أن فيه إشارة إلى أن مجرد تشابه الكلام قد لا يكون دليلاً على العناد، بل قد يكون طلب الجاهل المستفهم كطلب المعاند، فيكون الفرق في القلوب، وأما المعاندون فإن قلوبهم متشابهة في العمى والفساد.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يُؤَفَّتُونَ﴾.

«اليقين» هو القطع المطابق للواقع، وهو أخص من العلم، فاليقين لقوة موجباته لا يزول بالتشكيك أبداً بخلاف العلم حيث بعض مصاديقه يمكن إزالتها بالتشكيك - وقد مرّ بعض الكلام في ذلك -.

والآيات التي أنزلها الله تعالى هي عامة للجميع، فقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يُؤَفَّتُونَ﴾ لأجل جهات، منها:

١ - لأنهم المستفيدون، أما غيرهم فلا يستفيد من تلك الآيات.

٢ - المراد من ﴿يُؤَفَّتُونَ﴾ هم الذين يطلبون اليقين، فالمعنى بيّنا الآيات للباحثين عن الحق، أما المعاندون فلا علاج لهم حتى يروا العذاب الأليم.

٣ - أو يكون المراد الجميع - حتى المعاند - لأن تلك الآيات توجب يقين الكل كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾^(١).
الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾.

فيه تسلية لرسول الله ﷺ، بأنك رسولنا - سواء قبلوا أم رفضوا -، ولا يتضرر الحق بإنكار المعاندين، بل هم المتضررون.

وأيضاً فيه دلالة على أن الرسول ﷺ قد أدى ما عليه، فقد كان مكلفاً بإيصال الرسالة بالبشارة والإنذار، وقد فعل، وليس من تكليفه قبولهم أو رفضهم قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾^(٣).

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.

السادس: قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

تأكيد، لأن إرساله تعالى لا يكون إلا بالحق، والمعنى أرسلناك متلبساً بالحق، أو «الباء» بمعنى «على» أي أرسلناك على الحق، أو بمعنى «مع» أي مع الحق، كالقرآن والمعاجز الأخرى، والشرائع، والآداب ونحوها.

وكل ما يتعلق بالرسالة فهو حق، فالإرسال - أصل البعثة - حق، والرسول حق، وما أرسل به - من قرآن وغيره - حق، والمُرسل - وهو الله - حق.

ولا يضر الحق إنكار المنكرين وعناد المعاندين وخلاف المخالفين.

السابع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

بيان أن الرسول لم يخفق في مهمته، بل أداها بأحسن وجه، ورفضهم أو قبولهم لم تكن ضمن مهمته.

ثم فيه تسلية للنبي ﷺ بأن لا ينزعج من عنادهم، فإن مصيرهم إلى الجحيم، فيعابون على إنكارهم، وصاحب الحق إذا علم بعقوبة المخالف يستقر قلبه مطمئناً، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾^(١) كما أن فيه دلالة على عدم إجبار أحد على قبول الحق، فكل من رفض الحق فإنما رفضه باختياره، ودخوله في الجحيم كان بسبب نفسه.

و﴿الْجَحِيمِ﴾ هي النار إذا شبَّ وقودها.

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

سبب عدم رضاهم :

- ١ - إما لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فلا يمكنهم اتباع غيرهم .
- ٢ - أو لأنهم كانوا أقوياء وأصحاب ثروة ، والقوي يرفض الضعيف - عادة - .

٣ - أو لأن أصحاب الديانات والمذاهب يحاولون استمالة الآخرين نحوهم لكن لا يقبلونهم إلا إذا تبعوهم وصاروا مثلهم ، وهذا مشاهد عياناً ، وما سوى ذلك مجرد ادعاءات زائفة ، وخاصة نظرتهم إلى دين مثل الإسلام الذي يتحول إليه كثير من أتباع الديانات الأخرى .

٤ - أو لشعورهم بأن الإسلام خطر على مصالحهم فلذا لا يرتاحون إليه ، بل كلما تمكنوا أوقدوا ناراً للحرب ضده .

٥ - أو لحسدهم ، ولغير ذلك .

الثاني: قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَبْغِزَ مِلَّتُهُمْ﴾ .

«الملة» الطريقة والدين ، وأصله بمعنى الثبوت ، ومنه الإملاء أي إثبات الحق ونحوه بالكتابة ، وإنما سمي الدين بالملة لأن الطريقة ثابت نسبتها إلى صاحبها ، كما يقال ملة رسول الله أي الطريقة الثابتة عنه .

وفي الآية دلالة على استحالة إرضائهم ، إلا باتباع طريقتهم فمن يحاولون الآن إرضاء الشرق والغرب فإنما محاولتهم كسراب ببيعة .

كما يشاهد أن البعض يريد الجمع بين التدين وبين السير في ركب الحضارة الغربية ، وهو محاولة الجمع بين النقيضين ، ولا يمكن ذلك إلا بالتنازل عن المبادئ الإسلامية واتباع ملتهم ، وليس للأمر حد يقف

عليه، بل يبدأ من الأمور الصغيرة ولا ينتهي إلا بالتخلي عن الإسلام كاملاً.

الثالث: قوله: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فُلًا فَهُوَ الْهُدَىٰ﴾.

بيّن الآية الكريمة جهات متعددة منها:

١ - تعليل عدم رضاهم عنك، وذلك لأن ما عندك هو الهدى وما عندهم هو الأهواء.

٢ - ودلالة على حصر الهدى بما نزل من عند الله تعالى، فإن الألف واللام في «الهدى» تدل على الاستغراق، أي هدى الله هو كل الهدى لا هدى غيره.

وعليه فإن المعارف والأحكام وكل ما يرتبط بالدين يلزم أن تكون مستندة إلى الله تعالى، إما ببيانه أو بتشريعه أو بإمضائه، وما سواها باطل من الأهواء، كما روي أن الصادق عليه السلام قال: «كل ما لم يخرج من هذا البيت باطل»^(١)، أي من أمور الدين.

وأما الاجتهاد: فهو في فهم النص وتطبيق الكليات على الجزئيات، وأما الاجتهاد في مقابل النص، كالقياس والاستحسان ونحوهما، فهو تشريع يضاد التشريع الإلهي.

أما القياس فلأن علل أكثر الأحكام مجهولة لنا، فتعدية حكم من موضوع إلى موضوع آخر قياساً لا وجه له، بل هو مقابل النص الدال على البراءة أو الاحتياط أو نحوهما.

وأما الاستحسان فلأن ذوق الناس ليس ملاكاً للحكم، بل ملاكه

(١) بحار الأنوار: ج ٢، ص ٩٤.

الإرادة الإلهية - التي تتعارض غالباً مع الأذواق والأهواء - فلا معنى للاستحسان.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾

الجملة الشرطية لا يتوقف صدقها على وقوع طرفيها - الشرط والجزاء، بل هي للدلالة على ارتباط الجزاء بالشرط على نحو القضية الحقيقية. فقولته تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١)، صدق، حتى مع علمنا باستحالة الشرط - تعدد الآلهة -، واستحالة الجزاء - فساد السماوات والأرض -، وإنما كانت الآية صدقاً لأن الفساد نتيجة تعدد الآلهة على نحو القضية الحقيقية.

ونحن نعلم بأن رسول الله ﷺ لم يتبع أهواءهم ونعلم بأن الله تعالى وليه ونصيره، ومع ذلك صدقت الآية ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾

ولعل الغرض من هذا النوع من الخطاب في القرآن هو أن لا يستثني أحد نفسه من أحكام الشرع، فمهما بلغ الناس فإنهم لا يصلون إلى درجة النبي الأعظم محمد ﷺ في المنزلة والقرب إلى الله تعالى، وله في القرآن نظائر كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾^(٣) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ الآية^(٣).

وروي أن القرآن نزل على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة)^(٤).

أي الغرض منه الأمة، لكن بنحو توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ.

كما في هذا النوع من الخطاب، دلالة على أن النبي ﷺ عبد لله

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٤) البحار: ج ١٧، ص ٤٧.

تعالى ويعمل على مقتضى إرادته سبحانه، وفي ذلك سدّ لأبواب الغلو والتأليه.

و«الهوى» هو ميل النفس، وعادة تستعمل هذه المادة في الميل إلى الأمور الباطلة، وأصلها بمعنى السقوط كقوله: ﴿وَالنَّجْرُ إِذَا هَوَىٰ﴾^(١)، ومن اتبع الشهوات ومال إلى الباطل فقد سقط إلى حضيض الرذيلة.

وقليلاً ما تستعمل في الميل إلى غير الباطل كقوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

ولعل السبب أن ميل النفس غالباً إلى الباطل، وقليلاً ما يتطابق مع الحق، لذا كان على الإنسان الحذر من هواه، وجعل الحق مقياساً - طابق ميوله أم خالف -.

(١) سورة النجم، الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .

١٢١ - ولا يحزنك عدم رضاهم عنك وعدم اتباعهم إياك فإن ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ - نوع الكتاب - كالطورا والإنجيل حال كونهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يتبعونه اتباعاً حقاً، بالقراءة والفهم والعمل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فقط لا غيرهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ كاملاً، فيصدقونك ويتابعونك وهم يكفونك، ﴿و﴾ أما غيرهم، وهم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب بعدم تصديقه وبعدم العمل به ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

١٢٢ - وحيث ذكرت سلبيات كثيرة في بني إسرائيل، يتم تذكيرهم أن تلك لأعمالهم السيئة، وإلا فإن الله يريد خيرهم وصلاحهم وحباهم بنعم كثيرة ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين^(١) ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الذين كانوا في زمانكم، فإن المؤمن أفضل من غيره.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٠.

وأظهر المصاديق: آل محمد «عليه وعليهم الصلاة والسلام» قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١) وبه ورد الخبر الصحيح^(٢).

الثاني: قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾.

«التلاوة» الاتباع قال تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ يَمْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾^(٣)، والاتباع يبدأ من القول وإلى العمل وغيرهما، فقوله: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي الاتباع الصحيح والكامل وهو يكون بقراءته والتدبر فيه والعمل به وعدم تحريفه.

فعن الصادق عليه السلام قال: «يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو - والله - حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره، وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا لَهُ الْكِتَابَ أَنْ يَلْزَمَهُ مُبْرَكُ لَيْلٍ يُدَبِّرُوا أَمْرَهُ﴾»^(٤).

والحاصل أن يتعاملوا مع القرآن كما أراد الله تعالى، وأما سوى ذلك فلا يريد الله تعالى بل روي: (رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعبه)^(٥).

فاليهود كانوا يتلون التوراة ولكن مع التحريف وكتمان الحقائق كإخفاء أوصاف الرسول ﷺ.

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٢) البرهان ج ١، ص ٥٣١، عن الكافي.

(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

(٤) البرهان ج ١، ص ٥٣١ عن إرشاد القلوب، والآية: سورة ص، الآية: ٢٩.

(٥) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ١٨٤.

والخوارج قرأوا القرآن ولكن بلا إدراك وفهم فلم يتجاوز تراقيهم،
كما قال رسول الله ﷺ: ^(١).

﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال، أي الذين آتيناهم الكتاب - حال كونهم يتلونه حق
تلاوته - أولئك يؤمنون.

ويمكن أن يكون خبراً ولكن فيه معنى الشرط، فالمعنى: الذين
آتيناهم الكتاب إن تلوه حق تلاوته فأولئك يؤمنون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

تعريض بأهل الكتاب، بأنهم لا يؤمنون بالكتاب، ولا يتلونه حق
تلاوته، بل يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وما إيمانهم بذلك البعض إلا
لتطابقه مع مصالحهم، فهم في الحقيقة اتبعوا مصالحهم ولم يتبعوا
الكتاب - لا المقدار الذي آمنوا به ولا الذي كفروا به -.

وضمير «به» يرجع إلى الكتاب، أي من يتلو الكتاب حق تلاوته يؤمن
بالكتاب كله، ومن ضمن ما في الكتاب: الإيمان برسول الله محمد ﷺ
وبكتابه القرآن، وبالإسلام قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ ^(٢).

الرابع: قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾....

بهذا المقطع ينتهي بحث نقاط القوة ونقاط الضعف في بني إسرائيل.
وتكررت هذه المقاطع في هذا البحث ثلاث مرات، مرة في بداية

(١) البحار: ج ٣٣، ص ٣٣٤: (قال رسول الله ﷺ: قوم يخرجون من المشرق يقرأون القرآن
لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...).

(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٥٧.

البحث في الآية الواحدة والأربعين، وأخرى في الآية السابعة والأربعين، وثالثة هنا الآية المائة والثانية والعشرين.

أما الأولى (الآية ٤٠) ففي بداية الحديث عن بني إسرائيل وكان بالشروع في دعوتهم إلى الإسلام.

وأما الثانية (الآية ٤٧) ففي بداية الحديث عن تاريخهم ونقاط قوتهم وضعفهم.

وأما الثالثة (١٢٢) فهي في ختام الحديث عن تاريخهم.

وفي كلها تذكير لهم بنعم الله عليهم، ولعل الغرض هو أن الإسلام لا يعاديهم كأشخاص بل يريد لهم الخير والصلاح ولا ينكر إيجابياتهم، وإنما معاداتهم لأفعالهم السيئة، فإن تركوها فلا مشكلة معهم، بل زادوا فضلاً إلى ما فضلهم به الله تعالى.

لا بأس بتكرار ما ذكرناه سابقاً وهو: من أدلة حقانية الإسلام، فإنه يعترف بالمقدسات الصحيحة لليهود والنصارى وعدم إنكارها، مع أن طلاب الملك والرئاسة إذا حاربهم جمع من الناس حاولوا التشويه عليهم والتعمية حتى على نقاط قوتهم وعلى تاريخهم المجيد، اليهود رغم سوء أعمالهم ومؤامراتهم على الإسلام ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ ونقضهم للعهد وخوضهم عدة حروب ضد المسلمين وإثارتهم للشبهات، فإن القرآن يعترف بأنبيائهم ومقدساتهم ونعم الله على بني إسرائيل، وذلك مما يستدل به على صدق الرسول ﷺ وأن القرآن كتاب أنزله الله تعالى.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا﴾....

في الجرائم الدنيوية يمكن للإنسان التخلص منها بطرق، منها:

١ - خطأ القضاء أو الرشوة، فيعاقب البريء بذنوب المذنب، كما قد تنفع الكفالة أحياناً.

٢ - الغرامة المالية أو عمل يكفر عن الجريمة.

٣ - الوساطة من ذوي النفوذ.

٤ - قوة تدافع عن المجرم كالسلطة العليا أو العسكر ونحوه.

وبالنسبة إلى الكفار لا تنفع كل هذه الأمور في الآخرة، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا فدية أو عمل يكفر عن الذنب، ولا شفاعة للكافر لأنها خاصة بالمؤمنين الذين ارتضاهم الله تعالى قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١)، ولا أحد ينصر من أمر الله، قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾^(٢) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ^(٣) لأن الملك منحصر بالله تعالى ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤) وقد مرّ بعض الكلام في الآيتين (٤٧ - ٤٨).

ثم إن الشفاعة تأخرت عن العدل في الآية ٤٨، وهنا العكس، فهناك قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وهنا قال سبحانه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُكَ شَفَعَةٌ﴾.

قال الفقيه السبزواري. (والوجه في ذلك أن مورد الأولى في مقام تحلية النفس بالفضائل النفسانية أولاً ثم أمر الغير بها، ومورد الثانية إنكارهم لنبوة النبي ﷺ إلا باتباعه لهم)^(٤) فتأمل.

ثم هنالك عدم قبول الشفاعة وهنا عدم نفعها.

(١) سورة الانبياء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٢٥ - ٢٦.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٤) مواهب الرحمن، ج ١، ص ٥٨١.

وهناك عدم أخذ العدل وهنا عدم قبوله وهذا مما يدل على عدم التكرار وإن تشابه الظاهر، وقد مرّ البحث حول عدم وجود تكرار في القرآن.

وبهذه الآية ينتهي هذا الفصل، وبه ينتهي قسم من موضوع سورة البقرة، حيث ذكرنا أن السورة ابتدأت بتصنيف الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق ثم ذكرت الخليفة والهبوط إلى الأرض، ثم ذكرت نموذجاً جمع فيه الأصناف الثلاثة وهم بنو إسرائيل، مما يرتبط بالجانب الاعتقادي، ثم - في الآيات اللاحقة - تنتقل السورة إلى بحث الجوانب العملية في حياة الإنسان - فإن الحضارة تبنى على أمرين: الفكر والعمل - وفي الجوانب العملية ذكر تفاصيل أهم الأحكام الشرعية.

أسأل الله تعالى أن يوفقني للتفكير في تلك الآيات وأن يتقبل هذا الجهد المتواضع إنه سميع مجيب.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واغفر لنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين.

سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

وكان الفراغ منه عصر يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٠ في بلدة قم المقدسة.

من المصادر

- تبيين القرآن، للإمام الشيرازي، ط ٤، عام ١٤٢٩هـ، دار العلوم.
- تقريب القرآن، للإمام الشيرازي، ط ١، عام ١٤٢٤هـ، دار العلوم.
- مواهب الرحمن، السيد عبد الأعلى السبزواري، ط ٢، عام ١٤٢٩هـ، انتشارات دار التفسير.
- خواطري عن القرآن، السيد حسن الشيرازي، ط ١، ١٤١٤هـ، دار العلوم.
- البرهان، السيد هاشم البحراني، ط ١، ١٤١٩هـ، مؤسسة البعثة.
- الجواهر الثمين، السيد عبد الله شبر، ط ١، ١٤٠٧هـ، مكتبة الألفين.
- مجمع البيان، الشيخ الفضل الطبرسي، ط ١، ١٤٢٦هـ، دار الأسوة.
- الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي، ط ٢، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم.
- الكشاف، الزمخشري، ط ٣، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي.

جوامع الجامع، الشيخ الفضل الطبرسي، ط ٣، ١٤٢٨هـ، مؤسسة النشر الإسلامي.

مرآة العقول، الشيخ محمد باقر المجلسي، ط ٤، ١٣٧٩هـ، دار الكتب الإسلامية.

موسوعة الفقه، السيد محمد الشيرازي، ط ٦، ١٤٠٧هـ، دار العلوم.

التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ط ٢، ١٤٢٦هـ، مؤسسة قائد الغر المحجلين.

تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ط ١، ١٤٢٨هـ، انتشارات ذوي القربى.

علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ط ١، ١٣٨٥هـ، المكتبة الحيدرية في النجف.

الكافي، المحدث محمد بن يعقوب الكليني، ط ٥، عام ١٤٢٥هـ، دار الأسوة.

من فقه الزهراء، السيد محمد الشيرازي، ط ١، ١٤٢٩هـ، دار العلوم.

بحار الأنوار، المحدث الشيخ محمد باقر المجلسي، ط ٣، ١٤٠٣هـ، دار إحياء التراث العربي.

وسائل الشيعة، المحدث الحسن بن الحر العاملي، ط ١، ١٤١٣هـ، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

الوصائل في الرسائل، السيد محمد الشيرازي، ط ٢، ١٤٢١هـ،
مؤسسة عاشوراء.

الرسائل، الشيخ مرتضى الأنصاري، ط ٩، ١٤٢٥هـ، مجمع الفكر
الإسلامي.

مغني اللبيب، ابن هشام.

نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي.

المكاسب، الشيخ مرتضى الأنصاري، ط ٩، ١٤٢٥هـ، مجمع
الفكر الإسلامي.

الوافي، الفيض الكاشاني.

الاحتجاج، الطبرسي.

الأمالي، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي.

التيان، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي.

التهذيب، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي.

من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق.

مجموعة ورام، الشيخ ورام بن فارس.

الفهرس

المقدمة ٧

سورة الحمد

الآيات من ١ - ٧ ١١

سورة البقرة

الآيات من ١ - ٥ ١٩

القسم الأول من الناس ١٩

القسم الثاني من الناس ٢٤

الآيتان ٦ - ٧ ٢٤

القسم الثالث من الناس ٢٧

الآيات ٨ - ١٦ ٢٧

الآيات ١٧ - ٢٠ ٣٦

(فصل) أركان الإيمان ٤٣

الآيتان ٢١ - ٢٢ ٢٧

الركن الأول: التوحيد ٤٥

الركن الثاني: النبوة ٥٠

الآية ٢٣ ٢٧

الركن الثالث: المعاد ٥٦

الآيتان ٢٤ - ٢٥ ٢٧

٦٠ التمييز بين المؤمن وغيره
٦٠ الآيتان ٢٦ - ٢٧
٦٧ الاحتجاج على الكفار
٦٧ الآيتان ٢٨ - ٢٩
٧٣ فصل الاحتجاج بخلقة آدم
٧٥ فصل احتجاج آخر على الكفار (خلقه آدم)
٧٥ الآيات ٣٠ - ٣٣
٨٤ الآيات ٣٤ - ٣٩
٩٧ (فصل) بنو إسرائيل نموذج آخر: للمؤمنين والكفار
٧٥ الآيات ٤٠ - ٤٦
١٠٩ فصل التعم على بني إسرائيل
١١١ الأمر الأول: نعمة قيادة الأمم
١١١ الآيتان ٤٧ - ٤٨
 الأمر الثاني ومن نعم الله تعالى على بني إسرائيل نعمة النجاة
١١٧ والحرية
١١١ الآيتان ٤٩ - ٥٠
 الأمر الثالث والرابع من نعم الله على بني إسرائيل نعمة الشريعة
١٢١ والتوبة
١٢١ الآيات ٥١ - ٥٤
 الأمر الخامس ومن نعم الله على بني إسرائيل نعمة إحياء الأموات
١٢٥ منهم
١٢٥ الآيتان ٥٥ - ٥٦
 الأمر السادس ومن نعم الله على بني إسرائيل النعم المادية (من
١٢٨ الأكل والشرب والسكن و...)
١٢٨ أ - المأكل
١٢٨ الآية ٥٧
١٣١ ب - المسكن
١٣١ الآيتان ٥٨ - ٥٩

جـ - المشرب	١٣٥
الآية ٦٠	١٣٥
(فصل) أسباب انحراف بني إسرائيل	١٣٩
الآية ٦١	٧٥
المطلب الأول: الكفران بالنعم	١٣٩
الآية ٦١	١٣٩
الآية ٦٢	١٤٥
المطلب الثاني ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (مخالفة الميثاق) ..	١٤٩
الآيتان ٦٣ - ٦٤	٧٥
المطلب الثالث من أسباب انحراف بني إسرائيل (التحايل على	
الأحكام)	١٥٤
الآيتان ٦٥ - ٦٦	١٥٤
المطلب الرابع ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (اللجاج والتمرد	
على الأحكام)	١٥٨
الآيات ٦٧ - ٧١	١٥٨
المطلب الخامس ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (تحريف كلام	
الله تعالى أو الجهل به)	١٧٦
الآيات ٧٥ - ٧٧	١٧٦
الآيتان ٧٨ - ٧٩	١٨٥
المطلب السادس ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (توهم عدم	
العقاب)	١٩٨
الآيات ٨٠ - ٨٢	١٩٨
المطلب السابع (من أسباب انحراف بني إسرائيل) (مخالفة أحكام	
الله)	٢٠٧
الآية ٨٣	٢٠٧
الآيات ٨٤ - ٨٦	٢١٦
المطلب الثامن ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (تكذيب الرُّسل) ..	٢٢٩
الآيتان ٨٧ - ٨٨	٧٥

٢٣٥ القسم الأول الملعونون في القرآن:
٢٣٧ القسم الثاني الأعمال الموجبة لللعن
٢٣٩ القسم الثالث اللاعنون في القرآن
٢٤٢ الآيات ٨٩ - ٩٠
٢٥٤ الآيات ٩١ - ٩٣
	المطلب التاسع ومن أسباب انحراف بني إسرائيل (العصبية
٢٦١ والعنصرية)
٢٦١ الآيات ٩٤ - ٩٦
	المطلب العاشر ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل (عداوة
٢٧٠ أولياء الله)
٢٧٠ الآيات ٩٧ - ٩٩
	المطلب الحادي عشر ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل (ترك
٢٨٠ أوامر الله واتباع الشياطين)
٢٨٠ الآيات ١٠٠ - ١٠١
٢٨٦ الآيات ١٠٢ - ١٠٣
٢٩٢ «١» في معنى السحر
٢٩٣ «٢» سبب انتشار السحر
٢٩٣ «٣» تأثير السحر
٢٩٥ «٤» علة تأثير السحر
٢٩٦ «٥» علة تحريم السحر
٢٩٨ «٦» عقوبة الساحر
٢٩٩ «٧»
٣٠٠ «الأولى»
٣٠٢ «الثانية» تعليم الملكين السحر
٣٠٣ «الثالثة»
٣٠٧ «الرابعة»
	المطلب الثاني عشر ومن أسباب الانحراف في بني إسرائيل
٣١٢ (الردائل الأخلاقية)

٣١٢	الآيتان ١٠٤ - ١٠٥
٣١٢	أولاً
٣١٣	ثانياً
٣٢١	الآيتان ١٠٦ - ١٠٧
٣٢٢	الجهة الأولى
٣٢٣	الجهة الثانية
٣٢٤	الجهة الثالثة
٣٢٤	الجهة الرابعة
٣٢٥	الجهة الخامسة
٣٢٦	الجهة السادسة
٣٢٧	الجهة السابعة
٣٢٨	الجهة الثامنة
٣٣٥	الآية ١٠٨
٣٣٩	ثالثاً (من رذائل بني إسرائيل الأخلاقية) الحسد
٣٣٩	الآيتان ١٠٩ - ١١٠
٣٤٧	..	فصل مشتركات اليهود والنصارى والمشركين في أسباب الانحراف ..
٣٤٩	الأمر الأول
٣٤٩	الآيتان ١١٠ - ١١١
٣٥٥	الآية ١١٣
٣٥٩	الأمر الثاني من أسباب الانحراف محاربة العبادة وأماكنها
٣٥٩	الآيتان ١١٤ - ١١٥
٣٦٦	الأمر الثالث الشرك
٣٦٦	الآيتان ١١٦ - ١١٧
٣٧٥	الأمر الرابع رفضهم للرسالة
٣٧٥	الآيتان ١١٨ - ١١٩
٣٨١	الآية ١٢٠
٧٥	الآيات ١٢١ - ١٢٣
٣٩٣	من المصادر